

المملكة العربية السعودية  
جامعة أم القرى  
كلية اللغة العربية  
قسم الدراسات العليا العربية  
فرع الأدب



# المبالغة في البلاغة العربية

## تاريخها وصورها



اعداد الطالب :

علي بن سرحان عمر القرشي ٢٤٠٠ ر

اشراف الدكتور :

علي محمد حسن العمري

لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية ( فرع الأدب )

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

١١١١١١١١١

بسم الله الرحمن الرحيم

( مقدسه )

الحمد لله الذي تعبدنا بقرآنه المجيد الذي ( لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ) .  
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .  
ومحمد :

فإنَّ البحثَ في بلاغةِ الكلمةِ بحثٌ جليلٌ ، يستمدُّ جلاله من جلالِ الكلمةِ التي بها كَوَّنَ الكونَ ، وخلقَ الإنسانَ ، ونزلَ الوحيَ ، والتي منَّ اللهَ علينا — معشرَ المسلمين — بأنَّ تعبدنا بها في قرآنه المجيد ، الذي تحدى به أفسحَ العربِ وأبلغهم ، فأذعنوا لبلاغته ، وأقروا بها ، وصدقوا بكلماته ، وعملوا بمقتضاها ، فسادوا والأمم ، وصدعوا بنداؤَ الحق في الأرض .

ولقد تنوعت الأبحاث التي تتناول بلاغة الكلمة ، وحاول النقاد والبلاغيون أن يضموا التسميات والمصطلحات التي يدرسون من خلالها بلاغة الكلمة ، وكان من بين هذه المصطلحات مصطلح " المبالغة " الذي اخترته موضوعاً لهذه الرسالة ، وهذا المصطلح ليس تسميةً للون بلاغي فقط كسائر مصطلحات البلاغة من استعارة ، وكناية ، وتشبيه ، واطناب ، وقصر ، وطباق ، وجناس . . الخ ولكنه يحمل في ذاته حكماً على الكلمة يتبادر من إطلاقه الحكم على الكلمة بتجاوز الحقيقة ، والإفراط والإسراف والإدعاء ، والكذب ، ولقد شاع هذا " المصطلح " في تراثنا البلاغي ، والنقدي شيوعاً طاف به في معظم أساليب الكلام العربي ، وأطلق أيضاً على بعض أساليب القرآن الكريم . وكان شيعته ، وحمله لذلك الحكم في ذاته مدعاة لتباين مواقف النقاد والبلاغيين قديماً والدارسين حديثاً حول ما تسمى بهذا الاسم ، ذلك التباين الذي لا يناقش — غالباً — ما بنى عليه ذلك الحكم الذي يحمله هل يصح أو لا ؟

ولهذا كانت مراجعة هذا " المصطلح " أمراً جديراً بالأهمية ، يستمدُّ أهميته من جلال الأساليب التي أطلق عليها هذا " المصطلح " وحكم به عليها ، ومن خطورة اتصاف هذه الأساليب بما اقترن به من تزهد ، وتجوز ، وادعاء ، وكذب ، فإذا استطعنا أن ننفك به عما اقترن به من اتهام للكلمة ومصادرة لها ، فإننا نبقى على

صحة إطلاق مصطلح بلاغي وجد في تراثنا النقدي والبلاغي ، لا يضير قرآنا الكريم وتراثنا العربي ، ويبقى البحث فيه بعد ذلك متجها عما إذا كان لهذا " المصطلح " قيمة في تقدير بلاغة الكلمة .

وإذا لم ينفك عما اقترن به ، فلا ضير علينا من أن نلغيه من مصطلحاتنا البلاغية وذلك لأن قرآنا الكريم ، وتراثنا الأصيل أو لسي بكثير من تراثنا النقدي والبلاغي ، ولبحث ذلك كان علي أن أتناول مدلول كلمة " المبالغة " في اللغة قبل أن تكون مصطلحا بلاغيا تتعارض حوله الآراء ، ثم تتبع تطور هذا المصطلح وما اقترن به عبر رحلته في تراثنا النقدي والبلاغي من مصطلحات ومفاهيم، وسيكون هذا هو موضوع الباب الأول من هذا البحث حيث سأتبع فيه مدلول المبالغة في اللغة ثم أتناول مدلولها في التأليف العربية سواء أكانت نحوية أم لغوية ، أو نقدية ، أم بلاغية ولن أغفل أيضا تلك الدراسات التي تناولت إعجاز القرآن الكريم ، وتفسيره ، وسأقسم هذا الباب بعد التمهيد إلى ثلاثة فصول :

#### الفصل الأول ويتناول

- المبالغة وتطور مصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجري .

#### الفصل الثاني ويتناول :

- المبالغة وتطور مصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجري .

#### الفصل الثالث ويتناول :

- المبالغة وتطور مصطلحاتها عند علماء البلاغة المتأخرين .

والذي دعا إلى هذا التقسيم هو : تسهيل الدراسة ، والمتابعة بوضع حلقات يقف الدارس والقارئ عندها ، حيث جعلت نهاية القرن الرابع هـ للفصلين الأول ، وذلك لأن هذه الفترة تمثل بداية نمو البلاغة الغربية عبر الحركة النقدية والتي شهدت في أواخر القرن الرابع نشاطا ملحوظا يدعوني أن أتبع نمو " مصطلح المبالغة " هنا وهناك في ثقة فيها كثير من الاستقصاء والتأمل ، ذلك الأمر الذي سأكتفي فيه في الفترة الثانية التي تمثل موضوع الفصل الثاني بتتبع " المبالغة " عند الأعلام في مختلف الاتجاهات .

وأما فترة الفصل الأخير من هذا الباب فهي تمثل فترة انحسار البلاغة وجمودها ، وسيتناولها البحث عند السكاكي ومن تابعوه في مزج البلاغة بالمنطق والفلسفة ، وعند ضياء الدين بن الأثير الذي عاصر السكاكي وحذا حذو القدماء ، وعند الإمام العلوي الذي عاصر الخطيب ، وحاول أن ينهج منهاجاً يختلف عن منهج

السكاكي ، وستكون الطريقة في كل هذا هي تتبع تسمية هذا المصطلح ، ومعرفه الأساليب التي أدخلت تحته ، ودرجات المبالغة وماذا يقصد بها ؟ وهل تقف عند بلوغ النهاية في المعنى ؟؟ أو تتجاوز ذلك الى الإسراف والكذب والإدعاء .  
وأما الباب الثاني من هذا البحث فسيتناول ( أساليب المبالغة في البلاغة العربية ) حيث سأدرس فيه الأساليب التي أخضع تراثنا البلاغي والنقدى رقابها للمبالغة .

حيث سأبين في كل أسلوب ، كيف أدخله البلاغيون والنقاد تحت المبالغة؟ ومدى صحة هذا الصنيع ، وهل يصح أولا ؟ وسأعرض لبعض أمثلة هذه الأساليب التي حكم عليها بالمبالغة بالتحليل والدراسة ، لنعرف أي الاتجاهين أكثر شرا للنص : هل هو ذلك الاتجاه الذي يخضعها للمبالغة ، أو ذلك الاتجاه الذي يدرس تلك الأساليب في سياقها الخاص من خلال وجودها اللفوي ، وسأقسم دراسة هذه الأساليب على أبواب البلاغة العربية في ثلاثة فصول :

الفصل الأول :

#### أساليب المبالغة في علم البيان

وسأعرض فيه للمبالغة في كل من التشبيه ، والاستعارة ، والكناية .

#### الفصل الثاني :

#### أساليب المبالغة في علم المعاني

وسأعرض فيه للمبالغة في كل من صور الاطناب ، والقصر .

#### الفصل الثالث :

#### أساليب المبالغة في علم البديع

وسأعرض فيه للمبالغة ، والفلو كباب من أبواب البديع ، وسأعرض لها أيضا

في حسن التعليل ، وتجاهل العارف ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم .

وأما الباب الأخير من هذا البحث فسيتناول " مكانة المبالغة في البلاغة العربية "

حيث سأتناولها في فصلين :

#### الفصل الأول :

#### شيوخ التعليل بالمبالغة وأسبابه

حيث سأحاول فيه استنتاج الأسباب التي أدت الى شيوخ التعليل بالمبالغة

في تراثنا النقدي والبلاغي .

## الفصل الثاني :

## العلاقة بين القبول والرفض

وسأحاول فيه تفسير المواقف المختلفة والمتباينة من العلاقة .  
 وإنني لأحمد الله العزيز الذي أمدني بتوفيقه وعونه إلى أن أسير في خطوات  
 هذا البحث حتى استوى على سوقه ، تاركا تقدير معاناته لمن نظر فيه وقدره .  
 وأتوجه بالشكر إلى كل من قدم لي عونا ، ومشورة في إخراج هذا البحث  
 وأخص بالشكر أستاذي الجليل الدكتور علي العماري الذي ما فتى يسد خطاي  
 بتوجيهاته الصائبة ، ويقوم زيني بعلمه الفزير ، ومصيرته الثاقبة ، حيث فتح لسي  
 صدره ، وحاو وأفكارى ونقحها ، وشجع في روح البحث والاستقلال في الرأي ، وسهر  
 على قراءة هذا البحث ومدارسته ، فوهب لي وقتا يفوق الوقت المخصص لي بكثيـر ،  
 ذلك الأستاذ الذي لم تكن علاقتي معه علاقة المشرف بتلميذه ، بل كانت علاقتي به  
 علاقة الأب الحنون ، والأخ الموجه ، والمعلم القدير ، فجزاه الله عنى خيرا الجزاء ،  
 ووهبه الصحة والعافية وأعان على كلمة الحق .

كما أتوجه بالشكر الجزيل والامتنان العظيم إلى كل مسئول ومشرف على

## الهيئات التالية :

- \* وزارة المعارف التي أتاحت لي هذه الفرصة فابتمعتني دارسا .
- \* جامعة أم القرى بمكة المكرمة .
- \* كلية الشريعة والدراسات الإسلامية التي قبلتني دارسا بها قبل تأسيس  
 كلية اللغة العربية .
- \* كلية اللغة العربية التي خرج هذا البحث في رحابها .
- \* قسم الدراسات العليا العربية .
- \* إدارة الدراسات العليا بهذه الجامعة الفتية .
- \* وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ( .

عالي سرحان عمر القرشي

٩ جمادى الثانية عام ١٤٠٢ هـ

## الباب الأول

النظر التاريخي لفكرة المبالغة ومصطلحاتها

تمهيد : المعنى اللغوي للمبالغة

الفصل الأول :

المبالغة وتطور مصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجري

الفصل الثاني :

المبالغة وتطورها ومصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجري

الفصل الثالث :

المبالغة عند المتأخرين

( تمهيد )

المعنى اللغوي للمبالغة :

قبل أن أمضي قدما ، في تتبع حركة هذا المصطلح عبر تراثنا النقـــــــدى  
والبلاغي رأيت من الضروري أن أتبين دلالة هذا المسمى اللغوية ، حتى نكون  
بعد ذلك على بيّنة بمدى قرب أو بعد هذا المصطلح من دلالة اللغوية عبر هذه  
الرحلة .

وليكون ذلك أيضا نبراسا نستضي به في فهم هذا المصطلح ، ويكشف لنا  
ما أصابه من انحراف عن مفهومه اللغوي ، يؤدي الى الخلط والاضطراب .  
فأبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠هـ ، يقول :  
" قال الليث : والمبالغة أن تبلغ من العمل جهدك " (١) .  
وقال ابن سيدة " وتبالغ الدبّاغ في الجلد : انتهى فيه . عن أبي حنيفة  
... والمبالغة أن تبلغ من الأمر جهدك " (٢) . فهي هنا دلالة على بذل أقصى  
الغاية من الطاقة والجهد .

وعلى هذا جاء قول ابن منظور : -

" بالغ يبالغ مبالغة وبلاغا اذا اجتهد في الأمر . والمبالغة أن تبلغ في الأمر  
جهدك " (٣) .

ولأجل هذه الدلالة صح أن تطلق وصفا لمن يبذل أقصى الغاية من جهده  
وطاقته في الأمر . يقول الفيروز ابادى : -

" وفي الحديث كل راقعة رفعت علينا من البلاغ ، أى ما بلغ من القرآن والسنن  
أو المعنى من ذوى البلاغ أى التبليغ ، أقام الاسم مقام المصدر ، ويروى بالكسر أى  
من المبالغين في التبليغ ، من بالغ مبالغة وبلاغا اذا اجتهد في الأمر " (٤) .

وعلى هذا ، فالمبالغة ومادتها مؤشر نهاية في الأمر ليس بعده من مزيد .  
وعليه قول الزمخشري : -

" وتبالغ فيه المرض والهّم اذا تهاهى " (٥) .

وقول ابن سيدة :

" وتبلغ به مرضه : اشتد " (٦) .

- 
- (١) تهذيب اللغة : بلغ ج ١٣٩/٨ (٤) القاموس المحيط : بلغ  
(٢) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة : بلغ ج ٣١٥/٢ (٥) اساس البلاغة : بلغ  
(٣) لسان العرب : بلغ (٦) المحكم : بلغ ج ٣١٥/٥



وقول صاحب القاموس :

" وتبلغ بكذا اكتفى به ، والمنزل تكلف اليه البلغ حتى بلغ ، وبه العلية اشتدت ، وبالغ في أمرى لم يقصر " (١) .

ولقد جنى المؤشر النهائي لهذه الكلمة على هذا المصطلح ان أن موقعها مظنة الشك في أن تزيد هذه الغاية التي يشير اليها عن حدها ، فتقلب الـ في ضدها فتوسم بالكذب ، والتجاوز ، والإفراط . تلك السمات التي لم أر في المعاجم التي عالجت هذه المادة دلالة على وسمها بها إلا في جهة من الجهات التي يمكن أن يفسر بها قول الفيروز ابادى " وثنا" أبلغ : مبالغ فيه " .

وذلك ان أخذ هذا القول وفسر بنأى عن جميع أقواله في هذه المادة . وهو الأمر الذى لا يدعو اليه التحرى والإيناف .

ومن هنا يمكن أن نفسر ونفهم احتراز ابن قتيبة ، من أن هذا الـ

يراد به الكذب وذلك حيث يقول :

" تقول العرب اذا أرادت تعظيم مهلك رجل ، عظيم الشأن ، رفيع المكان ، عام النفع ، كثير الصنائع " أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكته الريح ، والبرق ، والسما ، والأرض ، يريدون المبالغة في وصف المصيبة به وانها قد شملت وعمت ، وليس ذلك بكذب لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيـه " (٢) .

## ( الفصل الأول )

استعمال المبالغة ومصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجري

بداية التسمية بلفظ " المبالغة " :

ان أول نصوص تحمل فكرة المبالغة في الفكر العربي وتسميها صراحة نجدها عند النحاة الأوائل وبالتحديد عند الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ هـ. عندما حدد لتلميذه سيويه الفرق بين خشن واخشوشن وقد حكى ذلك سيويه بقوله " قالوا خشن ، وقالوا اخشوشن وسألت الخليل فقال : كأنهم أرادوا - المبالغة والتوكيد كما أنه اذا قال اعشوشبت الأرض فإنما يريد أن يجعل ذلك كشيء عا قد بالغ " (١) .

فكرة المبالغة هنا تدل على زيادة في المعنى لزيادة الحروف ، فالزيادة في معنى أى اشتقاق عن النواة الأولى لذلك الاشتقاق هي التي سماها الخليل المبالغة .

فالمبالغة تطلق على تكثير المعنى . والفكرة نفسها طبقها سيويه في صيغ المبالغة وذلك حيث يقول " وأجروا اسم الفاعل ، اذا أرادوا أن يبالفوا في الأمر مجراه ، اذا كان على بناء فاعل لأنه يريد به ما أراد بفاعل من ايقاع الفعل ، الا أنه يريد أن يحدث عن المبالغة " (٢) . وعلى هذا تكون المبالغة في اللفظة المفردة فكرة أصيلة في اللغة احتفلت بها ودلت عليها بألفاظها ، تلك الألفاظ التي تشكل من النواة الأولى بالاشتقاق لتحمل فكر الانسان العربي في معرفته للأشياء ومقارنة بعضها ببعض .

وانتقلت هذه الفكرة التي تطلق على تكثير المعنى من اللفظة المفردة إلى التراكيب ، وقد كان ابن قتيبة - فيما نعلم - أول مطلق لهذا المصطلح على ارادة تكثير المعنى في التراكيب ، ان ورد ذلك المصطلح في ثلاثة مواضع من كتابه ( تأويل مشكل القرآن ) .

يقول في أولها معلقا على قوله تعالى ( فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ) (٣) : ( تقول العرب : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكته - الريح والبرق ، والسماء والأرض يريدون المبالغة في وصف المصيبة به ، وانها قد شملت

( ٢ ) الكتاب : ١ / ١١٠

( ١ ) الكتاب : ٤ / ٧٥

( ٣ ) سورة الدخان : ٢٩

وعمت ، وليس ذلك بكذ بل لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهبه القائل فيه .

- وهكذا يفعلون في كل ما أرادوا أن يعظموه ، ويستقصوا صفته ( ١ ) .
- ثم أورد لذلك عددا من الأمثلة من القرآن الكريم ، والشعر العربي ، وأمثال العرب وكناياتهم - أصبح أكثرها فيما بعد أمثلة للمبالغة على اختلاف درجاتها كما سيظهر ذلك من خلال هذا الباب - ومنها قوله تعالى ( وإن كان الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكورا ) ( ٢ ) . وقوله جل وعز ( وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ) ( ٣ ) ، وقوله تعالى ( وبلغت القلوب الحناجر ) ( ٤ ) . وقول الشاعر :  
الشمس طالعة ليست بكاسفة  
تبكي عليك نجوم الليل والقمر ( ٥ )  
وقول الأعشى :
- رجعت لما رمت مستحسرا  
ترى للكواكب ظهرا وبيضا ( ٦ )  
وقول النابغة في وصف سيوف :
- تقد السلوقي المضاء نسجه  
وقول النمر بن تولب في صفة سيف :
- تظل تحفر عنه ان ضربت به  
تعد الذراعين والساقين والهادى ( ٨ )  
وقول مهلم :
- ولولا الريح أسمع أهل حجر  
صليل البيض تقرع بالذكور ( ٩ )  
وقول قيس بن الحظيم يصف طعمته :
- ملكته بها كفي فانهرت فتقها  
يرى قائم من دنها ما وراءها  
وقوله أيضا :

- 
- ( ١ ) تأويل شكل القرآن : ١٦٧ ، ١٦٨ . ( ٢ ) سورة القلم : ٥١  
( ٣ ) سورة ابراهيم : ٤٦  
( ٤ ) سورة الأحزاب : ١٠  
( ٥ ) أراد : الشمس طالعة تبكي عليه ، وليست مع طلوعها كاسفة النجوم والقمر ، لأنها مظلمة ( تأويل شكل القرآن : ١٦٨ ) . ( ٦ ) وبيض : برييق .  
( ٧ ) السلوقي : الدرع المنسوبة الى سلوق . قرية باليمن . والصفاح : الحجر العريض وقال أبو حنيفة : نار حباب ونار أبي الحباب : الشر الذي يسقط من الزناد .  
( ٨ ) الهادي : العنق قال في اللسان ( الهادية والهادى العنق لأنها تتقدم على البدن ولأنها تهدى الجسد ) .  
( ٩ ) الذكور : السيوف التي عملت من حديد غير انييث ( الآمال ٢ / ١٣٤ ) .

- ( ١ ) لو أنك تلقي حنظلا فوق بيضا  
وقول عنصرة :  
وأنا المنية في المواطن كلها  
وقول بشار :  
إذا ما غضبنا غضبة مضرية  
وقول ابن ميادة :  
ولو أن قيسا قيس عيلان أقسمت  
وقول الطرماح :

- ( ٢ ) ولو أن حرقوصا على ظهر قملة  
يكر على صفي تميم لولت  
ثم قال ( والعرب تقول : " له الظمُّ والرَّمُّ " إذا أرادوا تكثير ماله .  
والظَّمُّ : البحر ، والرَّمُّ : الثَّرَى : وهذا لا يملكه إلا الله تعالى .  
ويقولون : " فلان دون نائلة السنين " ويقولون : ( له الصَّحُّ والريحُ " )  
يريدون ما طلعت عليه الشمس ، ومسرت عليه الريح ،  
ويقولون " فلان يثير الكلاب عن مرائبها " ( ٣ ) .  
وقال الشاعر :

- تركوا جارهم يأكله \_\_\_\_\_  
صَبَّحَ الوادى ، ويرميه الشجر  
ثم عقب على ذلك بقوله ( وهذا كله على المبالغة في الوصف ، وينوون في  
جميعه يكاد يفعل ، وكلهم يعلم المراد به ) ( ٤ ) .  
وقد أشار ابن قتيبة إلى أن بعض أهل اللغة يسمي مثل هذا بالإفراط وتجاوز  
المقدار فقال : ( وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن ،  
وينسبها فيه إلى الإفراط وتجاوز المقدار ، وما أرى ذلك إلا جائزا حسنا على ما بيناه  
من مذاهبتهم ) ( ٥ ) وهذا يدل على أن ابن قتيبة يعتبر المبالغة درجة دون الإفراط  
وتجاوز المقدار ) .

- ( ١ ) يقول : ترامى القوم في القتال حتى لو أن ملقيا ألقى علي بيضهم حنظلا لجرى  
عليها كما يجرى على الأرض ولم يسقط لشدة تراصفهم . و " عن " بمعنى  
" على " وذو سامه : بيضة المذهب . والسام : عروق الذهب ( تأويل مشكل  
القرآن : ١٧٤ ، ١٧٥ ) .  
( ٢ ) قال محقق تأويل مشاكل القرآن : ( الحرقوص : دويبة : أكبر من البرغوث  
وعضها أشد من عضه كما قال الجاحظ في الحيوان ٤٥٤/٦ ) .  
( ٣ ) يريدون أنه لشهره ولومه يثيرها عن مواضعها ، يطلب تحتها شيئا فاضلا من  
طعمها ليأكله وهذا مالا يفعله بشر ( تأويل مشكل القرآن : ١٧٨ )  
( ٤ ) المصدر السابق : ١٧٨ . ( ٥ ) المصدر السابق : ١٧٢ ، ١٧٣ هناك  
تناقض بين قوله هذا وحكمه على بعض هذه الأبيات التي أوردها هنا بالكذب  
في الشعر والشعراء ، وسنبين ذلك مستقبلا إن شاء الله .

وأما الموضوع الثالث الذي أورد فيه ذكر المبالغة ، فقد اعتبرها فيه غرضاً من أغراض المقلوب ، الذي عرّف فيما بعد بالأضداد ، حيث عدّ من أغراضه التطهير ، والتفاؤل في نحو السليم ، والمبالغة في الوصف في نحو قولهم للشكس " جونه " لشدة ضوئها . وللغراب " أعور " لحدة بصره .

والاستهزاء في نحو قولهم للحبشي : أبو البيضا ، وللأبيض : أبو الجون (١) .

### المبالغة في نقد الجاهلية وصدور الإسلام :

وإن كانت المبالغة لم تتخذ هذا الاسم دليلاً عليها إلا عند ابن قتيبة فإنها كانت معروفة بل مطلوبة في كثير من الأحيان عند متذوقي الشعر ونقدته في الجاهلية وصدور الإسلام والسبب في ذلك أن العربي يحرص في وصفه للشئ على المثال ويصر عليه . ويرى تقصير الشاعر عن بلوغ المثال قدحاً في شاعرية الشاعر . فعندما أنشد حسان بن ثابت النابغة الذبياني قصيدته التي منها قوله :

لنا الجفّاتُ الغرُّ يلمعن بالضحي وأسيفنا يقطن من نجدة دما

ولدنا بن العنقا واهني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابننا

قال له النابغة : " أنت شاعر ولكنك أقلت طعانك وأسيفك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك " (٢) وما ذلك إلا لأن حسان قصر في الفخر عن بلوغ المثال ولم يبالغ في تكثير عدد السيوف والجفان ، وعندما قال امرؤ القيس في وصف فرسه :

فلسوط ألهبوب وللحاق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب (٣)

فاستعان عليه بهذه الأشياء ، وجدت امرأته الميغضة له في قصوره عن المثال والمبالغة في وصف فرسه مجالاً لتفضيل علقمة الفحل عليه في قوله (٤) :

فأدركهن ثانياً من عنانها يمرّ كمر الرائح المتحلّب (٥)

وعلى سنة التدقيق هذه سار الكثيرون بعد النابغة على هديها . إذ عرضت امرأة لكثير فقالت له : أنت القائل :

فما روضة بالحزن طيبة الشرى يمجّ الندى جثجاؤها وعراؤها  
بأطيب من أردان عزة موهنا إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها (٦)

(١) تأويل مشكل القرآن : ١٨٥ (٢) الموشح : ٨٢  
(٣) الأخرج : ذكر النعام ، مهذب : من الإهداب وهو الإسراع في الطيران والعدو  
(٤) انظر الموشح : ٢٨ - ٣٠ . (٥) الرائح : السحاب . المتحلّب : المتساقط المتتابع .

(٦) قال المبرد : الجثجات : ريحانه طيبة الريح برية : والعرار : البهار البرى وهو حسن الصفرة طيب الريح . والمندل : العود . وقوله : موهنا : يقول بعد هدّ من الليل ( انظر الموشح : ٢٣٩ ) .

فقال لها نعم : فقالت له : فض الله فاك : أرأيت لو أن ميمونة الزنجبية  
بخرت بمنديل رطب أما كانت تطيب ؟ ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

(١) ألم تر أنني كلما جئت طارقا - وجدت بها طيبا وان لم أتطيب (١)

ولم يجد عبد الملك بن مروان عن هذه السنة عندما قال لكثير حين أنشده :

علي ابن أبي العاصِ دِلاصِ حصينة أحاد المسدى سردها وأذالها

(٢) يوود ضعيف القوم حمل قثيرها - ويستطلع القرم الأشم احتالها (٢)

\* قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحب الي من قولك ان تقول . وفي رواية :

(٣)

ألا قلت كما قال الأعشى :

وإذا تحي كتيبة ملوممة - خرساء يخشى الذائدون نهالها

(٤) كنت المقدم غير لا بس جنّة - بالسيف تضرب معلما أبطالها (٤)

وهذه السنة هي التي أوجدت لعزة مجالا للتدلل على كثير بعد رضائها الا

يبلوغ الغاية القصوى في وصف وجده بها فلقد دخلت عليه يوما متكرة فقالت : أنشدني

أشد بيت قلته في حبّ عزة . فقال جقلت لها :

وَجِدْتُ بِهَا وَجِدَ الْمِضْلَ قَلْوَصَهُ - بِمَكَّةَ وَالرَّكْبَانَ غَابٍ وَرَأْسَهُ ح

فقالت : لم تصنع شيئا . قد يجد هذا ناقة يركبها ، فأطرق ثم قال :

(٥) وَجِدْتُ بِهَا مَا لَمْ يَجِدْ ذُو حَرَارَةٍ - يَمَارِسُ جَمَّاتِ الرِّكْبِيِّ النَّوْازِحِ (٥)

ثم قالت له : لم تصنع شيئا : يجد هذا من يسقيه فأطرق ثم قال :

وَجِدْتُ بِهَا مَا لَمْ تَجِدْ أُمَّ وَاحِدٍ - بِوَاحِدِهَا تَطْوِي عَلَيْهِ الصَّفَائِحَ

فضحكت ثم قالت : ان كان ولا بد فهذا (٦)

وهذا التقليد الذوقي الذي يطلب المبالغة هو الذي جعل عمر بن أبي ربيعة

يغار من الأحوص عندما أنشده قوله في عبلة :

كَأَنِّي مِنْ هَوَاكِ أَخَوْفَرَاشَ - تَجَلَّجَلُ نَفْسَهُ بَيْنَ التَّرَاقِي

جلفت لك الغداه فصدقيني - برب الهيت والسبع الطبقاق

(١) انظر الموشح : ٢٣٩ - ٢٤٣ حيث أوردنا هذا الخبر بطرق مختلفة وقد ورد

في بعضها أن اسمها : قطام .

(٢) الدلاص من الدروع : اللينة المطساء . أذالها : أطال زيلها . القتير :

رووس المسامير في الدرع ، ويراد بها الدروع أيضا . يستطلع : يستثقل .

(٣) الموشح : ٢٣٠ ، ٢٣١

(٤) النهال : العطاشي كأنها ظامئة التي شرب الدماء .

(٥) الجمّة : الماء نفسه ( اللسان ) . الركبة : البئر

(٦) الموشح : ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

لأنت إلى الفؤاد أشدَّ حياءَ من النادى إلى الكأس الدهاق

فيقول له حنقا : ما تركت لي شيئا ، ولقد أغرقت في شعرك ، قال : كيف  
أغرقت في شعري وأنت الذى تقول :

إذا حذرت رجلي أبوحُ بذكرها ليذهب عن رجلي الخدور فيذهب  
ولكن عمر لا يقتنع بهذا الجواب ، ولا يرى أن في اغراقه اغراقا يكافئ اغراق  
الأحوص فيقول : الخدور يذهب والعطش لا يذهب (١) .

وأما قول عمر بن الخطاب عن سر إعجابه بشعر زهير بأنه كان لا يعاظر بين  
الكلام ولا يتتبع حوشية ولا يمدح الرجل إلا بما في الرجال (٢) .

ففيه تركيز النظر على المثال في صفات الرجال ليمدح بها المدوح ، وإذا قيس  
المثال بمقدار تحققه في الواقع كان المثال مبالغة ، ومن هنا نستطيع أن نقول ان عمر  
ابن الخطاب رضي الله عنه بقوله هذا يجرى على سنن الذوق الأدبي الذى كان  
سائدا حينذاك في تحبيذ المبالغة وطلبها .

وهذا التفسير لا ينلغز رواية أخرى لهذا القول وردت بقوله رضي الله عنه  
" ولا يمدح الرجل إلا بما فيه " وذلك لأن المبالغة التي يطلبها عمر على الرواية الأولى  
لا تناقض الصدق الذى يلح عليه عمر على الرواية الثانية وذلك لأن عمر الخبير بالشعر  
يعرف مقياس الصدق وحدوده في الشعر .

المبالغة النسبية كانت مطلوبة ومعروفة في العصر الجاهلي و صدر الإسلام لم تتخذ  
اسما يدل عليها إلا على لسان الشاعر عمر بن أبي ربيعة عندما قال للأحوص " ولقد  
أغرقت في شعرك " (٣) ان وصف استقصاء الأحوص في شدة تعلقه بمعلقة اغراقا ولكن هذه  
التسمية لم تلق من يأخذ بها لتشجيع وصف الاستقصاء وبلوغ الغاية التي يطلبها منذ وقسي  
الشعر والنقاد آنذاك إلا بعد وقت طويل من اطلاقها .

(١) الموشح : ٣٦١ ، ٣٦٢

(٢) نقد الشعر : ٩٥ ، الموازنة : ٢٩٣/١

(٣) الموشح : ٣٦١

## المبالغة في التأليف النقدي والبلاغي

### ( ١ ) المبالغة في بدايات التأليف النقدي والبلاغي :

لقد كانت اللفظة المفردة أسعد حالا في اتخاذ اسم يدل على المبالغة فيها في وقت مبكر نسبيا عنه في المبالغة في التراكيب على يد الخليل وسيبويه . وذلك لأن المبالغة في التراكيب ظلت غفلا من اسم يدل عليها حتى وجدنا التسمية لها في بدايات التأليف النقدي والبلاغي وأول ما نجد ذلك عند الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ هـ . فدل عليها بالإفراط . ولكن ما هو مفهوم الإفراط عنده ؟؟

لقد قال الجاحظ " وإن قد ذكرنا شيئا من الشعر في صفة الضرب والطعن فقد ينهني أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من إسراف من أسرف فأما من أفرط فقول مهلهل (١) :

ولولا الريح أسمع من بحجر صليل البيئ تقرع بالذكور (٢)

فالإفراط كما ترى هنا ليس استقصاء للمعنى أو بلوغ غاية فيه فحسب بل يتجاوز ذلك إلى الإسراف الأمر الذي سوغ للجاحظ أن يضع الشعر الذي وسمه بالإفراط مقابل الشعر المقتصد الذي وصف قائله بالصدق حيث يقول :

" ومن أشعار المقتصد في الشعر أنشدني قطرب :

تركت الركاب لأربابها فأجهدت نفسي على ابن الصعق

جعلت يدي وشاحا له وبعض الفوارس لا يعتنق

ومن صدق عن نفسه عمرو بن الأطنابه حيث يقول :

واقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيخ

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تُحمدى أو تستريح (٣)

ثم دل عليها ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ بالمبالغة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، ولكنها التسمية التي تحتجب حينما عند معاصري ابن قتيبة ومن جاءوا بعده حتى عصر قدامة بن جعفر فقد كان المبرد المتوفي سنة ٢٨٥ هـ

( ١ ) سبق أن أوردنا البيت ضمن أمثلة ابن قتيبة هكذا : ولولا الريح أسمع أهل حجر

..... تأويل مشكل القرآن ( ١٧٤ ) .

( ٢ ) الحيوان : ٤١٨/٦

( ٣ ) الحيوان : ٤٢٥/٦ قال في اللسان : جشأت نفسه : ارتفعت فنهضت اليه ، وجاشت من حزن أو فزع ، وجشأت : ثارت للقي ، وقال عقب انشار هذا البيت : يريد تطلعت ونهضت جزعا وكراهة .



يدل عليها بالتجاوز ، فهو يعلق على قول قيس بن معان :

فلو أن ما أبقيت من معلق بعود تمام ما تأود عودها

بقوله " وهذا متجاوز كقول القائل : ويمنغها من أن تطير زمامها ،

وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب بسسه  
الحقيقة . . . " (١)

وبالإفراط وذلك حين يقسم التشبيه الى أربعة أضرب هي التشبيه

المفرط ، والتشبيه المصيب والتشبيه البعيد الذي يحتاج الى التفسير ولا يقوم  
بنفسه وهو أخشن الكلام (٢)

ولكن المبرد ان لم يأخذ اسم المبالغة في الدلالة على التراكيب التي

جاءت بها فلقد أخذ بهذا الاسم للدلالة على الزيادة في معنى اللفظة

المفردة وذلك عند زيادة الهاء على بعض أوزان مفعال . وذلك حيث يقول في

تغليق على قول أم عمران ترثيه :

الله أيد عمراناً وطهره

يدعوه سرا واعلاناً ويرزقه

" قولها : بيدي ملحادة : مفعال من اللاحاد كما تقول رجل معطاء

ومحسان ومكرام وأدخلت الهاء للمبالغة كما تدخل في راوية وعلامة ونسابة (٣)

وحسبني أحمد بن يحيى المعروف بثعلب المتوفي سنة ٢٩١ هـ والشاعر

الأمير عبد الله بن المعتز المتوفي سنة ٢٩٦ هـ لم يأخذ بمصطلح المبالغة

الذي أخذ به ابن قتيبة في الدلالة على التعظيم ، واستقصاء الصفة ، وبلغ

نهاية المعنى ، ان دل ثعلب على المبالغة بنهاية الوصف في قوله :

" نهاية وصف الخلق قبل زهير في هرم :

يطغفهم ما ارتعوا حتى إذا طعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتقوا

وقوله :

على مكثريهم حق من يعترتهم

وعند المقلين الساحة والبذل

وقوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم

قوم بأحسابهم أو مسجد هم قعدوا

وقوله :

من تلق منهم ثقل لا قيت سيدهم

مثل النجوم التي يسرى بها الساري (٤)

(١) الكامل : ١٧٣/١ (٢) نفس المصدر : ١٠١/٢

(٣) المصدر السابق : ٢١٦/٢ ، ٢١٧ (٤) قواعد الشعر : ٣٧

وأيا فانه بالامكان أن نفهم من قول ثعلب :

" والتشبيه الخارج عن التصدي والتقصير كقول امرئ القيس :

كأن دماء الهاديات ينحصره      عصارة حنّاء يشيب مرجّـل (١)

ان التعدي يعني المبالغة .

وأما التسمية التي أخذها من سبقه ورأيناها عند الجاحظ وعند المبرد

فهي الإفراط الذي يرتبط عنده بالإغراق ان سماها " الإفراط في الإغراق " ،

ومعروف أن الإغراق مصطلح من مصطلحات المبالغة الذي يعرف عند

المتأخرين للدلالة على أقصى درجاتها في النجاوز والبعث كما سنرى ذلك

ان شاء الله عند بحث المبالغة عند المتأخرين . ولكن الشواهد التي جاء

بها للدلالة على الإفراط في الإغراق لا تنطبق على جميعها دلالة الإغراق

عند المتأخرين ، ان هو عندهم مستعمل للدلالة على ما امتنع عادة لا عقلا (٢)

وذلك حيث أورد ضمن شواهد الإفراط في الإغراق قول قيس بن الخطيم :

واني لدى الحرب العوان موكل      بأقدام نفيس ما أريد بقاءها

وقول الحطيئة يمدح ابن شماس :

متى تأتته تشوالى ضوء ناره      تجد خير نار عندها خير موقد (٣)

ما يدل على أن ثعلب لم يقصد بالإغراق هذه الدلالة الاصطلاحية

له عند المتأخرين وانما قصد به دلالة اللغوية في بلوغ الغاية والاستيعاب

ومجاورة الحد ان أنه يقال " أغرق النبل وغرقه بلغ به غاية المد في القوس ،

وأغرق النازع في القوس أى استوفى مداها . . . . . وأغرق في الشيء جاوز الحد (٤)

وهو أيضا القصد الذي قصده عمر بن أبي ربيعة في محاورته للأحوص

المتقدمة ومصطلح الإفراط الذي ربطه ثعلب بالإغراق شاركه فيه ابن المعتز

ان دل على المبالغة بالإفراط في الصفة ، حيث عدّها من جملة محاسن الكلام

والشعر (٥)

أما ابن طباطبا محمد بن أحمد العلوي المتوفي سنة ٣٢٢ هـ فقد

(١) المصدر السابق : (٣١) والهاديات : جمع هادية وهن الأوائل والمتدمات فتي

السير من سرب الوحش .

(٢) الأيضاح : ٢٠٧

(٣) قواعد الشعر : ٤١ ، ٤٢ . عشاء : قصده ليلا ، وعشا الى النار اذا استدل

عليها ببصر ضعيف .

(٤) لسان العرب : غرق (٥) البديع : ٥٩ ، ٦٥

استخدم هذين الاسمين ، الإغراق والإفراط للدلالة على المبالغة فقال  
 "متدحا القدماء" . . . . . ومع هذا فإن من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء ،  
 وفي صدر الاسلام من الشعراء ، كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها  
 على القصد للصدق فيها مديحا وهجاء وافتخارا ووصفا ، وترغيبا وترهيبا  
 الا ما قد احتل الكذب فيه في حكم الشعر : من الإغراق في الوصف والإفراط  
 في التشبيه وكان يجري ما يورده منه مجرى القصص الخفية ، والمخاطبات  
 بالصدق . . . . . " ( ١ )

وقال واصفا بعض الأبيات التي وصفت بالمبالغة : " فأما الأبيات  
 التي أغرق قائلوها في معانيها فكقول النابغة الجعدي :  
 بلفنا السماء فعدة وتكرمنا      وإنما لرجو فوق ذلك مظهرنا  
 وكقول الطرماح :

لو كان يخفى على الرحمن خافية      من خلقه خفيت عنه بنو أسود ( ٢ )  
 قوم أقام بدار الدل أولهم      كما أقامت عليه جذمة الوتر . . . . .  
 وهو يقصد بالإغراق ما قصده به ثعلب حيث جعله مرادفا للإفراط  
 ومعادلا له .

وقد استخدم ابن طباطبا التشبيه البعيد والمجاز المبعاد للحقيقة  
 للدلالة على الإفراط وتجاوز الحد في المعنى ( ٣ ) .

— ٢ — عند قدامة بن جعفر :

ولكن التسمية بالمبالغة التي كانت تجرز في استحياء عند القدماء  
 استطاعت أن تكشف القناع عن وجهها وتحجب غيرها من المصطلحات النافعة  
 عند القدماء كالإفراط . . . . . والتجاوز . . . . . والتشبيه المفرط . . . . . منذ أن تعرض  
 لها وأطال القول فيها قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر ، وشدة الظهور  
 هذه بعد الاستحياء الطويل هي التي جعلت ابن أبي الاصبغ المصري المتوفي  
 سنة ٦٥٤ يتوهم أن تسمية المبالغة هي تسمية قدامة حيث يقول في كتابه :  
 ( بديع القرآن ) عن الإفراط في الصفة " وهذه تسمية ابن المعتز وسماه قدامة  
 : المبالغة ، وسماه من بعدهما : التبليغ ، والناس على تسمية قدامة " ( ٤ ) .

( ١ ) عيار الشعر : ٩ ( ٢ ) المصدر السابق : ٤٦

( ٣ ) انظر المصدر السابق : ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٤ ، ١٢٠ .

( ٤ ) بديع القرآن : ٥٥

وقد ذكر ذلك أيضا في كتابه ( تحرير التحبير ) حيث يقول —

الإفراط في الصفة :

” وهو الذي سماه قدامة المبالغة وسماه من بعده التبليغ وأكثر الناس على تسمية قدامة لأنها أخف وأعرف ” ( ١ ) .

وقد نقل هذا عنه أيضا ابن حجة الحموي المتوفي سنة ٨٣٧ هـ . حيث يقول : ” وتسمية المبالغة منسوبة الى قدامة ومنهم من سمي هذا النوع التبليغ ، وسماه ابن المعتز الإفراط في الصفة وهذه التسمية طابقت المسمى ولكن أكثر الناس رغبوا في تسمية قدامة لخفتها ” ( ٢ ) .

ولعله من خلال تتبعنا لهذه التسمية يتضح لنا وهم نسبتها الى قدامة حيث رأيناها على لسان الخليل وسيبويه في الدلالة على زيادة المعنى في الكلمة المفردة وعلى لسان المبرد في سبب زيادة الهاء في بعض أوزان مفعال وعلى لسان ابن قتيبة في ثلاثة مواضع من كتابه تأويل مشكل القرآن فسي الدلالة على التعظيم واستقصاء الصفة وبلوغ الغاية في المعنى .

وقول ابن أبي الاصبغ ” والناس على تسمية قدامة ” يبين لنا مدى مزاحمة هذه التسمية لما عداها من التسميات الأخرى .

وإنما قوله ” وسماه من بعده التبليغ ” فليس الا تسجيل لهذه التسمية التي أخذ بها بعض المتأخرين للدلالة على درجة من درجات المبالغة فقط . والا فان المبالغة هي التسمية التي سادت واتخذت من الفلو والتبليغ والإغراق درجات لها كما سنرى ذلك قريبا ان شاء الله .

وأما مفهوم المبالغة عند قدامة بن جعفر فلربما أمكن فهمه بعد طول تأمل في أقواله . وذلك لأن المصطلحات ربما لم تكن واضحة عنده وضحها عند المتأخرين أو ربما لم يرد بالمبالغة ما أراد به المتأخرون من جعلها اسما عاما يندرج تحته الذو والتبليغ والاغراق فهو يقول : ” ومن أنكر على مهلهل والنمر وأبي نواس قولهم المتقدم ذكره — يعني قول مهلهل :

فلولا الريحُ أسمع من حجر  
صليل البيهقي تفرع بالذكور  
وقول النمر بن تولب :

أبقى الحوادث والأيام من نمر  
تظل تحفر عنه ان ضربت به  
أشبه سيف قديم أثره بهادي  
بعَد الذراعين والساقين والهادي

وقول أبي نواس :

وأخفت أهل الشك حتى إنه  
 قهو مغطى لأنهم وغيرهم ممن ذهب إلى الفلو إنما أرادوا به  
 المبالغة<sup>(١)</sup> . قال المبالغة كما يفهم من هذا القول ليست تسمية للفلو  
 الذي ورد في هذه الأبيات .

ثم فسّر بعد ذلك الفلو الذي جعل هدفه المبالغة بأنه ما يخرج عن  
 الموجود ويدخل في المعدوم وعلل وجوده بإرادة المثل وبلوغ النهاية فسي  
 النعت حيث يقول " والفلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم  
 فإنما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النعت " (٢) .

ثم يوضح رأيه في الفلو بعد ذلك مباشرة فيقول :

وهذا أحسن من المذهب الآخر فإن قول النابغة في معنى قول النمر

ابن تولب على مذهب الاقتصار والرزوم الحد الأوسط :

وقد أبقت صروف الدهر منى كما أبقت من السيف اليماني

دون قول النمر وأتى دليلاً قوياً على أن ما بقى منه أكثر مما بقى من

النابغة<sup>(٣)</sup> .

واسم الإشارة في قوله هذا يعود إلى الفلو الذي صرح بذكره بأنه

أجود من الاقتصار على الأمر الأوسط في قوله : " والفلو عندي أجود

المذهبيين " .

وما يدل على أن المبالغة تختلط بالفلو عند قدامة بن جعفر قوله في

تعليقه على موقف عبد الملك مع كثير الذي أورده سابقاً " والذي عندي في ذلك

أن عبد الملك أصح نظراً من كثير . إلا أن يكون كثير غلط واعتذر بما يعقده

خلافه ، لأنه قد تقدم من قولنا في أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر

الوسط بما فيه كفاية ، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة . . . . " (٤) . والذي

تقدم من قوله هو أن الفلو أحسن من الاقتصار على الأمر الأوسط كما يتضح من

خلال ما أورده من أقواله .

فهو يسمى في تعليقه هذا الفلو بالمبالغة لأن الذي تقدم في أقواله

هو الفلو . ومن كل هذا يتضح أن القول بأن الفلو عند قدامة غير المبالغة

فيه كثير من التسرع ومن قال بذلك الدكتور بدوي طبانة حيث يقول :

(١) نقد الشعر : ٩٤ (٢) المصدر السابق : ٩٤

(٣) المصدر السابق : ٩٤

(٤) المصدر السابق : ١٠٠ وقد أوردها هذه القصة عند حديثنا عن المبالغة في

نقد الجاهلية وصدر الاسلام .

" والغلو عند قدامة وبعض البلاغيين والنقاد غير المبالغة " (١) .

والذي قاد إلى ذلك هو إيراد قدامة فصلاً خاصاً عن المبالغة جدّها فيه بعد يوهّم أنه يريد بها شيئاً آخر غير الغلو الذي قدم به الحديث بين يدي حديثه عن المعاني التي يدل عليها الشعران حدّها بقوله " وهي أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزأ ذلك فسي الغرض الذي قصده ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ في ما قصد " (٢) .

ولكن تطبيق هذا الحد على المبالغة يخرج منها ما يدل على المبالغة ابتداءً إذ أن قدامة في حده هذا يبين أنها تأتي تنمة أو تكلمة بعد ذكر الشاعر الحال المجزية في المعنى . ولهذا لا يدخل ما حمل المبالغة في هذا الحد ، وهذا يتضح من خلال الأمثلة التي مثل بها لمفهوم هذا الحد حيث يقول :

وذلك مثل قول عمير بن الأيهم التغلبي :

وُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا      وَتَبَعَهُ الْكِرَامَةَ حَيْثُ سَارَا (٣)

فاكرامهم للجار ما كان فيهم من الأخلاق الجميلة الموصوفة واتباعهم الكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل .

ومثل ذلك قول الحكم الخضري :

وأقْبِحُ من قَرْدٍ وَأَبْسَلُ بالقَرْي      من الكلبِ أَمْسَى وهو غرثانٌ أعجفُ (٤)

فقد كان يجزى في الدم أن يكون هذا المهجو أبخل من الكلب ، ومن المبالغة في هجائه قوله " وهو غرثان أعجف " .

ومن هذا الجنس لدريد بن الصمة :

متى ما تدع قومك ادع قومي      فيأتي من بني جشم فئام  
فوالس بهمه حشدنا ما      بدا خصر الحبيبة والخدام (٥)

والمبالغة في هذا الشعر هي في قوله " الحبيبة " .

- 
- (١) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي : ٢٧٣ (٢) نقد الشعر : ١٤٦  
(٣) في الصناعتين : ٣٧٩ (مالا)  
(٤) الفرثان : الجائع . الأعجف : النحيف الذي ذهب سمه  
(٥) في الصناعتين : ٣٧٨ (وحولي من بني جشم) الفئام : الجماعة من الناس . البهمه : الشجاع . الخدام : قال في اللسان : الخدمة - السير الفليط المحكم مثل الحلقة يشد في رسغ البعير . . . والخدمة : الخلل وهو من ذلك لأنه ربما كان من سيور يركب فيها الذهب والفضة والجمع خدام .

وسار على هذا النهج في بقية الأمثلة التي أوردها (١) .  
ومن هنا يستطيع الباحث أن يقول : أن هذا الحد الذي حد به  
قدامة المبالغة لا يضم جميع ما سماه بالمبالغة . فكيف نجعله حاصرا للمبالغة  
ثم نحكم على ضوء هذا الحد بأن الغلو غير المبالغة عنده ؟  
والذي يمكن أن نقوله . وتشهد به أقوال قدامة : إن الغلو عنسده  
جاء حينما غير المبالغة . . . ان كانت المبالغة هدفا من أهدافه ، وجاء حينما  
آخر مرادفا لها ان استطاع قدامة أن يبيد لها منه .

عند الأمدى : ————— ٣

أما الأمدى المتوفي سنة ٣٧٠ هـ فلا نجد في كتابه " الموازنة بين  
شعر أبي تمام والبحتري " تفرقا بين مصطلحات المبالغة فهو كثيرا ما يسميها  
بالمبالغة ومن ذلك قوله :

" وقد بالغ النابضة في وصف عنق المرأة بالطول فقال :

(٢) إذا ارتعشت خاف الجبان ارتعاشها ومن يتعلق حيث علق يفترق

فجعل القرط يخاف أن يسقط من هناك ، فيهلك . وانما أخرج هذا

كالمثل : أي لو كان مما يقع منه الخوف لخاف ، وقال ذو الرمة :

(٣) والقرط في حرّة الذفرى معلقة تباعد الحبل منه فهو يضطرب

فدل بقوله " تباعد الحبل منه " على طول عنق المرأة .

فهذه المبالغة لا ثقة مستحسنة لأنه دل على الوصف بالشئ الذي

يخص الموصوف ، لا بالشئ الذي يخص غيره " (٤) .

وقوله : " وقد بالغ أبو العتاهية في وصف الحضور بالدقة فقال :

ومحضرات زرننا ————— بمد الهدو ومن الجؤذور

(٥) نفج روافد فهن ي ————— بسن الخواتم في الحضور

لم يرد أن - واتمهن في حضورهن لأن هذا محال وانما ذهب الى مثل

قولهم : جفنة يقعد بها خمسة ، أي لو قعدوا فيها لوسعتهم .

(١) نقد الشعر : ١٤٦ ، ١٤٧ (٢) الرعات : القرط

(٣) الذفران : ما عن يمين العنق ويساره . وحرّة الذفرى : موضع مجال القرط .

وقيل : حرّة الذفرى صفة أي أنها حسنة الذفرى اسيلتها .

(٤) الموازنة : ١٥٥/١ ، ١٥٦ .

(٥) في اللسان امرأة نفج النقيية : اذا كانت ضخمة الأرداف .

وقال الآخر :

لها حافرٌ مثل قُصْبِ الوليِّ — د يتخذ الفأرُ فيه مفاراً (١)

أى لو اتخذ مفاراً لوسعه . فكذلك قوله " يلبس الخواتم في الحضور " أى تصلح حضورهن أن تدخل في خواتمهن لدقتها على المبالغة " (٢) .  
ويسمى في بعض الأحيان بالإسراف والإفراط حيث قال في تعليقه

على قول أبي تمام :

أرأمةٌ كُنْتُ مألَفَ كلِّ رِيْمِ — لو استمتعت بالأنس القديم  
أدارَ البؤسُ حَسَكِ التَّصَابِي — التي فَصَّرَتِ جنَّاتِ النعيمِ  
لئنَ أصبحتَ ميدانَ السَّوافي — لقد أصبحتَ ميدانَ الهمومِ  
ومما ضَرَمَ البرحَاءُ أنسى — شكوتُ فما شكوتُ إلى رحيمِ  
أظنَّ الدمعَ في يدِّي سيقى — رسوماً من بكائي في الرسومِ (٣)

" وهذا من أسهل كلامه ، وأسلم نظمه ، ومن أبعد قول من التكلّف والتعسف ، وأشبهه بكلام المطبوعين وأهل البلاغة . وقوله " فصرت جنات النعيم " معنى حسن ، ولكن فيه إسراف أن يجعل داراً دخلت من أهلها دار بؤس وهو بالك فيها — جنات النعيم .

وقد أتى البحترى بهذا المعنى متبعا فيه أبا تمام ولكن جاء به على سبيل اقتصاد واعتدال ، وتجنب الإفراط فقال :

يا مَفَانِي الأُحبابِ صِرْتِ رسوماً — وغدا الدهرُ فيكَ عندى ملوماً  
ألفَ البؤسُ عَرَصَتِكَ وقد كنتَ — تِبعيَني جَنَّةً ونعيمًا (٤)

وقال أيضا واسما المبالغة بالإفراط :

" وقال البحترى أيضا في المتوكل ما لا يقال الا لخليفة الا أن يفطر مفطرًا فيقوله لغيره :

حلفتُ بمن أدعوه ربًّا ومن له — صلاتي ، ونسكي خالما ، وصهايا  
لقد حطت دِينَ اللّاهِ غيرَ حياطةٍ — وقمتُ بأمر الله خيرَ قيامِ (٥)

- (١) القصب : قدح من خشب مقعر . والمفار : الحجر الذي يفرور فيه ، أى يدخل .  
(٢) الموازنة : (١/١٥٦ ، ١٥٧) .  
(٣) السوافي : جمع سافية وهي الريح التي تسفي التراب . البرحاء : الشدة والمشقة وخص بعضهم به شدة الحمى . . ويقال للمحموم الشديد الحمى أصابته البرحاء .  
(٤) الموازنة : (١/٤٧٨ ، ٤٧٩) قال في اللسان : عرصة الدار وسطها وقيل هو ما لا بناء فيه سميت بذلك لا عراض الصبيان فيها .  
(٥) الموازنة : (٢/٣٥٥ ، ٣٥٦)



ويظهر أن الإفراط عند الآمدى درجة أعلى من درجات المبالغة حيث يلتصق ذلك من ربطة الإفراط بالإسراف وذلك حين وصف قول أبي تمام " وصرت جنات النعيم " بالإسراف ثم أثنى على البحترى الذى اتبعه في هذا المعنى ولكنه نجح الإفراط وجاء به على سبيل اقتصاد واعتدال (١) .

ويلتصق أيضا من تصفيف الإفراط واسناده الى اسم الفاعل المضعف حيث يقول " وقال البحترى أيضا في المتوكل مما لا يقال الا لخليفة الا أن يفرط مفرط فيقوله لفبره " (٢) .

ومن الأسماء التي أطلقها الآمدى على المبالغة تسمية الإغراق وذلك

حيث يقول تعليقا على قول البحترى :

قد بينَ البينَ المَفْرُقَ بيننا عَشَقَ النَّوَى لِرَيْبِ ذَاكَ الرَّيْبِ (٣)

" والنوى هي النية في انتقال القوم من موضع الى آخر ، فعشف النية

لربيب الرب استعارة ليست بحسنة ، غير أن الشعراء المتأخرين قد اصطلحوا على أن جعلوا البين ، والقراق ، والنوى كالأشخاص وجعلوها الحائلة بينهم وبين من يهوونه ، فهم يستعمرون الأفعال لها ، وربما حسنت الاستعارة لها وربما قبحت على حسب مواضعها في الإغراق والاقتصاد " (٤) . وقد عبّر الآمدى بعض الأحيان عن المبالغة بما يدل على بلوغ الغاية في التعبير اللميلى قصد اليه الشاعر وذلك حيث يقول :

ومما أحسن فيه البحترى وأغرب من قوله في شدة الحب وتمكنه :

غَيْرُ حَبِّ لِسُلَيْمٍ لَمْ يَزِدْ فِيهِ إِسْمَافٌ ، وَلَمْ يَنْقُصْهُ ضَنْ  
ثَبَّتَتْ تَحْتَ الْحَشَا أَخِيَهُ مِنْهُ لَا يَنْزِعُهَا الْمُهْرُ الْآرِنَ (٥)

وقد بالغ أيضا الذى يقول :

أَحْبَبُّكَ مَا لَوْ كَانَ بَيْنَ قِبَائِلٍ مِنَ النَّاسِ أَعْدَاءٍ ، لَجَرَ التَّصَافِيَا  
وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ وَأَجُودٌ - قَوْلُ الْأَعَشَى :

كَفَى بِالذِّى تَوْلِيَنَهُ لِمَنْ تَجَنَّبَا شِفَاءً لِسُقْمٍ بَعْدَ مَا كَانَ أَشْهَبَا  
وَلَكِنَّمَا كَانَتْ تَوَابِعُ حَبِّهَا تَوَالَى رَيْعِي السَّقَابِ فَأَصْحَبَا  
فَتَمَّ عَلَى مَعْشُوقَةٍ لَا يَزِيدُهَا إِلَيْهِ بِلَاءُ السُّوءِ إِلَّا تَحَبُّبَا

(١) المصدر السابق : (١) / ٤٧٨ ، ٤٧٩ (٢) المصدر السابق : ٣٥٦ / ٢

(٣) قال في اللسان : الربرب القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء ولا واحد له والربيب : المعاهد .

(٤) الموازنة : ٣٥٦ / ٢ (٥) الأرِن : من أرِن أى نشط

وكان حماد الراوية يتعجب من قوله " فتم على معشوقة " ويقول .  
هذا - والله - غاية العشق ونهاية الإحسان في النسيب .  
ويضيف الآمدى :

وقال " أبو حية النيمى " في هذا المعنى وجاء به أكشف وأبين  
وأحسن ما جاء به الأعمشى ، فقال :  
لَا مُنْكَرَ لِقَبِيحٍ مِنْكَ أَعْرِفُهُ      أَنِي أَرَاهُ - إِذَا أَرْضَاكَ - إِحْسَانًا  
أَحَدَتْ النَّفْسَ مَسْرُورًا بِذِكْرِكُمْ      حَتَّى كَانَ الَّذِي قَدْ كَانَ مَا كَانَا  
ومن هذا أخذ أبو الشَّيْبِ بِي - والله أعلم - قوله :

فَأَهْنَقْنِي فَأَهْنَتَ نَفْسِي عَامِدًا      مَا مِنْ يَهُونَ عَلَيْكَ مِنْ أَكْبَرَمِ  
ولكنه تناهى في التذلل فأحسن المعنى كل الإحسان (١) .

وأما مصطلح الغلو الذى سمي به قدامة بن جعفر المبالغة في كتابه  
" نقد الشعر " وتحدث عنه كثيرا فلم يرد عند الآمدى الذى اطلع على نقد  
الشعر ونقد بعض أجزاءه كما يذكر في موازنته (٢) إلا في موضع واحد - من  
الموازنة وهو قوله :

( والتفضيل الحسن الذى لا غلوفيه وكان قائله قد غلا - قول

البحترى - أيضا في أبي ليلى الحارث بن عبد العزيز بن دلف :  
يَبِينُ بِالْفَضْلِ أَقْوَامٌ فَيَفْضُلُهُمْ      مَوْحِدٌ بِفَرِيحِ الذِّكْرِ مِنْفَرِدُ  
تَوَحَّدَ الْقَمَرُ السَّارَى بِشَهْرَتِهِ      وَأَنْجَمَ اللَّيْلُ نَثْرَ حَوْلِهِ نَبَدَدُ (٣)

وان كان الآمدى لم يستخدم الغلو إلا في موضع واحد من موازنته  
ولم يفرق بينه وبين المبالغة فانه يظهر من خلال أحاديثه ونقده ان للمبالغة  
حدا تقبل فيه وأن هناك حدا لا تقبل فيه ، فهي تقبل ما لم تبلغ درجة  
المحال . لذلك فقد عد استعارة العرض للدهر أمرا محالا يفوق درجة  
المبالغة المقبولة ان يقول في تعليقه على قول أبي تمام :

بِیَوْمٍ كَطُولِ الدَّهْرِ فِي عَرْضِ مِثْلِهِ      وَوَجِدَى مِنْ هَذَا وَهَذَاكَ أَطْوَلُ

" فجعل للدهر وهو الزمان عرضا ، وذلك محض المحال ، وعلى أنه  
ما كانت به إليه حاجة ، لأنه قد استوفى المعنى بقوله " كطول الدهر " فأتى  
على العرض في المبالغة . (٤)

(١) الموازنة : ١٢٤/٢ ، ١٢٥

(٢) المصدر السابق : ٣١٨/٢ ، ٣٦٩

(٣) المصدر السابق : ١٩٧/١

(٤) المصدر السابق : ٣٥١/٢

وقد قبل الآمدى بعض ما وصل إلى هذه الدرجة بشروط : كأن يكون مخرجه مخرج التوسع والمبالغة . إذ قال في تعليقه على قول أبي تمام :  
 من الهيف لو أن الخلاخيل صيرت لها وشحا جالت عليها الخلاخيل  
 " والإحالة فيما مخرجه مخرج الحقيقة أقيح من الإحالة فيما مخرجه مخرج التوسع والمبالغة " (١) . أو أن يكون مخرجها مخرج النوادر فيستحسن ولا يستقبح . نحو قول الشاعر :

من رأى مثل حبيتي تشبه البدر إن بدا  
 تدخل اليوم ثم تدخل أردانها غدا  
 ومثل هذا كثير (٢)

أو أن يكون إخراجها كالمثل وذلك كما وجه قول النابغة :  
 إذا ارتعشت خاف الجبان ارتعاشها ومن يتعلق حيث علق يفترق  
 لقوله " وإنما أخرج هذا كالمثل أي لو كان ما يقع منه الخوف لخاف " (٣)

عند الرمانسي : — ٤ —

هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله المعروف بالرماني المتوفى سنة ٣٨٦ هـ . من كبار النحاة يقول عنه أبو حيان التوحيدي ( انه عالم بالرتبة في النحو واللغة ، والكلام ، والمنطق ) (٤)  
 ولقد عرض لإعجاز القرآن الكريم ، وألف فيه رسالة النكت في إعجاز القرآن وبين فيها أنه في أعلى طبقة من طبقات البلاغة ، وقسم البلاغة إلى عشرة أقسام فقال : ( والبلاغة على عشرة أقسام ( الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة والتلازم والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان ) (٥) . ثم أخذ يفسر هذه الأبواب ويتحدث عنها في القرآن الكريم . ومنها المبالغة التي عرفها بقوله :

( المبالغة هي الدلالة على كبر المعنى على جهة التفسير عن أصل اللفظة لتلك الابانة ) (٦) وحاول أن يعدد أنواعها التي استخرجها من القرآن فذكر أنها تأتي على وجوه عدة :

- (١) المصدر السابق : ١٥٤/١ (٢) المصدر السابق : ١٥٤/١  
 (٣) المصدر السابق : ١٥٦/١ (٤) الامتاع والمؤانسة : ١٣٣/١  
 (٥) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٢٦  
 (٦) المصدر السابق : ١٥٤

- ١ - الضرب الأول : المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى المبالغة ، وذلك على أبنية كثيرة منها فعلان ، ومنها فعّال وفعول ومفعّل ، ومفعّال ، ففعالان كرحمان عدل عن راحم للمبالغة . .
- ٢ - الضرب الثاني : المبالغة في الصيغة العامة في موضع الخاصة : كقوله تعالى " خالق كل شيء " (١) .
- ٣ - الضرب الثالث : إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم للمبالغة كقول القائل ( جاء الملك ) اذا جاء جيش عظيم له . ومنه قوله عز وجل " وجاء ربك والملك صفا صفا " (٢) . فجعل مجي دلائل الآيات مجيئا له على المبالغة في الكلام . ومنه : " فاتي الله بنيانهم من القواعد " (٣) أى أتاهم بعظيم بأسه ، فجعل ذلك إتيانا له على المبالغة . ومنه قوله تعالى ( فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا " (٤) .
- ٤ - الضرب الرابع : اخراج الممكن الى الممتنع للمبالغة نحو قوله تعالى " ولا يدخلون الجنة حتى ينجس الجمل في سم الخياط " .
- ٥ - الضرب الخامس : إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج فمن ذلك " وإنا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين " (٥) ومنه " قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين " (٦) .
- ٦ - الضرب السادس : حذف الأجوبة للمبالغة كقوله تعالى " ولو ترى ان وقفوا على النار " (٧) و " لو يرى الذين ظلموا ان يرون العذاب " . ومنه : " ص ، والقرآن ذى الذكر " (٩) كأنه قيل لجاء الحق أول لعظم الأمر أو لجاء بالصدق ، كل ذلك يذهب اليه الوهم لما فيه من التفخيم ، والحذف أبلغ من الذكر ، لأن الذكر يقتصر على وجهه والحذف يدلّ على الوهم الى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم . (١٠)

---

( ١ )	سورة الأنعام : ١٠٢	( ٢ )	سورة الفجر : ٢٢
( ٣ )	سورة النحل : ٢٦	( ٤ )	سورة الأعراف : ١٤٣
( ٥ )	سورة سبأ : ٢٤	( ٦ )	سورة الزخرف : ٨١
( ٧ )	سورة الأنعام : ٢٧	( ٨ )	سورة البقرة : ١٦٥
( ٩ )	سورة ص : ١	( ٩ )	سورة ص : ١
( ١٠ )	النكت في اعجاز القرآن الكريم : ١٠٤ - ١٠٦		

وتعريف الرماني للمبالفة بأنها " الدلالة على كبر المعنى " أمر قد أشار إليه سيبويه عن الخليل حيث يقول سيبويه " قالوا خشن وقالوا اخشوشن وسألت الخليل فقال : كأنهم أرادوا المبالفة والتوكيد ، كما أنه إذا قال اعشوشبت الأرض فأنما يريد أن يجعل ذلك كثيرا عاما قد بالغ " (١) . ولكن ما ذكره من أنها لا تأتي إلا على جهة التفسير عن أصل اللفظة أمر لا يسلم له ، إذ لا دليل له في كل تفسير ، افترضه ، وفرض صحة المعدل في الأبنية في الضرب الأول لا يلزم به دليل مقنع ، ويبقى الخلاف حوله كما بقي حول مشكلة مسألة أخرى تتعلق به ، وهي مسألة أيهما الأصل : المصدر أم الفعل ؟ (٢) كذلك أشار سيبويه إلى أنه في بعض الأحيان تتعذر معرفة المعدل من غير المعدل . حيث يقول : ( وإذا كان الاسم على بناء فعال ، نحو هذا ورقاشي ولا تدرى ما أصله ، أمعدول أم غير معدول أم مؤنث أم مذكر ، فالقياس فيه أن تصرفه لأن أكثر هذا البناء مصروف غير معدول مثل : الذهاب ، والصلاح ، والفساد والرياب ) (٣) .

وأما الضرب الثاني الذي عبر عنه بالمبالفة بالصيغة العامة في موضع الخاصة . فقد مثل له بقوله تعالى ( خالق كل شيء ) (٤) ولكن الرماني الذي يفهم من قوله هذا أن هناك أشياء لا تدخل تحت هذا الإخبار لم واحدا منها .

وأما الضرب الثالث فقد مثل له بقوله تعالى ( وجاء ربك والملك صفا صفا ) (٥) ويقول سبحانه ( فلما تجلجلى ربه للجبل جعله دكا ) (٦) وليس له دليل في أي منهما على أن أصل الكلام غير ما ورد في النص القرآني الكريم . فما الذي يمنع مجيء " الله عز وجل يوم القيامة ، مجيئا يليق بجلاله ؟؟ وما الذي يمنع تجليه للجبل تجليا يليق بجلاله .

( ١ ) الكتاب : ٧٥ / ٤

( ٢ ) انظر شرح ابن عقيل ٥٥٩ / ١ حيث فضل الخلاف حول هذه المسألة وخلاصة ما ذكر : ان البصريين يذهبون إلى أن المصدر أصل والفعل والوصف مشتقان منه ، وأن الكوفيين يذهبون إلى أن الفعل أصل والمصدر مشتق منه ، وذهب قوم إلى أن المصدر أصل والفعل مشتق منه ، والوصف مشتق من الفعل ، وذهب ابن طلحة إلى أن كلا من المصدر والفعل أصل برأسه وليس أحدهما مشتقا من الآخر .

( ٣ ) الكتاب : ٢٨٠ / ٣ ( ٤ ) سورة الأنعام : ١٠٢

( ٥ ) سورة الفجر : ٢٢ ( ٦ ) سورة الأعراف : ١٤٣

وأما تمثيله بقوله تعالى ( فأتى الله بنيانهم من القواعد )<sup>(١)</sup> فهذا أسلوب متكرر في القرآن الكريم يأتي في مجال العذاب والمعقاب فقال عز وجل ( قد مكر الذين من قبلهم ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون )<sup>(٢)</sup> وقال عز وجل ( فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . . . . )<sup>(٣)</sup> والعرب تقول " أتى عليهم الدهر أي أهلكه " وقيل : ( أتى على فلان أي موت ويلا . أصابه )<sup>(٤)</sup> وعلى ذلك فسر ابن كثير هذه الآية فقال ( أي اجتثته من أصله ، وأبطل عمله )<sup>(٥)</sup> وأما الضرب الرابع فالتسليم له بما جاء فيه من أنه إخراج الممكن السي الممتنع يلزم بالتسليم بإمكانية دخول هؤلاء المخبر عنهم الجنة ! ومن يستطيع أن يسلم بذلك والله عز وجل يقول ( ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، وكذلك نجزي المجرمين . لهم من جهنم مهاد ، ومن فوقهم غواشٍ ، وكذلك نجزي الظالمين )<sup>(٦)</sup> .

والضرب الخامس هو طريقة الكلام في مثل تلك المواقف والأغراض .  
وأما أمثلة الضرب السادس التي قال فيها بحذف الأجوبة ، فليس فيها تغيير عن الأصل ، لأن حذف الجواب غرض من أغراض التعبير ، وليس هناك جواب متمين حتى نفترض أنه الأصل لأن الذكر كما قال ( يقتصر على وجه والحذف يذهب فيه الوهم الى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم )<sup>(٧)</sup> .

وقد تحدث عن هذا الباب عند الرماني ، الدكتور عبد القادر حسين فقال : " ان الرماني قد جمع ألوان المبالغة التي كانت معروفة في عصره ، وقبل عصره ، ووضمها في باب واحد ، مبينا أشكالها وشواهدا ، مضيفا عليها من حسه المرهف ، ذوقه الفني ، دون أن يعرض لدرجاتها التي عرفت عند المتأخرين من تبليغ وتلو وإغراق ، فقد ترك هذه المهمة لمن يأتيون بعده كآبي هلال وابن رشيق " <sup>(٨)</sup>

- 
- |       |                                   |       |                        |
|-------|-----------------------------------|-------|------------------------|
| ( ١ ) | سورة التحل : ٢٦                   | ( ٢ ) | سورة النحل ٢٦          |
| ( ٣ ) | سورة الحشر : ٢                    | ( ٤ ) | لسان العرب : أتى       |
| ( ٥ ) | تفسير ابن كثير : ١٦٥ / ٢          | ( ٦ ) | سورة الأعراف : ٤٠ ، ٤١ |
| ( ٧ ) | النكت : ١٠٦                       | ( ٨ ) |                        |
| ( ٨ ) | أثر التاحة في البحث البلاغي : ٢٧٠ |       |                        |

ولكن المدقق في هذا الباب يجد أن أضربه لم تستوعب المبالغة في الاستعارة التي ذكرها الرماني في باب الاستعارة إذ قال في قوله تعالى "سنفرغ لكم أيها الثقلان" (١) . "والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن" ولكن هذا أبلغ في الوعيد وحقيقته سنعمد إلا أنه لما كان الذي يعمد إلى شيء يقصر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب مما يجرى به التعارف ، بولنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة" (٢) .

وفي قوله تعالى "فأنشرنا به بلدة ميتا" (٣) أيضا قال "النشر هاهنا استعمار وحقيقة : أظهرنا به النبات والأشجار والثمار فكانت كمن أهيئناه بعد إمامته ، فكأنه قيل : أهيئنا به بلدة ميتا من قولك : أنشر الله الموتى فنشروا ، وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس في أظهرنا ، والأظهار في الأحياء والانبثاق إلا أنه في الأحياء أبلغ" (٤) .  
كذلك فإن كثيرا من الشواهد التي ذكرت قبله أمثلة على الإفراط والمبالغة لا نجد لها استيعابا في هذه الأضرب الستة التي ذكرها في هذا الباب ، فأى ضرب من هذه الأضرب يدخل تحته بعض الأبيات التي ذكرها قدامة بن جعفر من مثل قول عمير بن الأبيهم التفليبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا  
ونتبعه الكرامة حيث سارا

أو قول الحكيم الخضرى :

وأقبح من قرد وأبخل بالقرى  
من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف

أو قول النمر بن ثولب في السيف :

تَظَلُّ تَحْفَرُ عَنْهُ إِنْ ضَرَبَتْ بِهِ  
بَعْدَ الذَّرَاعِينَ وَالسَّاقِينَ وَالْهَادِي

وفي الحقيقة ان الرماني "لم يدرس المبالغة بمعناها العام ، وإنما درسها في صورها الآتية" (٥) وحاول أن يستوعبها في الأضرب الستة التي ذكرها . ولكنه نددت به في ذلك عدة أضرب كالمبالغة في الاستعارة : والمبالغة بذكر الظمان في قوله تعالى "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله"

(٢) النكست : ٨٨

(٤) النكست : ٨٩

(١) سورة الرحمن : ٣١

(٣) سورة الزخرف : ١١

(٥) البلاغة تطور وتاريخ : ١٠٧

سريع الحساب (١) إذ قال مشيراً إليها "ولو قيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليفاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمان أشد حرصاً عليه وتعلق قلبه به" (٢) .

ولم يذكر الرماني من أسماء المبالغة إلا المبالغة . ولم يتعرض كما قال الدكتور عبد القادر حسين لدرجاتها من غلو وتبليغ واغراق .

ويبقى بعد ذلك مسألة ما إذا كان الضرب الرابع من الأضرب الستة ذكرها الرماني هو الذي ذكره قدامة في تعليقه على أبيات المهلهل والنمر وأبي نواس من أنها خارجة عن الموجود وداخلة في باب المعدوم (٣) كما ظن ذلك الدكتور عبد القادر حسين عندما قال " وهذا الضرب الرابع من ضروب المبالغة التي ذكرها الرماني متبعا فيها قدامة هو وحده الذي أثار الجدل قديما وحديثا " (٤) أم لا ؟

والحقيقة أن هناك فرقا بين هذا الضرب وبين ما ذكره قدامة إذ أن الأمثلة التي ذكرها قدامة إذا نظر إليها بمقياس الواقع الخارجي الذي نظره إليها قدامة نجد أنها خارجة عن الواقع وداخلة في باب المعدوم كما في قول المهلهل :

صليل البيض تفرع بالذكور

فلولا الريح أسمع من بحجر

وقول النمر بن ثعلب :

أشبه سيف قديم إشره بإدى

أبقى الحوادث إلا يوم من نصير

بعد الذراعين والساقين والهادى

تظل تحفر عنه إن ضربت به

وقول أبي نواس :

(٥) لتخافك النطف التي لم تخلق

وأنعفت أهل الشرك حتى أنه

بينما كان مثال الضرب الرابع الذي ذكره الرماني لا يحمل هذا

الخروج عن الواقع والدخول في باب المعدوم ، وإنما جاء لبيان استحالة

دخول هؤلاء الذين زعم النص القرآني الجنة بتعلق دخولهم إياها على

مستحيل يعرفون استعدته .

ومما سنقف عند في هذا الفصل دلالة "أبلغ" عند الرماني التي

أوردها في حديثه عن استعارات القرآن الكريم التي كان يجيء حديثه عنها

(٢) النكت : ٨١  
(٤) أثر النحاة في البحث البلاغي ٢٦٩

(١) سورة النور : ٣٩  
(٣) نقد الشعر : ٩٤  
(٥) نقد الشعر : ٩١ ، ٩٢



في الغالب بالطريقة الآتية اللفظ أو الكلمة ما هنا استعارة . . . . . وحقيقته . . . . .  
 . . . وهذه الاستعارة أبلغ . . . . . فهل كانت أبلغ هذه تعني أن الاستعارة أكثر

مبالغة أو أنها أكثر حسنا وأشد تأثيرا وتوكيدا في إبراز المعنى المراد ٢٢  
 والراجع في نظري أنه لا يعني بها المبالغة وإنما يعني بها بلوغ  
 الكلام عن طريق الاستعارة درجة من التأثير والقوة لا تبلغها حقيقة تلك  
 الاستعارة . والدليل على ذلك أنه نص على المبالغة في بعض المواضع من  
 تلك الاستعارات التي تعني له المبالغة فيها ولم يستغن بلفظ أبلغ في التعبير  
 عنها دليلا على إرادته بأبلغ شيئا آخر غير المبالغة وأن المبالغة كانت في تلك  
 المواضع عاملا من عوامل أبلغية الاستعارة التي تفضل بها عن الحقيقة .  
 وسنكتفي هنا ببعض الأمثلة من حديثه عن الاستعارات القرآنية ليتضح

فيها ما سبق ذكره .

قال في قوله تعالى " بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو  
 زاهق " ( ١ ) .

فالقذف والدفع هنا استعارة وهو أبلغ وحقيقته : بل نورد الحق على  
 الباطل فيدمغه وإنما كانت الاستعارة أبلغ لأن في القذف دليلا على القهر  
 لأنك إذا قلت قذف به إليه فإنما معناه ألقاه إليه على جهة الإكراه والقهر فالحق  
 يلقي على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب  
 ويدمغه أبلغ من يدمغه لما في يدمغه من التأثير فيه فهو أظهر في النكابة وأعلى  
 في تأثير القوة " ( ٢ ) .

وقال في قوله تعالى " ولما سقط في أيديهم " ( ٣ ) . هذا مستعارة  
 وحقيقته : ندموا لما رأوا من أسباب الندم ، إلا أن الاستعارة أبلغ للاحالة فيه  
 على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليد ، فكانت أكشوف في سوء  
 الأخبار لما يوجب من الويال " ( ٤ ) .

ونلاحظ أنه في هذه الأمثلة لم يذكر المبالغة مع أبلغ ولكن عندما عنت  
 له في المثالين التاليين ذكرها ولم يكتفياً بأبلغ عن ذكرها .

وأول هذين المثالين قوله في قوله تعالى " سنفرغ لكم أيها الثقلان " ( ٥ )

( ٢ ) النكبت : ٨٨ ، ٨٩

( ٤ ) النكبت : ٩٤

( ١ ) سورة الأنبياء : ٣٨

( ٣ ) سورة الأعراف : ١٤٩

( ٥ ) سورة الرحمن : ٣١

" والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ في الوعيد وحقيقته  
سنعمد الا أنه لما كان الذي يعمد الى شيء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه  
وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب ما يجري به التعارف ، دلنا بذلك على  
المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ليقع الزجر  
بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة " (١) .

وكما يظهر من قوله هذا فقد جاءت المبالغة ووقع الزجر بها عن طريق  
أبلغية الاستعارة عن الحقيقة .

( ٢ )

وثاني المثالين قوله في قوله تعالى " فأنشأنا به بلدة ميتا " النشر  
ها هنا مستعار وحقيقته : أظهرنا به النبات والأشجار والثمار فكانت كمن أحيينا  
بعد إمامته ، فكانه قيل : أحيينا به بلدة ميتا من قولك أنشأ الله الموتى  
فنشروا ، وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس في  
أظهرنا والإظهار في الأحياء والنبات إلا أنه في الأحياء أبلغ " (٣) فإذا  
جاءت المبالغة في قوله هذا سببا في أبلغية هذه الاستعارة فإنها لم تكن  
كذلك في كل استعارة من الاستعارات التي تحدث عنها والتي ذكرنا بعضها  
منها .

عند ابن جني :

- ٥

أما ابن جني صاحب الجهود المشكورة في دراسة اللغة وأسرارها ،  
فقد حظيت المبالغة منه باهتمام واضح كما يظهر في كتابيه الخصائص  
والمحتسب إذ عرض للمبالغة في اللفظة المفردة ، وفي التراكيب ، ففي الأولى  
اعتبر زيادة المبنى لزيادة المعنى وعقد لذلك بابا خاصا في خصائصه هو  
" باب في قوة اللفظ لثوة المعنى " اعتبر فيه أن الزيادة في البناء تأتي لمبالغة  
نسبية في معناه عن معنى البناء الأصلي وضرب لذلك مثلا بخشن واخشوشن  
" فمعنى خشن دون معنى اخشوشن ، لما فيه من تكرير الشين وزيادة الواو .  
ومنه قول عمر رضي الله عنه : اخشوشنوا وتمعدوا . أي اصلبوا وتناهوا في  
الخشنة . وكذلك قولهم : أعشب المكان ، فاذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا  
اعشوشبت . ومثله : حلا واحلولى ، وخلق واخلوق . وغدن واغددون " (٤)  
والفكرة في هذا هي جواب الخليل لسيبويه عن تساؤله عن خشن واخشوشن . (٥)

( ٢ ) سورة الزخرف : ١١

( ٤ ) الخصائص : ٢٦٤/٣

( ١ ) النكت : ٨٨

( ٣ ) النكت : ٨٩

( ٥ ) الكتاب : ٧٥

الذى ذكرناه في بداية هذا الفصل ، إلا أن ابن جنى علل الزيادة فـسـي  
المعنى بأنها لزيادة البناء الظاهر في تكرير العين وزيادة الواو .

وطبق ذلك على باب فـعـل وافتعل نحو قَدِرَ واقتدر فقال ( فاقتدر  
أقوى معنى من قولهم قَدِرَ . كذلك قال أبو العباس وهو محض القياس ، قال  
الله سبحانه " أخذ عزيز مقتدر " فمقتدر هنا أوفق من قادر ، من حيث كان  
الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ " (١) . وقاس على ذلك : كسب واكتسب  
في قوله تعالى " لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت " (٢) . ( وتأويل ذلك أن  
كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصفر . وذلك لقوله  
— عز اسمه — : " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى  
إلا مثلها " أفلا ترى أن الحسنة تصغر بإضافتها إلى جزائها ، صغر الواحد  
إلى العشرة ، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها ، لم تحتقر إلى الجزاء  
عنها ، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة ، ولذلك قال — تبارك  
وتعالى " تكاد السموات يتفطرن منه وتتشق الأرض وتخر الجبال هذا أن دعوا  
للرحمن ولدا " فإذا كان فعل السيئة ناهبا بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة  
المترامية ، عظم قدرها ، وفخم لفظ العبارة عنها ، فقل : لها ما كسبت  
وعليها ما اكتسبت فزيد في لفظ فعل السيئة ، وانتقص من لفظ فعل الحسنة ،  
لما ذكرنا " (٣) .

وطبق ذلك في زيادة بناء فـعـال عن فـعـيل فقال ( ومن ذلك أيضا  
قولهم : رجل جميل ، ومضى ، فإذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا : ومضاه  
وجمال ، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه قال :  
والمرء يُلحِقُه بغتيان الندى      خُلِقَ الكريم وليس بالوَضَّاءِ  
وقال :

تمشي بجهم حسن مـلـاح      أجم حتى هم بالصياح (٤)  
وكذلك حسن وحسان ، قال :

دار الفتاة التي كنا نقول لها      يا ظبية عطلا حسنة الجيد (٥)

وعلل ذلك بأنه تبع للزيادة في البناء عن طريق تضعيف العين فـسـي  
الفعل الذي أخذت منه تلك الصفة ( وكأن أصل هذا إنما هو لتضعيف العين

(١) الخصائص : ٢٦٤/٣ ، ٢٦٥ (٢) سورة البقرة : ٢٨٦  
(٣) الخصائص : ٢٦٥/٣ (٤) يعني بالجهم : فرجها والحديث عن امرأة  
( لسان العرب ملح ) .  
(٥) الخصائص : ٢٦٦/٣

في نحو المثال ، نحو قطع وكسر وبأبهما ، وإنما جعلنا هذا هو الأصل لأنه مطرد في بابيه أشد من اطراد باب الصفة . وذلك نحو قولك : قطع وقطع ، وقام الفرس ، وقومت الخيل ، ومات البعير ، وموتت الأبل ، ولأن العين قد تضعف في الاسم الذي ليس بوصف ، نحو قَبْرٍ وشمْرٍ وحمْرٍ . فدل ذلك على سعة زيادة العين ( ١ ) . وقاس ذلك في الأسماء فقال ج ( فأما قولهم : خطاف وان كان اسما فإنه لاحق بالصفة في افادة معنى الكثرة ، ألا تراه موضوعا لكثرة الاختطاف به ، وكذلك سكين ، انما هو موضوع لكثرة تسكين الذابح له ، وكذلك البزار والمطّار والقصار ونحو ذلك ، إنما هي لكثرة تعاطي هذه الأشياء وإن لم تكن مأخوذة من الفعل . وكذلك النساف لهذا الطائر ، كأنه قيل له ذلك لكثرة نسفه بجناحيه . وكذلك الخضاري للطائر أيضا ، كأنه قيل له ذلك لكثرة خضرته ، والحواري لقوة حوره وهو بياضه . وكذلك الزمل والزميل والنمّال ، انما كررت عينه لقوة حاجته الى أن يكون تابعا وزميلا وهو باب منقاد ( ٢ ) .

وظفق ابن جنى يطبق ذلك في مواضع متفرقة من كتابه المحتسب في تعيين وجوه شوان القراء والإيضاح عنها ( ٣ ) .

وأظن أن الذي ينبغي أن يستنتج من هذا أن المبالغة في اللفظة المفردة التي تأتي عن طريق زيادة البناء فيها عن أصلها أو أختها الأقل منها بناء انما كانت غرضا أصيلا مقصودا من زيادة بنائها ، وان معناها الزائد عن معناها الأول انما هو معنى مستقل يفوقه في الكثرة ، ولكنه ليس تنميما له أو إضافة عليه ، ولا يمكن أن يفنى عنه أو يحل محله بأي حال ، فكما لا يفنى لفظ الكثير عن القليل أو يحل محله كذلك لا يصح أن يأتي لفظ أعشوش مكان عشب أو اخشوشين مكان خشن .

وقد استمد ابن جنى أصول هذه الفكرة من الخليل وسيبويه كما ذكرنا سابقا وعن أبي العباس كما صرح بذلك في خصائصه ( ٤ ) وكان له فضل التطبيق والاستشهاد ، وشرح الدواعي والأسباب المعنوية التي تجعل احدى كلمتين من أصل واحد تزيد في معناها لزيادة مبناها عن أختها التي تشترك معها في الأصل وتنقص عنها في المعنى ، وكان فخورا بهذا معجبا به كما يظهر من قوله ( ٥ ) ( وذاكرت بهذا الموضوع بعض أشياخنا من المتكلمين فسرّبه ، وحسن في نفسه )

( ١ ) الخصائص : ٢٦٦/٣ ، ٢٦٧ ( ٢ ) المصدر السابق : ٢٦٧/٣

( ٣ ) انظر المحتسب : ١٣٤/١ ، ١٣٥ - ٢٠٧/١ - ٣١٩/١ - ١٣٤/٢

٢٣٠/٢ ، ٢٣١ - ٢٣٣/٢

( ٤ ) الخصائص : ٢٦٤/٣ ( ٥ ) المصدر السابق : ٢٦٦/٣

ولكن ابن جنى نسب هذه القاعدة من أساسها بقاعدته الأخرى التي افترض فيها أن ( الأفعال تفيد أجناسها والجنس غاية المجموع ) ( ١ ) فقولك : قام زيد ، معناه كان منه القيام أى هذا الجنس من الفعل . . . . والجنس يطبق جميع الماضي وجميع الحاضر وجميع الآتي الكائنات من كل من وجد منه القيام . . . . ( ٢ )

لهذا كانت فعل عنده في بعض القراءات تؤدى معنى فعل فـ في القراءات الأخرى ف ( فرقوا ) بالتخفيف في قوله تعالى " ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء " انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون " ( ٣ ) . يحتمل أن تكون موقع فرقوا بالثقل ( أما ) فرقوا ) بالتخفيف فتأويله أنهم ساروا عن غيره من سائر الأديان ، هذا ظاهر ( فرقوا ) بالتخفيف . وقد يحتمل أن يكون معناه معنى القراءة بالثقل ، أى فرقوه وعصوه أعضاء فخالفوا بين بعضه وبعض وذلك أن فعل بالتخفيف يكون فيها معنى الثقل . ووجه هذا أن الفعل عندنا موضوع على اغتراق جنسه . . . . ( ٤ ) وكذلك قال في قراءة " تَطَهَّرْهُمْ " في قوله تعالى " خذ من أموالهم صدقة تَطَهَّرْهُمْ وتزكيتهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم . . . . الآية " ( ٥ ) حيث قال ( هذا منقول من طهر وأظهره كظهر وأظهرته . وقراءة الجماعة أشبه بالمعنى لكثرة المؤمنين ، فلذلك قرأت " تطهرهم " من حيث كان تشديد العين إنما هو للكثير وقد يؤدى فعلت وأفعلت عن الكثرة من حيث كانت الأفعال تفيد أجناسها والجنس غاية المجموع ) ( ٦ ) .

فصر ابن جنى بهذا اختلاف الصيغ في بحر الجنسية المفرق الذى يغطي كل دلالة ويفسد كل ميزة لها عن غيرها متناسيا قوله ( وبعد فاذا كانت الألفاظ أدلة المعاني ، ثم زيد فيها شيء أو جيت القسمة له زيادة المعنى به ) وكذلك ان انصرف يا عن سمته وهديته ( كان ذلك دليلا على حادث متجدد له ) وهو يقصد بالانحراف العدول عن معتاد حال اللفظ اذا اعتبر هذا الحادث للبناء كالحادث بالزيادة فيه يفيد تكثير المعنى . يقول في ذلك ( ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله . وذلك فعال في معنى فعيل ، نحو طوال ، فهو أبلغ معنى من طويل وغرائف فانه أبلغ معنى من غريض .

- |       |                   |       |                    |
|-------|-------------------|-------|--------------------|
| ( ١ ) | الخصائص : ٤٤٨ / ٢ | ( ٢ ) | سورة الأنعام : ١٥٩ |
| ( ٣ ) | المحتسب : ٢٣٨ / ١ | ( ٤ ) | سورة التوبة : ١٠٣  |
| ( ٥ ) | المحتسب : ٣٠١ / ١ | ( ٦ ) | الخصائص : ٢٦٨ / ٣  |

وكذلك خُفَافٌ من خفيف . وَقَلالٌ من قليل ، وَسُرَاعٌ من سريع ، فَفَعَّالٌ —  
— لِمِصرى — وان كانت أخت فعيل في باب الصفة ، فان فعيلًا أخص بالباب  
من فَعَّالٍ ، ألا تراه أشد انقيادًا منه تقول جميل ولا تقول جمال ، ويطسي<sup>١</sup>  
ولا تقول بَطَّاءٌ ، وشديد ولا تقول شَدَادٌ ولحم غريض ولا يقال غَرَضٌ ، فلما  
كانت فعيل هي الباب المطرد ، وأريدت المبالغة ، عدلت الى فَعَّالٍ فزارعت  
فعال بذلك فعلاً ، والمعنى الجامع بينهما خروج كل واحد منهما عن أصله ،  
أما فَعَّالٌ فبالزيادة ، وأما فَعَّالٌ فبالانحراف عن فعيل ( ١ ) .

ولقد كان ابن جنى في هذا مراعيًا لروح اللغة في اختلاف دلالة  
الجزئيات ، ميقماً على الشخصية اللفظية المتميزة . . . . وليته استمر على ذلك ،  
ولم يحطم هذا الاستقلال ويفرقه في بحر الجنسية الذي لا يبقي ولا يذر .  
وليت جهوده في اختلاف الدلالات باختلاف الأبنية كانت عاصماً له من التورط  
في طريق كثير من النحويين واللفويين قبله الذين قال فيهم ابن درستويه  
المتوفي سنة ٥٣٤٧هـ . ( لا يكون فَعِلٌ وَأَفْعَلٌ بمعنى واحد كما لم يكونا على  
بناءٍ واحدٍ إلا أن يجيء ذلك في لفتين مختلفتين ، فأما من لفة واحدة  
فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما يظن كثير من اللغويين والنحاة ،  
وانما سمعوا العرب تتكلم بذلك على ما في طباعها ونفوسها من معانيها  
المختلفة وعلى ما حمرت به عاداتها وتعارفها . ولم يعرف السامعون لذلك  
الملة فيه والفرق نظنوا أنهما بمعنى واحد ، وتأولوا على العرب هذا التأويل  
من ذات أنفسهم ، فان كانوا قد صدقوا في رواية ذلك عن العرب فقد أخطأوا  
عليهم في تأويلهم ما لا يجوز في الحكمة ، وليس يجيء شيء من هذا الباب  
إلا على لفتين متباينتين كما بينا أو يكون على معنيين مختلفين أو تشبيه شيء  
بشيء ) ( ٢ ) ولم يكن في قصد ابن جنى شيء من هذا لأنه يصرح بأن الفعل  
موضوع على اغتراق جنسه لذلك كانت ( فَرَّقُوا ) و ( فَرَّقُوا ) و ( تَطَهَّرُوا )  
ك ( تَطَهَّرُوا ) لأنه ( لا يؤدي فعلت وفاعل عن الكثرة من حيث كانت الأفعال  
تفيد أجناسها والجنس غاية المجموع ) ( ٣ ) .

وأما ( أبلغ ) عند ابن جنى فقد جاءت في أكثر المواضع أكثر مبالغة  
إما من " بلغ " أو من ( بلغ ) بالفتح بمعنى وصل وانتهى . ويظهر ذلك من  
قوله ( ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معناده حاله وذلك فعال

( ١ ) المصدر السابق : ٢٦٧/٣ ، ٢٦٨ ، ( ٢ ) المزهر : ٣٨٥/١

( ٣ ) المحتسب : ٣٠١/١

في معنى فعيل ، نحو طُوال فهو أبلغ معنى من طويل وعراض فانه أبلغ معنى من عريض ( ١ ) . فهو لا يمكن أن يريد بأبلغ هنا أكثر بلاغة لأننا في مجال لفظه مفردة لا تتحقق فيها البلاغة على هبط البلاغيين ان أن البلاغة صفة راجعة الى الكلام ( ٢ ) . وهو الحق ان أننا لا يمكننا أن نفاضل بين كلمة وأخرى مجردة عن السياق فهو يقصد بأبلغ هنا " أكثر مبالغة " ان أنه يتحدث عن كون طُوال وعراض جاءت لتكثير نسبي في المعنى عن عريض وطويل . وقد أوضح ابن جني مقصوده هذا عندما قال ( فلما كانت فعيل هي الباب المطرد وأريدت المبالغة ، عدلت الى فعال ) ( ٣ ) .

ويظهر أيضا من قوله في قراءة أبي ( تباركت الأرض ) في قوله تعالى ( فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحن الله رب العالمين ) ( ٤ ) : ( هو تفاعل من البركة وهو توكيد لمعنى البركة كقولك تعالى الله ، فهو أبلغ من علا وكقول الحجاج : تقاس العزينا فاقعنسسا .

فهو أبلغ معنى من قعس ، كما أن احد ودب أقوى معنى من حدب ، واعشوشب أقوى من عشب لكثرة الحروف ) ( ٥ ) .

حيث استخدم أبلغ في مجال مقارنة لفظة مفردة بأختها ، فتعالى الله أبلغ من علا ، واقعنسس أبلغ من قعس ، واهدلها بلفظة ( أقوى معنى ) الدالة على قوة الدلالة على الكثرة النسبية التي تحملها احد ودب عن حدب واعشوشب عن عشب . وكما يظهر ذلك أيضا في تعليقه على قول عنتره :

شطت مزار العاشقين فأصبحت  
عسرا على طلابك ابنة مخرم

حيث قال : ( أى بعدت عن مزار العاشقين . وكما بالغ في ذكر

استضراره خاطبها بذلك ، لأنه أبلغ ، فعدل عن لفظ الغيبة الى لفظ

الخطاب فقال ( طلابك ) فافهم ذلك ، فانه ليس الفرض فيه وفي نظيره السعة في القول ، كن تحت ذلك ونظيره أغراض من هذا النحو فقطس لها ( ٦ )

وقد يكون استعمال " أبلغ " في الدلالة على المبالغة مأخوذا من

" بالغ " فيكون جائزا على رأى الأخفش والمبرد أو مأخوذا من بلغ التي تدل على

بلوغ النهاية في بعض معانيها كما سنوضح ذلك مستقبلا ان شاء الله .

- |       |                   |       |                                      |
|-------|-------------------|-------|--------------------------------------|
| ( ١ ) | الخصائص : ٢١٦ / ٣ | ( ٢ ) | حاشية الدسوقي على شرح السعيد ٢٧٥ / ٤ |
| ( ٣ ) | الخصائص : ٢١٨ / ٣ | ( ٥ ) | المحتسب : ١٣٤ / ٢                    |
| ( ٤ ) | سورة النحل : ٨    |       |                                      |
| ( ٦ ) | المحتسب : ٢٣١ / ٢ |       |                                      |

ويلاحظ أن أبا الفتح لم يستخدم غير لفظ المبالغة في نعت الكلمات المفردة التي تحمل ذلك ، مما يدل على أن لفظ المبالغة عنده هو الدرجة الأولى في بابها ، وأن مفهوم المبالغة عند إطلاقه لا يعني الإسراف أو الإفراط أو الخروج إلى غير الحقيقة أو بلوغ درجة الغلو ، وذلك لأننا أمام ألفاظ وجدت في اللفظة وعلينا أن نتلغى بها كما تلغى بها العرب معتبرين ما تحمله من مبالغة يحول هدفهم إليها وقصد هم إياها دون الحكم عليها بالإسراف أو التجاوز أو الغلو الذي حدثا ابن جنى عن بشاعته واختصاصه بالقول الجائر فقال : ( وخصوا غلا في القول بالغلو لأن لفظ فعول أقوى من لفظ فعال ، للواوين والضميتين وضعف الألف والفتحتين ، وذلك لأن الغلوفسي القول أعلى وأغنى عندهم من غلاء السمر . ألا ترى إلى : قول الله تعالى ( تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا ) (١) . وقال تعالى ( يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ) (٢) وأما غلاء السمر فلا يدخل النار ولا يحرم الجنة ) (٣) .

وأما إذا خرج إلى مجال التراكيب والصور الشعرية في شعر أبي الطيب المتنبى وجد ابن جنى المجال واسما فاما أن يكتفي بلفظ المبالغة وصفا لبعض هذه الصور كما قال في تعليقه على قول أبي الطيب :

ان يكن النفع ضرباً بطنها فربما ضرَّ ظهراً التقبيل  
( هذا من مبالغته ، وقد أكثر الناس من ذكر تقبيلها ) (٤) .

وكشقوقه في تعليقه على قوله :

شوائل تشوال العقارب بالقنا لها مرح من تحته وصهيل  
( شبه القنا مع الخيل بأذنان العقارب ، إذا شالت بها والتشوال بمنزلة التمساء ، ويراد به المبالغة والكثرة ) (٥) .

أو أن يصفها بالإفراط كما قال في قوله :

وضفون الفدائر لا لسنين ولكن خفن في الشعر الضلالا  
( قد وضفت لشعراء الشعر بالكثرة ولكن لم تفرط في ذلك مثل هذا

قال ابن المعتز :

دعت خلاخيلها ذواتها فجن من قرننها إلى القدم (٦)

- |     |                        |     |                                 |
|-----|------------------------|-----|---------------------------------|
| (١) | سورة مريم : ٨٩ - ١١    | (٢) | سورة النساء : ١٧١               |
| (٣) | المحتسب : ١٤٠ / ٢      | (٤) | التبيلين في شرح الديوان ٢١٩ / ٣ |
| (٥) | المصدر السابق : ٩٩ / ٣ | (٦) | المصدر السابق : ٢٢٣ / ٣         |



وكما قال في قوله :

تجاوز قدر المدح حتى كأنه بأحسن ما يثنى عليه يمـاب

( هذا من المدح الذي كاد أن ينقلب لإفراطه هجوا ) (١) .

أو أن يقرنها بالإسراف ، والخروج الى الاحالة ، ومخالفة الحقيقة

ويظهر ذلك من قوله تعليقا على قول أبي الطيب المتنبى :

يُقبلهم وجه كل سابحة أرعها قبل طرفها تصل

( أسرف في المبالغة حتى خرج الى ما يستحيل وقوعه لأن القوائم

اذا وصلت قبل الطرف ، فقد وصف النظر بالضعف وهو من قول أبي نواس :

يسبق طرف العين في التهايه (٢) .

وقوله تعليقا على قول شاعره المتنبى :

وقد استقدت من الهوى وأذقت من عفتى ما دقت من بلباله

( يحتل هنا وجهين : أحدهما أن يكون العرض ، فيكون هذا

من مبالغة الشعر التي ليست لها حقيقة ، والآخر أن يريد المرأة التي شهب  
بها فيكون على حذف المضاف ، أى ذات الهوى ) (٣) .

وقد أدخل ابن جنى المجاز تحت باب المبالغة وذلك حيث يقول

( وإنما يقع المجاز ويمدّل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي : الاتساع ،

والتوكيد ، والتشبيه ) (٤) . وهو يعنى بالتوكيد المبالغة لأنه عندما جاء

ببيان التوكيد ضمن بيان هذه الأغراض الثلاثة في وصف الحب بالمتفلفل في

قولـه :

شكوت اليها حبها المتفغفلا فما زادها شكواى إلاّ ليلا

قرن به المبالغة فقال ( وأما المبالغة والتوكيد فلأنه أخرجه عن ضعف الفرضية

الى قوة الجوهرية ) (٥) . وهو أيضا ما يمكن أن نستنتجه من قوله عن التوكيد

في قوله تعالى ( وادخلناه في رحمتنا ) (٦) ( وأما التوكيد فلأنه أخبر عن

الفرغ بما يخبره عن الجوهر وهذا تعال بالعرض وتفخيم منه ، ان صير الى حيز

ما يشاهد ولمس ويدان ) (٧)

- |       |                                   |       |                           |
|-------|-----------------------------------|-------|---------------------------|
| ( ١ ) | التبيان في شرح اللانسان : ١٩٤ / ١ | ( ٣ ) | المصدر السابق : ٢١٣ / ٢١٤ |
| ( ٣ ) | المصدر السابق : ٥٦ / ٢            | ( ٤ ) | الخصائص : ٤٤٢ / ٢         |
| ( ٥ ) | الخصائص : ٤٤٤ / ٢                 | ( ٦ ) | سورة الأنبياء : ٧٥        |
| ( ٧ ) | الخصائص : ٤٤٣ / ٢                 |       |                           |

ونخلص أخيرا الى أن صور المبالغة عند ابن جنى تأتي على أضرب

عدة :

- ففي اللفظة المفردة نراها في الصور الآتية :
- ١ - زيادة المبنى كما في : افتعل (١) ، وفعل (٢) ، وفعل (٣) ، وتفاعل (٤) وافمعمل (٥) .
  - ٢ - العدول عن معتاد حال اللفظ كما في فعال (٦) .
  - ٣ - زيادة هاء التأنيث في مثل : راوية ، علامة ، وكرامة ، وخالصة (٧) .
  - ٤ - كثير ما جاء على وزن مفعله ( وقد كثرت المفعلة بمعنى الشيع والكثره في الجواهر والأحداث جميعا وذلك كقولهم أرض مضبة كثيرة الضباب ، ومثقلة كثيرة الثعالب ، ومحياه ومحواه ومفعاة كثيرة الحيات والأفاعي ، فهذا في الجواهر . وأما الأحداث فكقولك : البطنة مؤسنة ، وأكل الرطب موردة ومحمة ، ومنه المسعاه والمعلاة ، والحق مجردة بسك ومخلقة ومسعاة ، ومقمنة ، ومحجاة ، وفي كل معنى الكثرة من موضوعين : أحدهما : المصدرية التي فيها ، والمصدر الى الشيع والعموم والسعة .
  - والآخر التاء وهي لمثل ذلك ، كرجل راوية ، وعلامة ، ونسبائه وهذرة ولذلك كثرت المفعلة فيما ذكرناه لإرادة المبالغة (٨) .
  - ٥ - ما جاء على وزن فعل كبهت ، وقضو ، وفقه ، وشعر (٩) .
- وفي التراكيب تأتي في الصور الآتية :
- ١ - صور المجاز كما سبقت الإثارة اليه .
  - ٢ - عكس الكلام ، والتشبيه المقلوب (١٠) ، (١١) .

---

(١)	المصدر السابق : ٢٦٥ ، ٢٦٦ / ٣
(٢)	المحتسب : ٢٠٧ / ١ ، ٢٣٣ / ٢ ، الخصائص : ٢٦٦ / ٣
(٣)	المحتسب : ٢٣٠ / ٢ ، ٢٣١ - الخصائص : ٢٦٦ / ٣
(٤)	المحتسب : ١٣٤ / ٢
(٥)	الخصائص : ٢٦٤ / ٣ ، المحتسب : ٣١٩ / ١
(٦)	الخصائص : ٢٦٧ / ٣ ، ٢٦٨
(٧)	المحتسب : ٢٣٢ / ١ ، ١٣٦ / ٢ ، ٢٣١
(٨)	المحتسب : ١٣٦ / ٢ ، ١٣٧
(٩)	المصدر السابق : ١٣٤ / ١ ، ١٣٥
(١٠)	التبيان في شرح الديوان : ٧٠ / ٤
(١١)	الخصائص : ٣٠٠ / ١

٣ - جعل الموصوف هو المصدر للمبالغة كقول الخنساء :

ترتع ما غفلت حتى اذا اذكرت فانما هي اقبال وادبار<sup>(١)</sup>

٤ - وصف المصدر كقولهم : هذا شعرٌ شاعر ، وموتٌ مائت . . . . . وكقول

الآخر :

اذا ناقةٌ شدت برهل ونسرق الى حكم بعدى فضل ضلالها  
وعليه قالوا (جن جنوته ، وخرجت خوارجه) (٢)

وهذه الأضرب في التراكيب التي بين لنا ابن جنى المبالغة فيها

هي تراكيب محفوظة وموجودة في اللفظة للدلالة على المبالغة ويبقى بعد ذلك

ما حكم عليه ابن جنى بالمبالغة مما يبتدعه القائل وينشئه عن طريق الزيادة

في المعنى والخروج عن المألوف كقول أبي الطيب المتنبي :

فكأنه والطعن من قدامه متخوف من خلفه أن يطعننا

نفث التوهم عنه حدة زاهنه ففضى على غيب الأمور تيقنا<sup>(٣)</sup>

وكقوله :

تجاوز قدر المدح حتى كأنه بأحسن ما يثنى عليه يماب<sup>(٤)</sup>

وكقوله :

بليت على الأطلال ان لم أقف بها وقوفٍ شحيحٍ ضاع في الترب خاتمه<sup>(٥)</sup>

وكقوله :

إن يكن النفع ضرباً طنهما فربما ضرَّ ظهرها التقبيل<sup>(٦)</sup>

ولقد كان تناول ابن جنى للمبالغة وايضاح طرقها أكثر اتساعاً وشمولاً

من معاصريه ذلك لأنه أوغل في دراسة اللفظة بحثاً وتأملًا ما هيا له الفرصة

ليضع أيدينا على الأساليب اللغوية الدالة على المبالغة كالأخبار بالمصدرية

وزيادة هاء التأنيث ، وزيادة البناء أو تغييره عن أصله . . . . . وقد عرض بعض

هذه الأمور عرضاً نظرياً يضرب عليه الأمثلة في الخصائص ثم أخذ يستوحيها

ويصدر عنها في نظرتة الى معاني القراءات في المحتسب وشرحه لديوان المتنبي

أما معاصروه كالآمدى والقاضي الجرجاني ، والحاجي والخالديين

فلم نحظ عند هم بهذا التوسع وذلك لأن مجال تطبيقاتهم كانت محصورةً فسي

الشعر كما سنرى ، وحتى الرماني الذي كان عرضه للمبالغة ضمن بيان اعجاز

القرآن الكريم لم تظفر عنده بهذا الشمول والاتساع ولكن جهود هؤلاء مع جهود

(١) المحتسب : ٤٦/٢ ، ١٠٧ (٢) المصدر السابق : ٩٣/٢ ، ٢٠١

(٣) التبيان في شرح الديوان ١٩٩/٤ (٤) المصدر السابق : ١٩٤/١

(٥) المصدر السابق : ٣٢٨/٣ (٦) المصدر السابق : ٢١٩/٣

السابقين أتاحت أمام أبي هلال المجال واسما ليتحدث عن المبالغة ويفرق بينها وبين الغلو .

عند أبي هلال :

لقد تداخلت في الموروث النقدي الذي كان أمام أبي هلال عدة عوامل تحكم نظرتة الى المبالغة . فالممدوحون لم يعودوا يرضون بالمنزلة التي وضع الشعراء القدماء فيها ممدوحهم ويطلبون منزلة فوقها ، ولقد ظهرت هذه النظرة منذ عهد عبد الملك بن مروان ان يقول الهيثم بن عدي ( دخل الأخطل على عبد الملك بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين قد امتدحتك فاستمع مني . فقال : ان كنت شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي بمدحك ، وان كنت قلت كما قالت أخت ابن الشريد لأخيها صخر فهات لي فقال الأخطل : وما قالت يا أمير المؤمنين قال : هي التي تقول :  
فما بلغت كفى امرى متاول  
بها المجد إلا حيث ما نلت أطول  
ولا بلغ المهدون في القول يدحة  
ولو أطنبوا إلا الذي فيك أفضل  
فقال الأخطل والله لقد أحسنت القول ، ولقد قلت فيك بيتين ما هما بدون قولها . قال : هات فأنشد :

إذا ماتت العرف وانقطع الندى من الناس إلا في قليل مصرد  
وردت أكف السائلين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلف مجرد ( ١ )  
وحتى رواة الشعر كان منهم من ينكر على الشاعر التشبيه بالأسد ،  
والشمس ويرى أن التشبيه يجب أن يقلب ويشبه الأسد بالرجل في الشجاعة ،  
والشمس بالمرأة في الحسن . . . .

يقول الأصمعي ( سمعت أعرابيا يقول : أيكم معاشر أهل الحضرة لتخطعون المعنى . ان أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول : كأنه الأسد ، ويصف المرأة بالحسن فيقول : كأنها الشمس ، لم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه . ثم قال لأنشدك شعرا يكون لك اماما ثم أنشدني :

إذا سألت الورى عن كل مكرمة لم تلف نسبتها إلا إلى الهول  
فتى جوادا أعاد النيل نائلة فالتيل يشكر منه كثرة النيول  
والموت يرهب أن يلقي منيته في شدة عند لف الخيل بالخيل  
لو عارض الشمس ألفى الشمس مظلمة أوزاحم الفيم الجأها إلى الميل

أو بارز الليل غطته قواديه  
 أمضى من النجم أن نابتة نائبة<sup>٥٩</sup>  
 دون القوافي كمثل الليل بالليل  
 وعند أعدائه أجري من السيل<sup>(١)</sup>

ويلمس الناظر في هذا فضلا عن طلب المبالغة في الوصف والمدى —  
 فقد هذه الرموز ( الأسد — الصقر — الحية وغيرها ) لقيمتها الإيحائية التي  
 كانت توحى بها في العصر الجاهلي وصدر الإسلام حتى ابن عبد الملك بن  
 مروان يقول يوما لجمع من الشعراء عنده : ( تشبهونا بالأسد والأسود  
 أبخر وبالبحر وانبحر أجاج ، وبالجبيل والجبيل أوعر ألا قلت كما قال أيمن بن  
 خريم في فاتك في بني هاشم :

نهاركم مكابدةً وصوم  
 أأجعلكم وأقواما سوا  
 وليلكم صلاةً واقصوا<sup>٦٠</sup> ترا<sup>٦١</sup>  
 وبينكم وبينهم الهوا<sup>٦٢</sup>  
 وهم أرض لأرجلكم وأنتهم  
 لأعينهم وأروسهم سما<sup>(٢)</sup>

وإذا كان هذا في عصر لا تزال فيه الأمة على بداوتها ، والزمن لم  
 يمتد بفصل طويل بينها وبين التقاليد الفنية للعصر الجاهلي ، فما بالك  
 بعصر أبي هلال الذي جاء وأمامه موروث نقدي يزدلف إلى الأمرء ويوجه  
 الشعراء إلى مواجعة هواهم ، والأمة تفالي في صنعة الزخارف وتتميقها —  
 وأصبح كل من الشعر والنثر صنعة<sup>في نظرهم</sup> يبلغ بها البليغ أعلى الرتب في البلاغة  
 ( إذا احتج للمذموم حتى يخرج في معرض المحمود ، وللمحمود حتى يصيره  
 في صورة المذموم )<sup>(٣)</sup>

وأراد أبو هلال أن يجري مع التيار فكان عليه أن يحتضن المبالغة التي  
 وجد فيها الشعراء مخرجا بين السير على التقاليد الفنية الموروثة وبين ارضاء  
 المدد وحين وبين منزلتها في البلاغة حيث ربط بينها وبين البلاغة في الأصل  
 اللغوي وذلك حيث يقول في تعريف البلاغة ( البلاغة من قولهم : بلغت الفاية  
 إذا انتهيت إليها ولغتها غيري ، وبلغ الشيء منتهاه ، والمبالغة في الشيء  
 الانتها إلى غايته

فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه )<sup>(٤)</sup>  
 ولذلك جاءت لفظة ( البليغ ) عنده مرادفة للفظ ( المبالغة ) فقال في تعليق  
 على قول عمرو بن معد يكرب :

ولقد أجمع رجلتي بها  
 حذر الموت واني لفرور

( ١ ) المصون في الأدب : ٦١ ، ٦٢ ( ٢ ) ديوان المعاني : ٢٦ / ١  
 ( ٣ ) الصناعتين : ٥٩ ( ٤ ) المصدر السابق : ١٢

( ..... ) وقال بعض أهل الأدب إنما هو " لفرور " بالقاف ،  
لأن الشجاع لا يمدح نفسه بالفرار سيما باللفظ البليغ من " فرور " (١)  
وجاءت " أبلغ " عنده بمعنى أكثر مبالغة فهو يقول ( أبلغ ما قيل في  
مساعدة الرجل أخاه وأجوده قول دريد بن الصمة ..... :

أمرتهمُ أمرى بضرع اللوى . فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد  
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى . غوايتهم إني بهم غير مهتدى  
وما أنا إلا من غزية ان غسوت . غويت وان ترشد غزية أرشدى

..... ووجه المبالغة في هذا الكلام أنه أخبر بموافقة أخيه على علمه  
بأنها في وترك مخالفته مع معرفته أنها رشد كراهة الخروج من هواه وترك  
مطابقته على رضاه (٢) .

ويقول ( وأبلغ ما قيل في طول الفرس في الهوا قول أبي داود :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه . أناخ بهادٍ مثل جذع سحوق  
كأنى إذا عاليت حوزة متته . تعلق برى عند بيض أنوق (٣)

وبيض الأنوق في أعلى موضع من الجبل ، فلا ترى أشد مبالغة من  
هذا البيت (٤) . ويمكن أن نقيس على هذا قوله :

( ويستحب في الخيل سعة المنخرين فمن أبلغ ما قيل في ذلك قول  
مزاحم بن طفيل العقيلي :

• من منخر كوجار الثعلب الخرب . فجعله خربا ليكون أوسع (٥) .

وقوله : ( ومن أبلغ ما قيل في طول عنق الفرس قول مزاحم العقيلي

أيضا :

كأن هادييه . جذع على شرف .

فلم يرض أن جعلها جذعا حتى جعلها على شرف كصنيع الخنساء في

قولها :

كأنه علم في رأسه نزار (٦)

ولذلك استطاع أن يقول عن الاستعارة في قوله تعالى " ولا يظلمون

تقيرا " (٧) ، ولا يظلمون فتिला (٨) ، وهذا أبلغ من قوله سبحانه " ولا

يظلمون شيئا " (٩) ، وإن كان قوله : ولا يظلمون شيئا أنفى لقليل الظلم وكثيره

(١) ديوان المعاني : ١١١/١ (٢) المصدر السابق : ١٢٢/١

(٣) برى البره الخليل والجمع براءة وبره وبرين وبرين وجاءت على برين هنا ضرورة .

(٤) الرخمة : وفي المثل أعز من بيض الأنوق لأنها تحرزه فلا يكاد يظفر

به لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة . (٤) ديوان المعاني ١٢/٢

(٥) المصدر السابق : ١١٠/٣ (٦) المصدر السابق : ١١٠/٢

(٧) النساء : ١٢٤ (٨) سورة النساء : ٤٩ (٩) سورة مريم : ٦٠

( ١ )  
في الظاهر، وكذا قوله تعالى " ما يملكون من قطمير " أبلغ من قوله تعالى  
" لا يملكون شيئاً " وان كان هذا أنفى لجميع ما يملك في الظاهر ( ٢ )  
فلولا أن هدفة المبالغة بقوله ( أبلغ ) لما استطاع أن يفاضل بين  
آيات الكتاب الكريم في البلاغة .

ويفضل هذه الموافقة عنده بين البلاغة والمبالغة سمت المبالغة عنده  
الى درجة جعلها بها تسمية لكل كتاب من كتب أبواب كتابه ديوان المعاني  
لما رأى أن يجعل ( كل باب منه ينفرد بنفسه ، ويتميز من جنسه ليخف محمله  
ويقرب مأخذه ) ( ٣ ) . فمثلا سمي الباب الأول بكتاب المبالغة في المديح  
والتهاني والافتخار .

وقد تحدث أبو هلال عن كل من الفلو والمبالغة في كتابه الصناعتين  
في فصل منفرد ضمن فصول باب البديع . وتعريفه لكل منهما يظهر فرقا في  
الدرجة بينهما إذ يعرف الفلو بقوله : ( الفلو : تجاوز الحد في المعنى  
والارتفاع فيه الى غاية لا يكاد يبلغها ) ( ٤ ) . فالفلو فيه خروج عن  
الحدود المفروضة للمعنى ، بينما لا يكون في المبالغة ذلك الخروج وإنما هي  
البلوغ بالمعنى - كما قال أبو هلال - ( أقصى غايته ، وأبعد نهاياته ،  
ولا تقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله ، وأقرب مراتبه ) ( ٥ ) . ويتفق  
هذا المعنى للمبالغة مع الدلالة المعجمية لها التي سبق عرضها ، والتي  
أوردها أبو هلال في تعريفه للبلاغة ( ٦ ) .

ولنقف الآن قليلا أمام الفصلين ، لنرى تحقق الفرق الظاهر في  
التعريف بينهما . ففي الفلو يمكن أن نضف الأمثلة التي أوردتها فيما يلي :  
١ - الخروج عن الحدود المفترضة للمعنى والتي قيست بمقياس التحقق في  
الواقع الخارجي . فمن ذلك تمثيله بقوله تعالى ( ولففت القلوب )  
( الحناجر ) ( ٧ ) .  
وقولي تأبط را :

ويوم كيوم المعكنين وعطفة عطفت وقدس القلوب الحناجر

- |       |                        |       |                       |
|-------|------------------------|-------|-----------------------|
| ( ١ ) | سورة فاطر : ١٣         | ( ٢ ) | الصناعتين : ٢٧٤ ، ٢٧٥ |
| ( ٣ ) | ديوان المعاني : ١٤ / ١ | ( ٤ ) | الصناعتين : ٣٦٩       |
| ( ٥ ) | المصدر السابق : ٢٧٨    | ( ٦ ) | المصدر السابق : ١٢    |
| ( ٧ ) | الأحزاب : ١٠           |       |                       |

ويقوله تعالى ( وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِيَتَزَلَّ مِنْهُ الْجِبَالُ ) (١) .  
 وقوله سبحانه ( وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ) (٢)

وقول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو د ب محول  
 من الذر فوق الأتد منها لأشرا

وقول ابى الطمحان :

أضأت لهم أحسابهم ووجوههم  
 د جى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

تعليق الأمر الممكن على ما يستحيل وقوعه فمن ذلك تمثيله بقوله تعالى  
 ( ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ) (٣) . ويقول الشاعر :

إذا زال عنكم أسود المين كنتم  
 كراما وأنتم ما أقام الأسم

ويقول الآخر :

فرجى الخير وانتظرى إيابى  
 إذا ما القارظ المنزى آبا

ويقول النابغة :

فإنك سوف تحلم أو تناهى  
 إذا ما شبت أو شاب الفرا ب

يمكن أن نجعل من ذلك تمثيله بقول الطرمح فيما بعد البيت الأول :

تميم بطرق اللوم أهدى من القطا  
 ولو سلكت سبل المكارم ضلت

ولو أن برغوثا على ظهر قملة  
 يكر على صفى تميم لولت

ولو أن أم العنكبوت بنت لها  
 مظلتها يوم الندى لا ستظلت

ولو جمعت يوما تميم جموعها  
 على درة معقولة لا ستقلت

ولو أن برغوثا يزقق مسكه  
 اذن نهلت منه تميم وعلت

مع أن الطرمح لم يكتف بالتعليق على المستحيل ، ولكن أقام من تلك

المستحيالات تمثيلا هزليا لهذه القبيلة وجبنها .

٣ - قلب المفاضلة بين المفاضلين بجعل المفضول أكثر فضلا من الفاضل فمن ذلك

تمثيله بقول سكينه بنت الحسين رضي الله عنهما وقد أثقلت ابنتها بالصدر (٤)

( ما ألبستها إياه إلا لتفضحه ) ويقول الشاعر (٥) :

جارية أطيبت من طيبها  
 والطيب فيه المسك والعنبر

ووجهها أحسن من حليها  
 والحلى فيه الدر والجوهر

ويقول ابن مطير (٦) :

مخضرة الأوساط زانت عقودها  
 بأحسن مما زينتها عقودها

( ٢ ) سورة القلم : ٥١

( ٤ ) الصناعتين : ٣٧١

( ٦ ) المصدر السابق : ٣٧١

( ١ ) سورة ابراهيم : ٦

( ٣ ) سورة الأعراف : ٤٠

( ٥ ) المصدر السابق : ٣٧١



٤ - رسم صورة هزلية طريفة يقوم بعضها مقام الصور الكاريكاتيرية الآن ؛  
فمن ذلك تمثيله بقول القائل : ( ١ )

لقد مرَّ عبدُ الله في السوقِ راكباً له حاجةٌ من أنفه ومطَّرَقٌ  
وعنت له في جانب السوقِ منخطةٌ توهمت أن السوقَ منها سيفرقُ  
فأقذر به أنفاً وأقذر بربره على وجهه منه كيف معلَّقٌ  
ويقول أبي نواس يصف قدراً : ( ٢ )

يفص بحيزوم الجرادة صدرها وينضج ما فيها بعمودٍ خلال  
وتفلى بذكر النار من غير حرها وتنزلها عفواً بغير جمال  
هلي القدر قدر الشيخ بكرين وائل ربيع اليتامى عام كل هزال  
ويقول الآخر في امام بطي \* القراءة ( ٣ ) :

إذا قرأ \* العاديات \* في رجب لم تفن آياتها إلى رجب  
بل هو لا يستطيع في سنة يختم ( تبت يدا أبي لهب )  
ويقول المؤمل ( ٤ ) :

من رأى مثل حبّتي تشبه البدر إذ بدا  
تدخل اليوم ثم تبد خيلُ أرفها غدا  
ويقول الآخر ( ٥ )

أنت في البيت وعرنيتي نك في الدار يطوف

وأما الأمثلة التي أوردتها للمبالغة فيمكن أن تصنفها فيما يلي :

١ - اختيار كلمة في الكلام لأنها أوفى أداء في غرض الكلام من غيرها فمن  
ذلك تمثيله بقوله تعالى ( يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت  
وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ) ( ٦ )  
حيث يقول ( ولو قال : تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بياناً حسناً  
وبلاغة كاملة ، وإنما خص المرضعة للمبالغة ، لأن المرضعة أشفق على  
ولدها بمعرفتها بحاجة إليها ، وأشفق به لقرينتها ، ولزومه لها  
لا يفارقها ليلاً ولا نهاراً وعلى حسب القرب تكون المحبة والإلف ) ( ٧ )

- |       |                     |       |                     |
|-------|---------------------|-------|---------------------|
| ( ١ ) | المصدر السابق : ٣٧٤ | ( ٢ ) | المصدر السابق : ٣٧٤ |
| ( ٣ ) | المصدر السابق : ٣٧٥ | ( ٤ ) | المصدر السابق : ٣٧٤ |
| ( ٥ ) | المصدر السابق : ٣٧٤ | ( ٦ ) | بلهوق الحج : ٢      |
| ( ٧ ) | الصناعتين : ٣٧٨     |       |                     |

وتمثله بقوله تعالى ( كسر اب ببقية يحسبه الظمان ما<sup>(١)</sup> ) حيث  
يقول ( لوقال : يحسبه الراي لكان جيدا ، ولكن لما أراد المبالغة  
ذكر الظمان ، لأن حاجته الى الماء أشبه وهو على الماء أحرص )<sup>(٢)</sup>  
الزيادة في المعنى بعد تمامه ، وهو النوع الآخر للمبالغة السدى  
يقول به أبو هلال ( ومن المبالغة نوع آخر ، وهو أن يذكر المتكلم  
حالا او وقف عليها أجزاءه في غرضه منها فيجاوز ذلك حتى يزيد  
في المعنى زيادة تؤكد ، وتلحق به لاحقاً تؤيده )<sup>(٣)</sup> .

- ٢ -

وهذا النوع هو الذي أورده قدامة بن جعفر تعريفا للمبالغة<sup>(٤)</sup>  
وجميع أمثلة أبي هلال مأخوذة من أمثلة قدامة ، ما عدا ما أورده من  
كتابة لا في فصل الى بعض أهل الأدب<sup>(٥)</sup> . وهي مقيسة على تلك  
الأمثلة . فمن تلك الأمثلة :

قول عمير بن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث — الا

( فإكرامهم للجار ما دام فيهم مكرمة ، واتباعهم اياه الكرامة  
حيث مال من المبالغة )<sup>(٦)</sup> .

وقول الحكم الخضري :

وأقبح من قرد ، وأبخل بالقرى من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف  
( فالكلب بخيل على ما ظفر به ، وهو أشد بخلا اذا كان  
جائعا أعجف )<sup>(٧)</sup> .

وبالنظر الى كل نوع في حدود أمثله فاننا لا نستطيع أن —  
نعرق بين الغلو والمبالغة الا على أساس أن المبالغة ما كان فيها  
اختيار كلمة يكون اكثر مبالغة في المعنى من غيرها ، أو ما جاءت فيه  
الزيادة بعد تمام المعنى ، كع أن الفرق بين التعريفين يظهر لنا أن  
الغلو يجاوز حد المعنى الى غاية لا يكاد ييلفها ، بينما المبالغة  
لا تبلغ ذلك ، وإنما تقف عند نهاية الغاية ، ولكن الأمثلة قصرت عن

- 
- |     |                            |     |                     |
|-----|----------------------------|-----|---------------------|
| (١) | سورة النور : ٣٩            | (٢) | الصناعتين : ٣٧٨     |
| (٣) | المصدر السابق : ٣٧٨ ، ٣٧٩  | (٤) | نقد الشعر : ٤٦      |
| (٥) | انظر الصناعتين : ٣٧٩ ، ٣٨٠ | (٦) | المصدر السابق : ٣٧٩ |
| (٧) | المصدر السابق : ٢٧٩        |     |                     |

استيعاب أنواع الأمثلة التي تقف عند الغاية . ولعل هذا يرجع الى عدم استطاعة أبي هلال التصريق عمليا بينهما وعن تصريق أبي هلال بين الفلو والمبالغة . يقول الدكتور أحمد إبراهيم موسى :

( وهذا مظهر من مظاهر تهذيب أبي هلال لمنحى السابقين عليه ، فقد كان المتقدمون ولا سيما قدامة يستعملون الفلو والمبالغة على أنهما كلمتان متواردتان على معنى واحد ، أما أبو هلال فقد جعلهما لونين ، وعرف كل واحد منهما بتعريف يخصه ، ولعل أبا هلال لم يسبق بتلك التفرقة فاني لم أر - على مبلغ جهدي - أحدا من السابقين قد فرق بينهما )<sup>(١)</sup> .

ولكن معاصرة الحاتمي المتوفي سنة ٣٨٨هـ حاول أن يفرق بينهما كما سنرى عند الحديث عنه .

وبعد أن تحدث الدكتور أحمد إبراهيم موسى عن الفلو ونوعي المبالغة اللذين أورد هما أبو هلال قال ( وهكذا يتم على يد أبي هلال تنويع المبالغة الى ثلاثة الأنواع التي عرفها بها المتأخرون مع مباينة طفيفة ، وهذا القسم الأخير - يقصد نوع المبالغة الذي نقله أبو هلال عن قدامة - عرف فيما بعد باسم الإغراق )<sup>(٢)</sup> .

ولكن المدقق لا يرى هذا التنويع لديه إن لا نجده يفصح بذكر التبليغ أو الإغراق . وأما القسم الذي رأى الدكتور أنه " الإغراق الذي عرف عند المتأخرين " فليس هو إذ أنه عند المتأخرين يطلق على ما امتنع عادة لا عقلا<sup>(٣)</sup> . وأمثلة أبي هلال التي نقلها عن قدامة لا ينطبق عليها ذلك وإن انطبق ذلك على قول عمير بن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا - ونتبعه الكرامة حيث مالا

من بعض الوجوه حيث يقول الدسوقي ( وأعلم أن هذا البيت إنما يصلح للإغراق إذا حمل قوله ( ونتبعه الكرامة حيث مال ) على أن المراد إرسال الإحسان اليه الدافع لحاجته وحاجة عياله بعد ارتحاله عنهم وكونه مع الفير ، وأما أن حمل على أن المراد إعطاء الجار الزاد عند ارتحاله وسفره الى أى جهة فلا يصلح مثلا لأن هذا لا يستحيل عادة إذ هذا شائع عند الأسخيا وأصحاب المروءات )<sup>(٤)</sup> .

(١) الصبغ البديعي في اللغة العربية ١٦٦ (٢) المصدر السابق : ١٦٧  
 (٣) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٣٦٠/٤  
 (٤) حاشية الدسوقي على شرح السعد : ٣٦٠/٤

وقد استعمل أبو هلال مصطلح الإفراط ، ويرتبط عنده هـ ذ  
المصطلح بالفلو فلقد قال تحت فصل الفلو " ومثله في الإفراط قول آخر في  
إمام بطي \* القراءة : (١)

إن قرأ الماديات في رجب لم تفن آياتها إلى رجب  
بل هو لا يستطيع في سنة يخيّم ( تبت يدا أبي لهب )  
ثم قال بعد ذلك " ومن الناس من يكره الإفراط الشديد ويمنيه . . . (٢)

٧ - عند الباقلاني :

وهو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، المتوفي سنة ٤٠٦ هـ  
وقد تحدث في كتابه " اعجاز القرآن " عن المبالغة والفلو كنعين من أنواع  
البديع الذي اعتبر بعضهم - كما يشير بذلك هو - وجود أنواعه في القرآن  
الكريم وجها من وجوه اعجازه (٣) ، وعرف المبالغة بأنها : تأكيد معاني القول (٤)  
وتلاحظ خروج هذا التعريف بالمبالغة عن الزيادة في المعنى التي رأيناها  
عند قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري ، والتركيز على قيمة التأكيد في  
المبالغة ، ولكنه مع ذلك يقف عند الحكم بالمبالغة أو توكيد المعنى دون تدبر  
لأسباب هذا القصد في التوكيد والمبالغة أو بيان قيمته في سياق الكلام  
وقد مثل لها بمثاليين من تلك الأمثلة التي أوردها قدامة بن جعفر فمثل لها  
بقول عمير بن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا وتبعه الكرامة حيث مالا  
وقول الآخر :

هم تركواك أسلح من حباري رأيت صقرا وأشرد من نعام (٥)

أما الفلو فقد ربطه الباقلاني بالإفراط في الصفة - وهي سنة رأيناها  
عند أكثر النقاد في ربط الفلو بالإفراط - حيث يقول ( ومن البديع عندهم  
: الفلو والإفراط في الصفة ) (٦) . ولم يورد لنا تعريفا له بل يكتفي بإيراد  
الأمثلة التي رأينا بعضها عند قدامة وأبي هلال كبيتي النمرين تولب في صفة  
السيف (٧) ، وكقول النابغة : (٨)

تقد السلوقي المضاعف نسجه ويوقدن بالصفاح نار الحباب

- |     |   |     |                     |
|-----|---|-----|---------------------|
| (١) | الصناعتين : ٣٧٥   | (٢) | المصدر السابق : ٤٧٥ |
| (٣) | اعجاز القرآن : ١١١  | (٤) | المصدر السابق : ٩١  |
| (٥) | المصدر السابق : ٩١ ، ونقد الشهر : ١٤٦ ، ١٤٧                           |     |                     |
| (٦) | اعجاز القرآن : ٧٧ ، (٤) الصناعتين ٣٧٣ ونقد الشعر ٩٢ ، اعجاز القرآن ٧٧ |     |                     |
| (٨) | اعجاز القرآن : ٧٧   |     |                     |

(١) وكقول البحترى :

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعِهِ لسعى اليك المنبرُ

(٢) ويضيف إليها قول عنتره :

فأزور من وقع القنا بلبانِهِ وشكا اليّ بمبرة وتحميم

الذي اعتبره الحاتمي مبالغة لا تخرج إلى درجة الفلو (٣) .

ثم يقول الباقلاني ( ومن هذا الجنس - أي الفلو - في القرآن

"يوم نقول لجهنم هل امتلأت ، وتقول هل من مزيد (٤) ، وقوله "إذا رأتهم

من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا" (٥) ، وقوله "تكاثر تميز من الفيظ (٦) " .

ولم يجعل هذا داخلًا تحت المبالغة إلا لأنه يرى فيه اسناد الفعل

إلى فاعل لا يعقل قيامه به على جهة التصور المنطقي البشري ، فجهنم لا تقول ،

ولا تفتاط ، ولا تزفر ، ولا تكاثر تميز من الفيظ .

ونقل فصل الرماني عن المبالغة الذي ناقشناه سابقا ، وقال عنـه

( وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة في اللفظ - فليس بطريق الإعجاز ،

لأن الوجوه التي قد ذكرها قد تتفق في كلام غيره ، وليس ذلك بمعجز ، بل

قد يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة ، وجوه من اللفظ تشر الإعجاز (٨)

فهو لا يرى للمبالغة في اللفظ وجهها من وجوه الإعجاز ، ولكن المبالغة في

المعنى والصفة قد تقع فيها وجوه من اللفظ تشر الإعجاز .

عند نقاد آخرين :

— ٨ —

قبل أن نختم هذا الفصل نود أن نشير إلى المبالغة ، ومصطلحاتها

عند نقاد كان لهم موقف في نقد الشعر والأدب في هذا القرن ، فمنهم من

جمع تراجم الشعراء وأخبارهم ، وما وجه اليهم من نقادات . كالمرزباني المتوفي

سنة ٥٣٨٤ هـ ، أو الخالدين صاحبيا ( الأشباه والنظائر ) ، ابني هاشم المتوفي

أولهما : أبو بكر محمد سنة ٥٣٨٠ هـ ، والمتوفى ثانيهما أبو عثمان سميـد

سنة ٥٣٩٠ هـ .

- |                                       |                         |
|---------------------------------------|-------------------------|
| (١) الصناعتين ٣٧٦ ، إعجاز القرآن : ٧٨ | (٢) إعجاز القرآن : ٧٧   |
| (٣) الرسالة الموضحة : ٩٤              | (٤) قصرة : ٣٠           |
| (٥) الفرقان : ١٢                      | (٦) الملك : ٨           |
| (٧) إعجاز القرآن : ٧٨                 | (٨) المصدر السابق : ٢٨٣ |

ومنهم من دفعهم انشغال الناس بأمر أبي الطيب المتنبى ، وشوارده  
الى وضع الرسائل والكتب في النيل منه والتهجم عليه كالحاتمي : أبي علي  
محمد بن الحسن الحاتمي الكاتب المتوفى سنة ٣٨٨ هـ صاحب ( الرسالة  
الموضحة ) أو وضع الكتب في التوسط بين خصومه وأنصاره كالقاضي علي بن  
عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ . الذي وضع ( الوساطة بين  
المتنبي وخصومه ) .

ولقد كانت أسماؤهما عند هؤلاء ، تتراوح بين الفلوة (١) ، والمبالفة (٢) ،  
والإفراط (٣) ، والإغراق (٤) ، وبلوغ النهاية في الفرض (٥) .  
وأما التفريق بين هذه الأسماء فلم يكن واضحا عند بعضهم ، ان نجد  
الخالدين مثلا يصفان كلا من المبالفة والإغراق بالإحالة ، ان قالا في موضع  
( فأما قول ابن الرومي :

تَفَلَّطَ الرُّمَحُ فِي الدَّرْعِ الَّتِي رُتِقَتْ رَتَقًا فلو صَبَّ فِيهَا المَاءُ مَا رَشَاها  
فهو عندنا خطأ لأن هذه الصفة بالسور الحديد أولى منها بصفة  
الدرع ، وهذا من المبالفة التي تحيل المعنى (٦) .

وقالا في موضع آخر تعليقا على قول عبيد بن ناهد :

فَسَائِلُ هِوَا زَنْ عَنِ وَقَمِينَا وَهِيَ تَمِيمٌ وَكَمَامَهُ  
عَشِيَّةٌ لَوْلَا حَيَاةُ النِّسَاءِ لَسَقْنَا الدِّيَارَ وَأَطَامَهُ

وأما قوله : " عشية لولا حياء النساء . . . البيت " إغراق في الوصف  
شديد وإياه أراد البحترى بقوله :

وَأَنْزَلْتَ مَتَا فَوْقَ المَعَاقِلِ مِنْهُمْ فَلَمْ يَبِيقِ إِلَّا أَنْ تَسْوِقَ المَعَاقِلَا

وبيت البحترى أحسن من الأول وأصح لأن البحترى أوقع شكا في بيته ،  
وهذا ذكر أنه لولا حياؤهم من النساء لساقوا الديار والآطام وهذا محال (٧)

ولقد كانت الاحالة عند هؤلاء هي الدرجة القصوى في المبالفة وهي  
التي لا يرضون بالخروج إليها كما رأينا عند الخالدين ، وكما نلاحظه من قول

- (١) الرسالة الموضحة : ٩٤ ، ٩٧ - الموشح : ٤٥٦  
(٢) الرسالة الموضحة : ٧١ ، ٩٤ ، ٩٧ - الأشباه والنظائر : ١٥٧/١ -  
الوساطة : ٤٢٤ .  
(٣) الرسالة الموضحة : ٨١ ، الموشح : ٤٤١ ، ٤٤٢ ، الوساطة : ٤٢٠ ، ٤٢٧ ،  
٤٢٨ .  
(٤) الرسالة الموضحة : ٩٤ ، الأشباه والنظائر : ٦٠/١ ، ١٦٢/١ ، ٣/٢  
(٥) الأشباه والنظائر : ٧٦/٢ ، ٢٣٩/٢ - الوساطة : ٤٢٣  
(٦) الأشباه والنظائر : ١٥٦/٢ ، ١٥٧ (٧) الأشباه والنظائر : ٣ ، ١/٢

صاحب (الوساطة) " فأما الإفراط فمذهب عام في المحدثين ، وموجود كثير في الأوائل والناس فيه مختلفون ، فمستحسن قابل ، ومستقبح راد ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ، ولم يتجاوز الوصف حد ما جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء ، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدت به الحال إلى الإحالة ، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط ، وسبعية من الإغراق والباب واحد ، ولكن له درج ومراتب (١) .

ومن مرويات المرزباني التي يظهر فيها التبرم والاستياء من الإحالة ما أورده في (موشحه) بسند عن عبد الله بن يوسف أبي عبد الرحمن السمرقندي الضيرب الخارج مع سيار بن رافع على المأمون - وكان راوية أدبيا - قال : رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها مقدم من مدينة السلام فسألني عن خلفتها من الشعراء ، فقلت : خلفتها كوفيا وبصريا قد غلبا على الشعر ، أما من الكوفيين فأبو العتاهية ، وهو مقدم عندهم ، ومن البصريين أبو نواس ، فقال : كيف يتقدم عندهم أبو العتاهية وهو يقول :

• رويدك يا إنسان لا أنت تقفز .

أخرجت " تقفز " من فم شاعر محسن قط ؟ ! وأما أبو نواس فمحيل ويصف المخلوقين بصفة الخالق عز وجل فما أحال فيه قوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنهم  
لتخافك النطف التي لم تخلق  
وهذا محال . وقوله :

تَكَلُّبٌ عَنِ إِدْرَاكِ تَحْصِيلِهِ  
تَنْتَسِبُ الْأَلْسُنُ مِنْ وَصْفِهِ  
عيونٌ أوهام الضماير  
إلى مدى عجزٍ وتقصير  
وقوله :

• برى من الأشباه ليس له مثل (٢) .

والذي يلفت النظر أن هؤلاء النقاد كانوا يحسون بالفرق بين درجات المبالغة فهناك مبالغة تحيل المعنى وهناك مبالغة لا تحيله كما رأينا عند الخالدين .

ولباب المبالغة درج ومراتب كما يقول القاضي عبد العزيز الجرجاني . ولقد حاول الحاتمي أن يفرق بين الغلو والمبالغة وأن يجعل لكل منهما اسم الذي لا يختلط بالآخر . . . . وأن يجعل من ذلك التفريق دراية

(١) الوساطة بين المتبني وخصومه : ٤٢٠ (٢) الموشح : ٤٠٢ ، ٤٠٣

له بالشعر لا يعلمها المتنبي الذي لا يفرق بينهما حسب زعمه في (موضحته)  
ان يقول حاكيا اجابته لأبي الطيب المتنبي عن سؤاله الذي حكاه عنه " وهل  
بين الغلو والمبالغة فرق ؟ " . ( فقلت كل الفرق ) .

قال عنتره يصف فرسه :

فأزور عن وقع القنا بلبانـه      وشكا إلى بمبرة وتحممـم  
فجعل اشتكا الفرس اليه ، إن كان من الحيوان الذي لا ينطق  
بحمقة وعبرته دون النطق والعبارة فلم يخرجها عما هو له ، ثم كشف المعنى  
في البيت الأخير :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى      ولكن لو علم الكلام مكمـم

وقد أخذ هذا المعنى بشار بن برد وأحسن بقوله :

ولما تولى الحر واعتصر الثرى      لظى القيظ من نجم ثوقد لا هبه  
وطارت عصفير الشقائق واكتسى      من الآل أمثال المجرة قاصبـه  
غدات عانة تشكو بأبصارها الصدى      إلى الجأب إلا أنها لا تخاطبه

فهذا المبالغة في الوصف من غير عدول عن الحقيقة ، ونحو قول ابن

هرمة واصفا كلبا :

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا      يكلمه من حبه وهو أعجم

فقرن بهذه المبالغة " يكاد " فأخرجه عن الغلو الذي يبتعد عن

الحقيقة ، وانظر إلى قول المثقب العبدى في هذا المعنى حاكيا عن ناقته  
ما يبعد كل البعد عن الحقيقة :

تقول إذا درأت لها وضيبي      أهذا دينه أبدا وديني  
أكل الدهر حل وارتحال      أما يبقى على ولا يقيبي

فهذا هو الغلو البعيد كل البعد عن الحقيقة . وإنما ذهب إلى

أن الناقه لو تكلمت لأسرت عن شكواها بمثل هذا القول (١) .

وهذا التفرير الذي وضحه الحاتمي بينهما يقوم على درجة امكان قيام

من أسند إليه الفعل . فان كان الشاعر لم يتورط فينسب للفاعل مالا يمكنه القيام

به فهو جار على الحقيقة . . . . . وإن نسب له مالا يقوم به مستدلا بدلائل

وإشارات يمكن أن يقوم بها كالشكوى من الحيوان بالنظر أو العبارة أو التحمّم

فهذا هو المبالغة في الوصف من غير عدول عن الحقيقة . . . . . وإن كان ما نسبه

إليه شيئا لا يمكن قيامه به كالقول بالنسبة للحيوان، فهذا هو البعد عن الحقيقة

(١) الرسالة الموضحة : ٩٤ - ٩٧ الوضين : قال في اللسان عن الجوهرى الوضين  
للهودج بمنزلة الشيطان للقتب والتصدير للرحل والحزام للسرغ وهما كالنسيج  
الا أنهما من السيور إذا نسج نساجة بعضها على بعض والجمع وضن ( لسان  
العرب : وضن ) .



كل البعد الذي يسميه الخاطي بالفلو .  
وهذا التفريق الخاطي بين الحقيقة والمبالفة والفلو يظهر لنا  
أن التفاوت الذي وصفه بينها ، هو التفاوت الذي سار بينها على أساس  
النظر العقلي ، والحكم على التخيل من خلال الواقع الخارجي .

## الفصل الثاني

المبالغة ومصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجري

لقد رأينا في الفصل السابق تطور الحركة النقدية ، التي اتخذت اتجاهات شتى تبدو في جمع الشعر وأخبار الشعراء ، ومحاولة وضع معايير وقواعد للشعر . وعقد الموازنات بين الشعراء ، واتخاذ موقف من المواقف تجاه شاعر معين ، والبحث عن وجه الإعجاز في القرآن الكريم ، ووجوه البلاغة في الشعر والنثر . ولقد كان للمبالغة نصيب في كل هذه الاتجاهات ، فهي ترد كخبر عن الشعراء المغرطين ، وتأتي كقاعدة يستحسن حذوها أو الابتعاد عنها عند وضع القواعد والمعايير ، وتبحث صورها في القرآن الكريم . وفي هذا الفصل سنتابع تطور فكرة المبالغة ، عبر تطور الحركة الفكرية في هذا القرن ، لنرى كيف يتأثر البحث في المبالغة بالاتجاه الفكري ، كما سنرى عند المعتزلة . وسنتطرق في هذا الفصل للحديث عن المبالغة عند الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ . لأنه وإن عاش عمرا في القرن السادس ، إلا أننا لا نستطيع أن نفصل بين اتجاهه في كلا القرنين .

وقد كانت الوقفة في الفصل السابق أمام من تناول المبالغة وقفة فيها بعض التأنى وذلك لأننا كنا نتابع الفكرة من بدايتها ، ونلمس الأوليات ، في زيادة نوع من أنواع المبالغة أو تفريق بين درجاتها ، وفي هذا الفصل لن تكون الوقفة كذلك ، لأن الفكرة قد استقرت والتسمية قد سادت ، وسيكون مقدار الوقفة أمام أي عالم بقدر ما يضيف من جديد ، أو ينقش من قديم ، أو بقدر ما يعمق من فكرة تؤثر في لاحقيه .

### ١ - القاضي عبد الجبار

( وهو الذي تلقبه المعتزلة قاضي القضاة ، ولا يطلقون هذا اللقب على سواه ولا يصفون به عند الإطلاق غيره ، كان إمام أهل الاعتزال في زمانه ، وكان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع وله التصانيف السائرة ، والذكر الشائع بين الأصوليين )<sup>(١)</sup> ولقد كان للمعتزلة دور كبير في التأويل في القرآن الكريم بما يوافق مذهبهم . ولقد خصهم ابن تيمية بجزء من حملته التي شنّها على المتأولة :  
( فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا

مذ هبها يخالف الحق الذي عليه الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها ، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم تارة ويستدلون بآيات على مذ هبهم ولا دلالة فيها ، وتارة يتأولون ما يخالف مذ هبهم بما يحرفون الكلام عنه مواضعه ومن هؤلاء فرق الخوارج ، والروافض ، والجهمية ، والمعتزلة ، والقدرية والمرجئة وهذا كالمعتزلة مثلا فإبهم من أعظم الناس جدلا ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذ هبهم مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم . . . ومثل كتاب أبي علي الجبائي والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد السهمذاني ، والجامع لعلم القرآن لعلي بن عيسى الرماني ، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري ، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذ هب المعتزلة ( ١ ) .

ولقد كانت المبالغة وجهها من وجوه التوفيق بين ظاهر الآيات القرآنية ومذ هبهم فالقاضي مثلا يقول :

( قالوا : ثم ذكر تعالى . . . ما يدل على أنه خلق أعمال العباد فقال ( بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء ) ( ٢ ) .

وهذا وما تقدم مما لا ريب في عمومه ، فيجب دخول اكتساب العبد تحتها . ويجيب عن ذلك بعبارة أجنبية تخرج أعمال العبد من هذا العموم ومن بينها المبالغة الذي وجد فيها مخرجا يمكن أن يتعلق به لإثبات مذ هبهم من بين المخارج التي أوردتها والتي نكتفي هنا بإيراد بعضها : يقول " والجواب عن ذلك أنهم ظاهرا ( وخلق ) يقتضي أنه قدير ، ودبر ولا يوجب في اللغة أنه فعل ذلك وأحدثه ولذلك قال الشاعر :

ولأنت تغزى ما خلقت وعمد  
رض القوم يخلق ثم لا يغزى

فأثبتته خالقا من حيث قدر ودبر ، وإن لم يغز الأديم . ومتى حمل الكلام على هذا الوجه كان حقيقته : أنه تعالى وإن لم يحدث أعمال العباد ، فقد قدرها ودبرها وبين أحوالها ، فيها وجه . وقد قال بعض العلماء : إن هذه اللفظة في الإثبات ليس المقصد بها التسميم كما يقصد ذلك في النفي ، لأن القائل يقول : أكلت كل شيء ، وتحدثنا بكل شيء ، وفعلت كل شيء ، وقال تعالى : ( تبياننا لكل شيء ) ( ٣ ) و ( ما فرطنا في الكتاب من شيء ) ( ٤ ) وقال تعالى ( تدمر كل شيء )

( ١ ) مقدمة في التفسير : ٨٢ ( ٢ ) سورة الأنعام : ١٠١ - ١٠٢  
( ٣ ) سورة النحل : ٨٩ ( ٤ ) سورة الأنعام : ٣٨

بأمر ربها (١) ، (وقال (يجبى إليه ثمرات كل شيء) (٢) ، وإنما المقصد بذلك المبالغة في الكثير من ذلك النوع المذكور ، قال : ولا يعرف هذا الكلام في باب الإخبار عما يفعل الإنسان عما يحدث مستعملاً إلا على هذا الوجه ، فلا يصح أن يدعي فيصه المصوم فهذا وجه ثان . وما يقال في ذلك : وقوله تعالى ( خالق كل شيء ) على ما يصح أن يقدر عليه فيجب أن يبين أن أفعال العباد يصح ذلك فيها حتى يتضمنها المصوم ، كما أن الدلالة الفعولية إذا دلت على أنه تعالى يفعل أموراً فانما تدل بعد تقدم العلم بأن كان قادراً عليها ، وما ترتب على شرط غير مذكور تجب معرفته لا يمكن ادعاء المصوم فيه . . . . . ) (٣)

وقد سبق أن رأينا هذا الإشكال عند الرماني وقد وجد في المبالغة المخرج منه (٤) . ويجيب على من استدل بقوله تعالى " وهو القاهر فوق عباده (٥) على أن المكان يجوز عليه سبحانه وتعالى لأن " فوق " إنما تستعمل في اللغة بمعنى المكان إذا علا على مكان غيره قائلاً ( والجواب عن ذلك : أنه قد نيه في الكلام على ما أراد بقوله ( وهو القاهر ) ثم ذكر ما يقتضى بيان حاله في ذلك فقال ( فوق عباده ) وهذا كقوله ( يد الله فوق أيديهم ) ومتى قيل هذا القول في بعض الأوصاف فالمراد به المبالغة في تلك الصفة ، لأننا إذا قلنا : عالم ( فوق غيره ) فإنما يفهم منه المبالغة فيما قدمناه من الصفة ، يبين ذلك أننا إن حملنا الآية على ظاهرها وجب كونه في السماء فقط ، وينبغي ما تقدم من استدلالهم على أنه في السموات والأرضين (٦) . وقد تبعه في ذلك الحاكم الجشمي فقال عند قوله تعالى ( وهو القاهر فوق عباده ) ، وهو القادر والغالب على كل شيء - فوق عباده - أي عال عليهم بالقهر والغلبة وهي مبالغة في صفة الله بالقدرة العالية . . لأن الجهات لا تجوز عليه ، لأنه ليس بجسم ) (٧)

ومع اعتراف القاضي بأن في قوله تعالى ( قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك ظررك ) تقوية من الله تعالى على ذلك وإن لا منتهمسى لحدود تلك القدرة في السر إلا أن التصور البشري المحدود والنظر العقلي لا يزالان به يقفان يبع عن حدود تلك القدرة الغيبية فيحكم عليها بالمبالغة يقول في ذلك

- 
- (١) سورة الأحقاف : ٥٥ (٢) سورة القصص : ٥٧  
(٣) متشابه القرآن : ٢٥٢ (٤) النكت في اعجاز القرآن : ١٠٤  
(٥) سورة الأنعام : ٨ (٦) متشابه القرآن : ٢٣٧ ، ٢٣٨  
(٧) تهذيب التفسير ورقة ٢٦ من المخطوط رقم ب ٢٧٦١٨ نقلاً عن بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : ٦٣٨

( كيف يصح نقل عرشها من ذلك الموضع البعيد في هذا القدر من الأوقات وأن ذلك معلومة استهالته ؟ وجوابنا أن سرعة الحركة والتحريك لا يعلم منتهاى حده فلا سريع إلا ويجوز أسرع منه ، فلا يتمتع صحة ذلك إذا كان الله تعالى مقويا له عليه ، ويعني قبل أن يرتد اليك طرفك المبالغة في الإسراع لأن ذلك قد يقال في الأمر السريع الشديد السرعة ) (١) .

وقد جراه الزمخشري في ذلك فقال ( يجوز أن يكون هذا مثلا لاستقصار مدة المجيء به ، كما تقول لصاحبك : افعل كذا في لحظة . وفي ردة طرف وما أشبه ذلك ، تريد السرعة ) (٢) . ( فقد تطابقا في أن الآية جارية على غير حقيقتها ، إلا أن الزمخشري أطلق على مثل هذا الأسلوب - مثلا - والقاضي أطلق عليه - مبالغة - ) (٣) .

## ٢ - أبو منصور الشعالي

عبد الملك بن محمد بن اسماعيل المتوفي سنة ٤٢٩ هـ أو ٤٣٠ هـ . له مصنفات كثيرة في الأدب واللغة ، أشهرها يتيمة الدهر ، وخاص الخاص ، وفقه اللغة .

وسنين الآن كفية تناوله للمبالغة في المجالين اللغوي والأدبي . ففي المجال الأدبي كان تناوله لها في يتيمة الدهر مثلا لا يختلف عن تناول السابقين لها . ولم يستخدم تفريقهم بين درجاتها بل نجده يمزج الإفراط بالمبالغة والإحالة فيذكر من معائب أبي الطيب المتنبى ( الإفراط في المبالغة والخروج الى الإحالة ) ويستشهد لذلك بمدة أقوال للمتنبى منها قوله :

ونالوا ما اشتبهوا بالحزم هونا      وصاد الوحش نملهم دبيبا  
وقوله :

وضاقت الأرض حتى صارها رهم      إذا رأى غير شيء ظنه رجلا  
فبعده والي ذا اليوم لو ركضت      بالخيل في لهوات الطفل ما سملا  
وقوله :

وأعجب منك كيف قدرت تشبها      وقد أعطيت في المهد الكمالا  
وأقسم لو صلحت يمين شبيء      لما صلح العباد له شيئا  
وقوله :

ولو قلم ألقيت في شق رأسه      من السقم ما غيرت من خط كاتب

( ١ ) تنزيه القرآن عن المطاعن : ٣٠٣ ( ٢ ) الكشاف : ٢٩٠ / ٣

( ٣ ) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار : ٦٩٣

وقوله :

من بعد ما كان لليل لا صباح له كأن أول يوم الحشر آخره  
ويعلق على ذلك بقوله :

( فهو مما يستهجن في صفة الشعر، على أن كثيرا من النقاد لا يرتضون  
هذا الإفراط كله ) (١)

وقد تناول في كتابه " فقه اللغة وسر العربية " نوع المبالغة الذي رأيناه عند  
قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري والذي تأتي فيه المبالغة عن طريق زيادة في  
المعنى بعد اتمام المعنى وقد عبر الثعالبي عن ذلك بـ " زيادة المعنى حسنا بزيادة  
لفظ " وقال : " هي من سنن العرب ، كما تقول :

زيد ليث ، إنما شبهته بليث في شجاعته ، فإذا قال : زيد كالليث الغضبان  
زاد المعنى حسنا ، وكسا الكلام رونقا ، كما قال الشاعر :

شددنا شدة الليث عدا والليث غضبان

..... ومن هذا المعنى قول الأعشى :

تروح على آل المحلق حفنة كجابية الشيخ العراقي تغسق

فشبه الحفنة بالجابية ، وهي الحوض ، وقيدها بذكر العراقي لأن العراقي  
إذا كان بالبر ولم يعرف مواضع الماء ، ومواقع الغيث ، فهو على جمع الماء الكثير  
أحرص من البدوي ، العارف بالمناقع والأحساء . وقال ابن الرومي :

من مدام كأنها دمة المهجور يكي وعينه مرهبا

فشبهها بدمة المهجور في الدقة ، وزاد في الدقة بأن وصف عينه بالمره  
وهو طول العهد بالكحل ، ليكون الدمع مع رقتة أصفى وأسلم مما يشويه ، وهذا من  
لطائف الشعراء (٢) . ولم يعتبر الثعالبي ذلك مبالغة ولكن تصريحه بزيادة اللفظ  
يفيد أن المعنى قد تم بدون هذه اللفظة +

وأكثر الأمثلة التي ذكرها هنا تدخل أيضا في باب الأفعال الذي ذكره أبو  
هلال والذي سيأتي ذكره أيضا عند ابن رشيق . وليت شعري ما الذي دعا الثعالبي  
إلى الحكم بزيادة مثل هذه الألفاظ وهو الذي رأيناه يشرح لنا مقاصد كل لفظة ويبين  
أثرها في المعنى !!!

ولكنها الحدود المفترضة للمعنى هي التي أوقعت النقد العربي في هذه

الإشكالات ، فالثعالبي مثلا نراه بين تيارين :

(١) يتيمة الدهر : ١٦٤/١ (٢) فقه اللغة وسر العربية : ٣٨٠، ٣٨١

تتأثر الحدود المفترضة للمعنى وان ما زاد على ذلك فهو زيادة أو حشو ،  
وتتأثر الإبداع والجمال الذي يلح عليه في هذه الزيادة فيندفع الى شرحه وبيانه كما  
رأينا في هذا الفصل الذي سماه ب ( فصل في ريادة المعنى حسنا بزيادة لفظ ) وكما  
فعل في الفصل الآخر الذي قعد فيه إلى ما سماه بالحشو يصنفه ويرتبه الى مراتب  
تشده أكثرها الى الإعجاب بها وإطعامها المستمع مع حشو اللوزينج . فهو يقول :  
( العرب تقيم حشو الكلام مقام الصلة والزيادة ، وتجريه في نظام الكلمة ، وهو على  
ثلاثة أضرب : ضرب منها ردي مذموم كقول الشاعر :

ذكرت أخى فعاود نسي صداع الرأس والوصب

فذكر الرأس ، وهو حشو مستغنى عنه ، لأن الصداع مختص بالرأس فلا معنى  
لذكره معه . . وأما الضرب الأوسط ، فكقول امرئ القيس (١) :

الأهل أتاها ، والحوادث جمة بأن امرئ القيس بن تملك بيقرا (٢)

فقوله " والحوادث جمة " حشو مستغنى عنه ، ولكن لا بأس به في موضعه ،  
وكقول النابغة :

لمرى ، وما عمرى على بهين لقد نطقت بطلا على الأقار

فقوله : " وما عمرى على بهين " حشو يتم الكلام بدونه ، ولكنه محمود لما فيه  
من تفخيم اللفظ ، وتأكيد المراد (٣) .

وأما الضرب الثالث ، فهو الحشو الحسن اللطيف ، كقول عوف بن محلم :

إن الثمانين ، وبلغت سمي إلى ترجمان

فقوله " وبلغت سمي " حشو مستغنى عنه في نظم الكلام ، ولكنه حسن في مكانه ،  
وأوقع في المعنى المقصود ، وكان ابن عباد يسمي هذا الحشو حشو اللوزينج ، لأن  
حشو اللوزينج خير من خبزته (٤) . وكانت عباراته في وصف بقية أمثلة هذا الضرب من  
الحشو تتم عن إعجاب به شديد فهو إما أن يقول : ( حشو ولكن بالحسنة نهاية ) أو  
( حشو ولكن ما لحسنه غاية ) أو ( حشو يربى على حشو اللوزينج ) أو ( حشو يجمع  
الحسن والطيب ) أو ( حشو : نظر منه ما الظرف ) أو ( حشو يعجز الوصف عن حسنه  
وحلاوته ) .

وأما في مجال الأساليب أو الألفاظ التي وجدت في اللفظة للمبالغة فقد حدثنا  
الثعالبي عن المبالغة بزيادة الهاء (٥) التي سبق أن رأيناها عند ابن جنى ، وعبر عن

(١) هو امرؤ القيس بن تملك أحد المسمين بامرئ القيس من العرب وليس هذا امرؤ  
القيس بن حجر الكندي الشاعر المشهور .

(٢) يقال بيقر الرجل : إذا عاجر من أرض الى أرض ، أو إذا خرج الى حيث لا يدري  
أو إذا نزل الحضر وأقام هناك ، وترك قومه بالبادية وحضر بعضهم من العراق  
قال ابن منظور : وببيت امرئ القيس يحتمل هذا جميعا .

(٣) فقه اللفظة وسر العربية : ٣٨٧ ، ٣٨٨ (٤) المصدر السابق : ٣٨٨ ، ٣٨٩

(٥) المصدر السابق : ٣٥٢

مبالغة بعض الأبنية التي ذكرها ابن جنى كفَعَلٌ وتَفَعَّلَ ب ( معنى التكثير )<sup>(١)</sup> ولكنّه وقف بنا عند أسلوب لغوي يحمل المبالغة في فصل صغير حدثنا فيه عن اشتقاق نعت الشيء من اسمه عند المبالغة فيه فقال ( ذلك من سنن العرب كقولهم : يوم أيوم ، وليل أليل ، وروض أريض ، وأسد أسيد ، وصلب صليب ، وصديق صدوق ، وظل ظليل ، وحرز حرّيز ، وكنّ كنين ، وداو داوي )<sup>(٢)</sup> .

(١) المصدر السابق : ٣٦٣ ، ٣٦٤

(٢) المصدر السابق : ٣٧٢



## ٣ - الشريف المرتضى

من علماء القرن الخامس الهجرى ، كان مخلصا للاعتزال ، ومتتبعا لبعض المسائل في الحديث الشريف ، والقرآن الكريم ، يعلل ظاهرها بالمبالغة أو بأوله على تأويلات مختلفة . ومن ثم كان تناوله للمبالغة في أماليه عرضا يعمد اليه عند الحاجة الى التعليل كوجه من وجوه التأويل المختلفة التي يحاول بها أن يجد للآية القرآنية أو الحديث النبوى الشريف مفهوما عقليا خاليا من التشابه وموافقا للمعاني المنطقية التي سادت في دراسات البيهية الاسلامية بنشوء علم الكلام والجدل ويتضح ذلك في صنيع الشريف المرتضى في تأويل خبر ( ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت ) الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول ( وفي هذا الخبر وجوه التأويل ثلاثة : أحدها أن يكون معناه : إذا عملت العمل لله جل وعز وأنت لا تستحي من الناظرين إليك ، ولا تتخوفهم أن ينسبوك فيه إلى الرياء صنعت ما شئت ، لأن فكرك فيهم ومراقبتك لهم ، يقطعانك عن استيفاء شروط عملك ويمنعانك من القيام بحدوده وحقوقه ، وإذا طرحت الفكر توفرت على استيفاء عملك .

والوجه الثاني : أن من لم يستحي من المعايير والمخازى والفضائح صنع ما شاء ، والظاهر ظاهراً ، والمعنى معنى تغليظ وإنكار مثل قوله تعالى ( اعلموا ما شئتم <sup>(١)</sup> ، وقوله عز وجل ( فمن ظننا فليؤمن ومن شاء فليكفر ) <sup>(٢)</sup> وهذا نهاية التغليظ والزجر والإخبار عن كبر الذنب في اطراح الحياء ، ويجرى مجرى قولهم : بعد أن فعل فلان كذا فليفعل ما يشاء ، ويمد أن أقدم على كذا فليقدم على ما شاء والمعنى المبالغة في عظم ما ارتكبه ، وقبح ما اقترفه .

والوجه الثالث : أن يكون معنى الخبر إذا تفعل ما تستحي منه فافعل ما شئت فكان معنى الخبر إذا تفعل قبيحا فافعل ما شئت ، لأنه لا قبيح من ضرور القباح إلا والحياء يصاحبه ومن شأن فاعله إذا قرع به أن يستحي منه فمتى جانب الانسان ما يستحي منه من أفعاله فقد جانب سائر القباح ، وما عدا القبيح من الأفعال فهو حسن <sup>(٣)</sup> .

ويتضح مقدار شدة الذهن في تصيد بعض هذه الأوجه إذ كان الوجهان الأول والثالث بعيدان كل البعد عن الأسلوب العربي بشهادة أن المرتضى قد استطاع أن يستشهد على الوجه الثاني بأسلوب القرآن الكريم الذى نزل بلسان عربي مبين ، ولم

(١) سورة فصلت : ٤٠ (٢) سورة الكهف : ٢٩

(٣) آمال المرتضى : ١/٧٥ ، ٧٦

يستطع أن يستشهد على الوجه الأول أو الثالث لا بالقرآن الكريم ولا بكلام العرب .  
 والمبالغة التي فسرها المرتضى هذا الحديث النبوي الشريف ، تحمّل  
 دلالتها التي وجدت كن أجلها في اللفظة وهي الدلالة على التناهي في المعنى وبلوغ  
 الفاية فيه كما أوضحنا ذلك سابقا . ولم يخرج بها الى مجاوزة الحقيقة والزيادة على  
 المعنى كما فعل كثير من النقاد والمتأولين ، وكما يفعل هو ذلك إذا وجد أن تلك  
 الدلالة تخالف مذهبهم في التوحيد فمن ذلك تأويله لخبر ( إذا أحب الصبي لقائني  
 أحببت لقاءه ، وإذا ذكرني في نفسه فكثرت في نفسي ، وإذا ذكرني في ملام ذكرته في ملام  
 خير منه ، وإذا تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإذا تقرب إلي ذراعا تقربت إليه  
 باعا ) حيث قال : فتأويله ظاهر ، وهو خارج على مذهب للمرب في مثل هذا الباب  
 معروف ، ومعناه إن ذكرني في نفسه جازيته على ذكره لي ، وإذا تقرب إلي شبرا  
 جازيته على تقربه إلي ، وكذلك الخبره الى آخره ، فسمى المجازاة على الشيء باسمه  
 اتساعا كما قال تعالى " وجزاء سيئة سيئة مثلها " (١) ، " ويمكرون ويمكر الله " (٢) ،  
 " الله يستهزئ بهم " (٣) . وكما قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب ، ولما أراد تعالى المبالغة في وصف ما  
 يفعله به من الثواب والمجازاة على تقربه بالكثرة والزيادة ، كنى عن ذلك بذكر المسافة  
 المتضاعفة فقال ( باعا ، ذراعا ) إشارة الى المعنى من أبلغ الوجوه وأحسنها (٤) .  
 وقد وقف المرتضى عند قوله تعالى " ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون  
 النبيين بغير حق " (٥) . وقوله سبحانه في موضع آخر " وقتلهم الأنبياء بغير حق " (٦)  
 وكان موضع التساؤل أن ظاهر هذا القول يقتضي أن قتلهم قد يكون بحق وجعل تحت  
 مثل هذا التساؤل قوله تعالى " ومن يدع مع الله إليها آخر لا برهان له به " (٧) ، وقوله  
 " الله الخم لله رفع السموات بغير عمد ترونها " (٨) ، وقوله " ولا تكونوا أول كافرين ولا تشتروا  
 بآياتي ثمنا قليلا " (٩) ، وقوله تعالى " ولا يسألون الناس الحافا " (١٠) ، وأجاب عن ذلك  
 بقوله ( ان للمرب فيما جرى هذا المجرى من الكلام عادة معروفة ، ومذهبها مشهورا ،  
 عند من تصفح كلامهم وفهم عنهم ، ومرادهم بذلك المبالغة في النفي وتأكيده ، فمن

- |                           |  |
|---------------------------|--|
| ( ١ ) الشورى : ٤٠         | ( ٢ ) سورة الأنفال : ٣٠                |
| ( ٣ ) سورة البقرة : ١٥    | ( ٤ ) آمل المرتضى : ٣٢٧/١              |
| ( ٥ ) سورة آل عمران : ٢١  | ( ٦ ) سورة آل عمران : ١٨١ النساء : ١٥٥ |
| ( ٧ ) سورة المؤمنون : ١١٧ | ( ٨ ) سورة الرعد : ٢                   |
| ( ٩ ) سورة البقرة : ٤١    | ( ١٠ ) سورة البقرة : ٢٧٣               |

ذلك قولهم : فلان لا يرجى خيره ، ليس يريدون أن فيه خيرا لا يرجى وإنما غرضهم أنه لا خير عنده على وجه من الوجوه ومثله : قلما رأيت مثل هذا الرجل وإنما يريدون أن مثله لم يـر لا قليلا ولا كثيرا وقال عمرو القيس :

على لا حبلا يهتدى بمناره إذا سافه العمود الديباني جرجرا  
يصف طريقا ، وأراد بقوله " لا يهتدى بمناره " أنه لا منار له فيهدى بها (١)  
وبذلك أدخل المرتضى تحت باب المبالغة هذا الأسلوب اللغوي الذي يرى في ظاهره  
استثنا من النفي الذي يحمله .

(١) أمالي المرتضى : ٢٢٨/١ وفيه : العمود : المسنن من الابل ، والديباني : مسنوف الى دياب قرية بالشام معروفة ، وسافه شمه ، والجرجرة : مثل الخديرة .

## ٤ - ابن رشيق القيرواني

أما ابن رشيق القيرواني المتوفي سنة ٤٥٦ هـ . فقد كانت وقفته أمام المبالغة وقفة طويلة إذ وقف أمام ٣٠٠ السابقين يعرضها ويفصل حججها ، وأضاف الى طريقة المبالغة طرقا جديدة لم يدخلها السابقون تحت بابها ، واجتمع لديه أكبر عدد عرف من مصطلحات المبالغة حتى تلك الفترة من القرن الخامس الهجري إذ رأينا لديه : المبالغة - الفلو - الإغراق - التبليغ - الإفراط . بل لا نكون مجاوزين للحقيقة إذ قلنا إن مصطلحات المبالغة التي عرفت في البلاغة العربية لم تزد عن هذه المصطلحات وابن رشيق لم يعرف المبالغة وإنما الذي يؤخذ من كلامه أنها درجة أقل من درجة الفلو ، وقد بين اختلاط الدرجتين عند البعض بقوله ( فأما الفلو فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه )<sup>(١)</sup> ففي رأيه أن الذين أنكروا المبالغة إنما أنكروها لا إدخالهم الفلو فيها ، بينما المبالغة كما يؤخذ من تعريفه لبعض أنواعها دون درجته إذ أورد منها نوعا سماه التقصى وحده بقوله ( وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء كقول عمرو بن الإيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا  
ونتبعه الكرامة حيث كانا

فتقصى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه )<sup>(٢)</sup> فالتقصي لا يخرج دلالة المبالغة عن التناهي في المعنى وبلوغ الغاية فيه . وكذلك كان مثال ترادف الصفات الذي أورده وهو قوله تعالى ( أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض )<sup>(٣)</sup> غير خارج عن هذه الدرجة وإنما فيه ( تهويل مع صحة لفظ لا تحيل معنى )<sup>(٤)</sup> . وأما الفلو فقد قرنه بالإغراق والإفراط فقال تحت باب الفلو ( ومن أسمائه أيضا الإفراط والإغراق )<sup>(٥)</sup> وسبق أن أشرت الى سنة كثير من النقاد في ربط الإفراط بالفلو . وقد مررنا أيضا اطلاق لفظ الإغراق عند عمر ابن أبي ربيعة على الاستقصاء في شعر الأحوص ، وربط الإفراط به عند ثعلب . ولم يزل الإغراق عند ابن رشيق مستعملا كما كان عند هؤلاء بمعناه اللغوي ، ولم يستقل بنوع من أنواع المبالغة ، أو درجة من درجاتها كما حدث عند المتأخرين . وإن كان يظهر من جعله تسمية للفلو عند ابن رشيق بلوغه درجة في البعد عن الحقيقة غير درجة المبالغة .

- ( ١ ) العمدة : ٥٥ / ٢ ( ٢ ) المصدر السابق : ٥٥ / ٢  
 ( ٣ ) سورة النور : ٤٠ ( ٤ ) العمدة : ٥٥ / ٢  
 ( ٥ ) المصدر السابق : ٦٠ / ٢

والفلو كما يرى ابن رشيقي مخالف للحقيقة وخارج عن الواجب والمتعارف ، وعلل ذلك بأن الله سبحانه وتعالى قد قرن الفلوفيه بالخروج عن الحق ، فقال جل من قائل ( قل يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم غير الحق ) (٢) .

وللفلو ( الإغراق أو الإفراط ) عنده درجات ومراتب فهو يقول ( ومن أبيات الفلو للقدماء قول مهلهل :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البهيش تقرع بالذكور

وقد قيل : انه أكذب بيت قاله العرب ، وبين حجر ، وهي قصبة اليمامة

— وبين مكان الوقعة عشرة أيام ، وهذا أشد غلوا من قول امرئ القيس في النار ، لأن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشد ادراكا . . ومنها قول النابغة في صفة السيف :

تقد السلوقي المضاعف نسجه ويوقدن بالصباح نار الحباب

وهو دون بيت امرئ القيس في تنوير صاحبه النار إفراطا ، ودون بيت النابغة قول النمر بن تولب في صفة السيف أيضا (٣) . وقد وقف بنا ابن رشيقي على المعاني اللغوية لكلمة الفلو والإغراق ليوضح ارتباط ما قصده بالمعنى الاصطلاحي لكل منهما فالمعنى اللغوي فقال : ( واشتقاق الفلو من المفالة ، ومن غلوة السهم ، وهي مدى رميته ، يقال : غليت فلانا مفالة وغلأه ، اذا اخترت ما أبعد غلوة سهم ، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام : " جرى المذكيات غلأه " وقد جاء في حديث داود " غلأه " و " غلاب " بالباء أيضا ، واذا قلت غلأ السهم غلأه ، فانما تريد أنه ارتفع وزاد على ما كان ، وكذلك غلت القدر غلأيا أو غلأنا ، إنما هو أن يجيش ماؤها ويرتفع ، والإغراق أيضا أصله في الرمي ، وذلك أن تجذب السهم في الوتر عند النزح حتى تستغرق جميعه بينك وبين حنية القوس ، وإنما تفعل ذلك ليمد الفرغ الذي ترميه ، وهذه التسمية تدل على ما نحوت اليه وأشرت نحوه (٤) .

ومن مصطلحات المبالغة الذي عرف عند المتأخرين وجاء عند ابن رشيقي نقلا عن الحاتمي وأصحابه مصطلح التبليغ ، ولكنه لم يأخذ معناه الاصطلاحي وإنما بقي دالا على معناه اللغوي في بلوغ الغاية حيث يقول عن الإيفال ( وهو ضرب من المبالغة . . . إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها ، والحاتمي وأصحابه يسمونه التبليغ ، وهو تفعيل من بلوغ الغاية ، وذلك يشهد بصحة ما قلته ويدل على ما رتبته (٥) .

- ( ١ ) المصدر السابق : ٦٠ / ٢ ، ٦١ ( ٢ ) سورة المائدة : ٧٧  
 ( ٣ ) العمدة : ٦٢ / ٢ يقصد قول امرئ القيس :  
 ( ٤ ) تنويرتها من أنورعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عـال  
 وقول النمر في السيف :  
 تظل تحفر عنه ان ضربت به  
 ( ٥ ) المصدر السابق : ٦٥ / ٢ بعد الذراعين والساقين والهادي  
 المصدر السابق : ٥٧ / ٢

ويعد أن عرفنا مصطلحات المبالغة عنده ودلالاتها يحسن الوقوف على الأنواع التي وصلت إليها المبالغة عنده ، وما أدخله تحتها من أنواع ، كما يظهر ذلك كتابه الممددة الذي تبرز فيه الأنواع التالية :

١ - التشبيه .

٢ - الاستعارة . وقد أشار الى ذلك بقوله ( فأما الفلوفهو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ، ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه مما بينت ، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه ، وعيبت الاستعارة الى كثير من محاسن الكلام ) (١) .

وكانت المبالغة هي حجته في الرد على الرمانى الذى عاب على بعض

شعراء عصره قوله :

صُدُّعُهُ صُدُّ خَدِّهِ مِثْلَ مَا الْوَعْدُ - إِذَا مَا اعْتَبِرْت - صُدُّ الْوَعْدِ

وقوله :

وَلَهُ غُرَّةٌ كَلَوْنٌ وَصَالٍ فَوْقَهَا طَّرَّةٌ كَلَوْنٌ صَدُودٍ

بحجة أن التشبيه الحسن هو الذى يخرج الأغص الى الأوضح

فيفيد بيانا .

إن قال ( أما ما شرط في التشبيه فهو الحق الذى لا يدفع ، لا أنه قد حمل على الشاعر فيما أخذ عليه ، إن كان قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم في النفس دليله بأكثر مما هو عليه في الحقيقة ، كأنه أراد المبالغة ) (٢)

وأما في الاستعارة فقد نقل قول أبي الفتح عثمان بن جنى في شرح

بيت أبي الطيب المتنبى :

فَتَى يَمَلَأُ الْأَفْعَالَ رَأْيًا وَحِكْمَةً وَبَادِرَةً أَحْيَانَ يَرْضَى وَيَفْضِبُ

عندما قال ( الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة ، وإلا فهي حقيقة ) (٣)

وعلق عليه بقوله : ( كلام ابن جنى . . حسن في موضعه ، لأن الشيء إذا

أعطى وصف نفسه لم يسم استعارة فإذا أعطى وصف غيره سمي استعارة ، إلا أنه لا يجب للشاعر أن يبعد الاستعارة جدا حتى ينافر ، ولا أن يقربها كثيرا حتى يحقق ، ولكن خير الأمر أوساطها ) (٤)

٣ - أحد ضروب التتميم : الذى يقول عنه ( وهو التمام أيضا ، وبعضهم يسمي

ضربا منه احتراسا واعتياطا . ومعنى التتميم : أن يحاول الشاعر معنى ، فلا

(١) المصدر السابق : ٥٥/٢ (٢) المصدر السابق : ٢٨٨، ٢٨٧/١

(٣) المصدر السابق : ٢٧٠/١ (٤) المصدر السابق : ٢٧١/١

يدع شيئا يتم به حسنه الا أورده ، وأتى به : إما مبالغة ، وإما احتياطاً واحتراساً من التقصير<sup>(١)</sup> فهو هنا يصرح بأن بعض التتميم يأتي للمبالغة وأمثلة التتميم التي رأى فيها المبالغة هي قول زهير :

من يلق يوماً على علاته هَرَمًا يلقى الساحة منه والندی خُلِقًا

حيث يقول "قولة على علاته . مبالغة وتتميم عجيب . وقوله سبحانه ( ويطمعون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا )<sup>(٢)</sup> حيث جعله الأصل في هذا فقال ( فقوله ( على حبه ) هو التتميم والمبالغة في قول من قال ( إن الهاء ضمير الطعام )<sup>(٣)</sup> .

ومع أنه جعل أحد ضروب التتميم هنا للمبالغة إلا أنه عاد بعد ذلك فأدخل التتميم كله تحت باب المبالغة فقال مبينا أن ليس كل مبالغة فيها بعد ( ألا ترى أن التتميم إذا طلبت حقيقته كان ضرباً من المبالغة ، وإن ظهر أنه من أنواع الحشو المستحسن )<sup>(٤)</sup> .

وقد ذكر التتميم قدامة بن جعفر<sup>(٥)</sup> ، وأبو هلال العسكري<sup>(٦)</sup> ، ولكنهما لم يدخلاه تحت باب المبالغة .

٤ - التقصي : وهو الذي يقول عنه : ( فمن أحسن المبالغة وأغربها عند الحذاق التقصي ، وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء كقول عمرو ابن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا ونبغ الكرامة حيث كانا

فتقصي بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه )<sup>(٧)</sup> .

٥ - ترادف الصفات : ويقول عنه : ( ومن أغربها أيضا ترادف الصفات ، وفي ذلك

تهويل مع صحة لفظاً تحيل معنى ، كقول الله تعالى : " أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوق موج من قعر سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض )<sup>(٨)</sup> .

٦ - الأيصال : يقول عنه : ( وهو ضرب من المبالغة . . . إلا أنه في القوافي

خاصة لا يعددها ، والحاشي وأصحابه يسمونه التبليغ ، وهو تفعيل من بلوغ<sup>(٩)</sup> الغاية ، وذلك يشهد بصحة ما قلته ، ويدل على ما رتبته ) ثم تحدث عن ذكر

- |     |                      |      |                      |
|-----|----------------------|------|----------------------|
| (١) | المصدر السابق : ٥٠/٢ | (٢)  | سورة الدهر : ٨٠      |
| (٣) | العمدة : ٥١/٢        | (٤)  | المصدر السابق : ٥٤/٢ |
| (٥) | نقد الشعر : ١٤٤      | (٦)  | الصناعتين : ٤٠٤      |
| (٧) | العمدة : ٥٥/٢        | (٨)  | سورة النور : ٤٠      |
| (٩) | العمدة : ٥٥/٢        | (١٠) | العمدة : ٥٧/٢        |

الأصمعي له في رواية عن التوزي الذي قال : ( قلت للأصمعي : من أشعر الناس ؟ قال الذي يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيرا ، أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجمله خسيسا ، أو ينقضى كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت : نحو من ؟ قال : نحو الأعشى إذ يقول :

كناطح ضخرة يوما ليلقها  
فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل

فقد تم المثل بقوله : وأوهى قرنه ، فلما احتاج إلى القافية قال ( الوعل ) . قال : قلت : وكيف صار الوعل مفضلا على كل ما ينطح ؟ قال : لأنه ينحط من قمة الجبل فلا يضره ، قال : قلت : ثم نحو من ؟ قال نحو ذى الرمة بقوله :

قف العيس في أطلال مية وأسأل  
رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

فتم كلامه ، ثم احتاج إلى القافية فقال ( المسلسل ) فزاد شيئا وقوله :

أظن الذي يجدي عليك سؤالها  
دومعا كتبديد الجماع المفضل

فتم كلامه ، ثم احتاج إلى القافية فقال " المفضل " فزاد شيئا أيضا ( ١ ) ومع أن كلا من قدامة بن جعفر وأبي هلال قد ذكرا الإيفال المفضل المصطلح يشير إلى أنه نوع من المبالغة ، وإن كان تعريفهما له يدخل تحت تعريف المبالغة التي ذكره قدامة ونقله عنه أبي هلال كما ذكرنا ذلك سابقا ، وأبو هلال المسكري لا يخص الإيفال بالقوافي كما هو الحال عند قدامة بن جعفر وابن رشيق وإنما ينقله إلى المقاطع في النثر ، ويدخله في التميم ( ٢ ) فيقول ( ويدخل أكثر هذا الباب في التميم ، وإنما يسمى إيفالا إذا وقع في الفواصل والمقاطع ) ( ٣ ) .

وقد وقف ابن رشيق عند المعنى اللغوي للإيفال ليربط ذلك بالمصطلح فقال : ( واشتقاق الإيفال من الابداد ، يقال : أوغل في الأرض ، إذا أبعدها فيها حكاها ابن دريد ، وقال وكل داخل شيء دخول مستعجل فقد أوغل فيه وقال الأصمعي في شرح قول ذى الرمة :

كأن أصوات من إيفالهن بنا  
وأوخر الميس أصوات الفراريح

الإيفال : سرعة الدخول في الشيء : يقال أوغل في الأمر إذا دخل فيه

( ١ ) المصدر السابق : ٥٧/٢ وقد وردت القصة بهذا المعنى مع اختلاف في الترتيب

في كل من نقد الشعر : ١٦٩ ، ١٧٠ والصناعتين : ٣٩٥

( ٢ ) الصناعتين : ٣٩٥ وقارن بنقد الشعر ١٦٨ ، والمعدة ٥٧/٢

( ٣ ) الصناعتين : ٣٩٦



بسرعة ، فعلى القول الأول كان الشاعر أبعد في المبالغة وذهب فيها كسل  
الذهاب ، وعلى القول الثاني كأنه أسرع الدخول في المبالغة بمبادرته هذه  
القافية (١) .

بعض أنواع الحشو : ( وسماء قوم الاتكاء ، وذلك أن يكون في داخل البيت  
من الشعر لفظا يفيد معنى ، وانما أدخله الشاعر لإقامة الوزن ، فإن كان  
ذاك في القافية فهو استدعاء ، وقد يأتي في حشو البيت ما هو زيادة في  
حسنه وتقوية لمعناه (٢) .

- ٧

ولا زال ابن رشيق واقفا تحت التيارين اللذين كانا يتجازبان المعنى  
في النقد العربي ، وهما تيار الحدود المفترضة للمعنى ، وتيار الإبداع  
الشخصي والرؤية النفسية للمعنى ، فكان ما يؤثر به التيار الثاني ينظر إليه في  
النقد العربي على أساس أنه زيادة على المعنى المفترض مسبقا ، ولكن الحاح  
الإبداع وإضافة الرؤية النفسية المتميزة تظل تلح على النقاد حتى يعترفوا بها  
بطرق مختلفة ، كالمبالغة أو الاحتراس ، أو التتيم ، أو الإيفال وقد رأينا  
حنو الشمالبي على الحشو ، وجهده في بيان فوائده . . . ونراه الآن عند  
ابن رشيق الذي يشرح مقاصد التتيم ويمثل أكثر ما افترض فيه الحشو بالمبالغة  
وتقوية المعنى إذ نراه يقول ( ومن طليح أناشيد التمثيل قول ابن مقبل :  
انسى أقيد بالمأثور راحلتي ولا أبالي وإن كنا على سفر  
فقوله ، أقيد بالمأثور . تمثيل بديع ، والمأثور هو السيف الذي فيه  
أثر وهو الفرند وقوله : ولا أبالي ، حشو طليح ، أفاد مبالغة عجيبة (٣) .  
ويقول في قول ابن المعتز يصف رخيلا :

صبنا عليها ظالمين سياطنا وطارت بها أيدٍ سراعٍ وأرجلٌ

( وهذا عند جميع الناس من باب الحشو ، وهو عندى مبالغة . وكذلك  
الإيفال (٤) .

وليس أدل على حنوه على هذه اللفظة التي حكمت عليها محكمة النقد  
العربي بالحشو - كما يظهر من قوله السابق - من عودته إليها مرة أخرى وقوله  
فيها ( فقوله ( ظالمين ) حشو أقام به الوزن وبالغ في المعنى أشد مبالغة من  
جهته ، حتى علمنا ضرورة أن إتيانه بهذه اللفظة التي هي حشو في ظاهر الأمر  
أفضل من تركها ، وهذا شبيه بالتتيم (٥) ومهما كان من دفاع ابن رشيق

- 
- (١) العمدة : ٦٠/٢ (٢) المصدر السابق : ٦٩/٢  
(٣) المصدر السابق : ٢٧٩/١ (٤) المصدر السابق : ٥٤/٢  
(٥) المصدر السابق : ٦٩/٢

عن بعض ما حكم عليه بالحشو ، فانه لم يستطع أن يقلت من سيطرة تيار الحدود المفترضه للمعنى ، فوقف عند بعض الأبيات ، وطرد بعض ألفاظها منها — بحناية الحشو .

وتجلت ظاهرة تجاذب التيارين في استثناءه إرادة الشاعر في الحكم بالحشو على بعض الألفاظ مع أن الأولى به وبالنقد العربي النظر الى هذه الإرادة ، واستنتاجها من داخل العمل الأدبي ، وعدم الحكم على العمل الأدبي عند غيابها . فما يدل على هذه الظاهرة قوله في قول أبي الطيب المتبني :

إذا اعتل سيف الدولة ، اعتلت الأرض ومن فوقها ، والبأس والكرم المحض  
( فقوله " والبأس " حشو ، لأن قوله " ومن فوقها " دال على الإنس والجن جميعا ، والبأس والكرم جميعا ، اللهم إلا أن يحمله على تأويلهم في قول الله تعالى " فيهما فاكهة ونخل ورمان " <sup>(١)</sup> . فأعاد ذكرهما وهما من الفاكهة لفضلهما ، وقوله تعالى : " من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال " <sup>(٢)</sup> فإن هذا سائغ وليس بحشو حينئذ ) <sup>(٣)</sup> .

وقوله في قول الكلبة اليربوعي :

إذا المرء لم يفش الكريمة أو شكت حبال الهوينا بالفتى أن تقطعا  
( فقوله " بالفتى " حشو وكان الواجب أن يقول " به " لأن ذكر المرء قد تقدم ، إلا أن يريد في قوله بالفتى الزراية ، والأطنوزة <sup>(٤)</sup> فانه يحتمل <sup>(٥)</sup> .  
نفي الشيء " بإيجابه :

يقول عنه ابن رشيقي ( وهذا الباب من المبالغة ، وليس بها مختصا إلا أنه من محاسن الكلام فإذا تأملته وجدت باطنه نقيا وظاهره إيجابا . قال امرؤ القيس :

على لا حبالا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطي جرجرا  
فقوله " لا يهتدى بمناره " لم يرد أن له منارا لا يهتدى به ، ولكن أراد أنه لا منار له فيهتدى بذلك المنار .

( ٢ ) سورة البقرة : ٩٨

( ١ ) سورة الرحمن : ٦٨

( ٣ ) العمدة : ٢٠ / ٢

( ٤ ) الأطنوزة من الطنز وهو السخرية وباب فعله نصر قال صاحب المختار " وأظنه

مولدا أو مصربا ) ( ١٠ هـ

( ٥ ) العمدة : ٢٠ / ٢

وكذلك قول زهير :

بأرضٍ خلّاءٍ لا يُسَدُّ وصيدُها عليّ ، ومعروفي بها غير منكرٍ

فأثبت لها في اللفظ وصيدا ، وإنما أراد ليس لها وصيد فيسد عليّ (١)

ثم أورد عدة أمثلة أخرى على ذلك قال بعدها ( والشاهد على جميع

ما قلته في شرح هذه الأشياء ، ما جاء في تفسير قول الله عز وجل : " لا يسألون

الناس الحافا " (٢) . قالوا : ليس يقع منهم سؤال فيقع الحافا . أي هم

لا يسألون البتة (٣) .

وسبق أن رأينا أن الشريف المرتضى يفسر مسائل من هذا الأسلوب

بالمبالغة .

(١) المصدر السابق : ٢ / ٨٠ ، ٨١ (٢) سورة البقرة : ٢٧٣

(٣) العدد : ٢ / ٨١ ، ٨٢

## ٦ - ابن سنان الخفاجي

من أدياء هذا القرن وشمرائه الذين توفروا على التأليف في البلاغة وتحديده  
بعض مصطلحاتها مع تمييز المقبول من المردول في بعض الأنواع البلاغية التي تناولها  
كالاستمارة والتشبيه ، والحشو ، والجناس ، والتكرار ، والمبالغة .  
والذي يهمننا الآن استخدامه لمصطلحات المبالغة وتفريقه بين درجاتها وما  
أدخله فيها من أنواع .

فأما استخدامه لمصطلحات المبالغة فقد استخدم ثلاثة مصطلحات منها كانت  
هي الأكثر ورائنا في التأليف وهي : المبالغة - الغلو - الإفراط . وإذا كنا قد  
رأينا فيما سبق تفريقا بين الغلو والمبالغة فإن هذا الفرق يكاد يلفى عند ابن سنان  
الخفاجي إلى درجة تحس مما يترادفهما وتناوبهما في كلامه كما يظهر ذلك من قوله  
" وأما المبالغة في الممضى والغلو فان الناس مختلفون في حمد الغلو وئذمه ، فمنهم  
من يختاره ويقول : أحسن الشعر أكذبه ، . . . . . ومنهم من يكره الغلو والمبالغة  
التي تخرج إلى الإحالة ، ويختار ما قارب الحقيقة ودانى الصحة ، ويمسب قول أبي  
نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه      لتخافك النطف التي لم تخلق  
لما في ذلك من الغلو والافراط الخارج عن الحقيقة ، والذي أذهب إليه  
المذهب الأول في حمد المبالغة والغلو . . . . . وأما المبالغة بغير - كاد - فكقول  
أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان :

ونباله من بحر لو تعمدها      بليل أناس النواظر لم يخطوا  
وكقول النمر يصف السيف :  
تظلل تحفر عنه إن ضربت به  
وكقول النابغة :

تقد السلوقي المضاعف نسجه      ويرشون بالصفاح نار الحباب  
وقول ابن هاني الأندلسي :

أمد يرها من حيث دار لشد ما      زاحمت تحت ركابه جبريلا (١)  
ومع هذا الترادف وإطلاق اسم المبالغة على أبيات وسمت بالغلو عند السابقين (٢)  
فإنه يلمح من قوله ( وأما استمطال الغلو الخارج إلى الإحالة في النثر فقليل ، وأكثر

(١) سر الفصاحة : ٢٦٣ ، ٢٦٤ (٢) مثل بيت النمر الذي رأيناه في كل  
من نقد الشعر : ٩٢ والصناعتين

ما يستعمل فيه المبالغة التي تقارب الحقيقة (١) . أن عنده احساسا بالفرق بين درجتيهما مما يجعل الجزم بترادفهما تماما لديه أمرا غير ممكن (٢) .

وأنواع المبالغة عنده هي :

١ - الاستمارة :

=====

لم يصرح ابن سنان بأن هدف الاستمارة المبالغة . ولكن نقله عن الرمانى لبعض الاستمارات التي صرح فيها الرمانى بالمبالغة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك يبين سيره على السنن نفسه الذي يرفع من شأن الاستمارة بالمبالغة . وتصريحه بأن الاستمارة على ضربين : ( قريب مختار ، وبمعيد مطرح ) (٣) يبين أن الاستمارة على درجات في المبالغة عن الحقيقة ويوضح - ذلك قوله ( فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح ، والبمعيد مطرح إما أن يكون لبعده ما استعير له في الأصل ، أو لأجل أنه استمارة مبنية على استمارة فتضعف لذلك ، والقسمان معا يشملهما وصفي بالمعيد . لكن هذا التفصيل يوضح (٤) والذي يؤكد وسم هذا المعيد بالمبالغة أيضا قوله في رده على القاضي الجرجاني ( وأما قوله - يمئني القاضي - : ( ان أبا الطيب يريد أن مباشرة مفرقها شرف ، ومجاورتها زين ومفخرة ، وأن التعاسد يقع فيه والحسرة تعظم عليه ، فلو كان الطيب ذا قلب لسر ، كما لو كانت البيض ذات قلوب لأسفت " فلم يزد على أن فسّر مراد أبي الطيب بقوله إن الطيب يسر بمفرق هذه المرأة والبيض تحسّر ، والمعنى ظاهر فيه الاخفاء به ، وقوله - يمئني القاضي - " إن مراده لو كان الطيب ذا قلب لسر " ليس بعذر في قوله ( قلوب الطيب ) لأن بين قوله " لو كان للطيب قلب " وبين قوله " للطيب قلب " فرقا ظاهرا لا يخفى على أحد ، لأن أحدهما قد جعله واجبا والآخر ممتعا ليس فيه أكثر من الفرض الذي يعلم من فعوى اللفظ أنه لم يقع ، وليس يخفى على متأمل أن بين قول البحترى فلو أن مشتاقا تكلف عند ما في طبيعه لمشي إليه المنبر وبينه لو كان قال " إن المنبر مشى اليك " ميزة بيّنة ظاهرة ، وهذا الأمر لا يمتد في مثله شبهة ، فيحتاج إلى الإسهاب في إيضاحه (٥) .

وهذه النظرة يتدبّر فيها الواقع الخارجي وما يصح أن يقع فيه وما لا يصح

(١) - سر الفصاحة : ٢٢٣ ، ٢٢٤ -

(٢) - ممن قال بترادفهما لدى الدكتور محمد ابراهيم موسى في كتابه : الصبغ البدعي

في اللغة العربية : ٢١٦ (٣) سر الفصاحة : ١١٠

(٤) المصدر السابق : ١١٠

(٥) سر الفصاحة : ١٢١ ، ١٢٢ وهذه المناقشة حول قول أبي الطيب :

مسرة في قلوب الطيب مفرقها وحسرة في قلوب البيض والبلب

أن يقع دون نظريتي عميقة الشاعر في الخلق الأدبي عن طريق اللغة . وقد ارتضى ابن سنان أبيات جاءت فيها استعارة كهذه حمد لصاحبها التصفة باللفظة الذي لم يرتضه في هذه الأبيات وذلك في قوله " وللسرى الموصلي أبيات مرضية في معناها وهي :

أقول لحنان المشي المغرد  
تبسم عن ري البلاد حبيبه  
ثم بعدها أبيات :

وياديزها الشرقي لا زال رائج  
عليه أنفاس الرياح كأنصا  
يشق جيوب الورد في شجراته  
يحمل عقود المزن فيك فهفتدي  
يقبل بماء الورد نرجسها الندي  
نسيم متى ينظر إلى الماء يبرد

وفي هذه الأبيات استعارات عدة كل منها مختار : أما حنان العرش المغرد - فمصروف ، والمعادية جارية باستعارة الحنين والتفريد للفيث ، لأن له صوتا على كل حال ، وكذلك صفيح البارق - وأشبه شي\* بالبرق لمع السيوف ، والتبسم فيه أيضا ظاهر لظهور برقه في خلاله ، وعقود المزن لاثقة . . . وأنفاس الرياح تكاد تكون حقيقة لوضوحه ، واستعمال العلة فيها كناية عن الضمف والخفوت وقلة الحركة على وجه التشبيه بالمرضى ، وجيوب الورد مختار ، لأن النسب إذا أظهره من أكامه ونشره عن طيبه بعد ذلك كان بمنزلة الجيوب التي تشق وعبارته عن سرعة برد الماء بالنسيم انه متى نظر إليه برد مرضيه ، لأن النظر ليس هو الرؤية وإنما هو ضرب من المقابلة والمواجهة تقع الرؤية بعده ، ومثل هذا في النسيم موجود ولائق غير بعيد ( ١ ) .

التشبيه :  
=====

لقد جعل ابن سنان هدف التشبيه منحصرًا في غرضين هما : ايضاح المعنى وبيان المراد والخلو والمبالغة حيث يقول ( والأصل في حسن التشبيه أن يمثل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد ، فيكون حسن هذا الأجل ايضاح المعنى وبيان المراد ، أو يمثل الشيء بما هو أعظم وأحسن وأبلغ منه ، فيكون حسن ذلك لأجل الخلو والمبالغة ( ٢ ) وقد مثل للفرس الأول بعدة آيات منها قوله تعالى ( والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه

الظمان ما حتى اذا جاءه لم يجده شيئا (١) وقوله تعالى ( مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ) (٢) وقوله تعالى ( فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ) (٣) وقوله تعالى ( مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت ) اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ) (٤) ومثل للفرض الثاني بقوله تعالى ( وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ) (٥) ( فإنه شبه الشيء بما هو أعظم منه على وجه المبالغة ) (٦) .

وقال عن قول النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركسي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

( وهذا للتشبيه يجمع المقصود بين من الظهور والمبالغة ، أما الظهور فلأن علم الناس بأن الليل لا بد من إدراكه له أظهر من علمهم بأن النعمان لا بد من إدراكه له ، وأما المبالغة فان تشبيهه بالليل الذي لا يصد دونه حائل أعظم وأفخم وأبلغ في المدح ) (٧) وعلى الغرضين وجه التشبيه في قوله تعالى ( طلعتها كأنه رؤوس الشياطين ) (٨) حيث يقول ( فإن قيل : قد مضى في كلامكم أن المشبه به يجب أن يكون مصروفا واضحا أبين من الشيء الذي يشبهه ، فما تقولون في قوله تعالى في شجرة الزقوم ( إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعتها كأنه رؤوس الشياطين ) ورؤوس الشياطين غير مشاهدة قيل إن الزقوم غير مشاهد ورؤوس الشياطين غير مشاهدة إلا أنه قد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد ، كما استقر في نفوسهم من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد ، حتى إنهم إذا شبهوا وجهها بوجه الحور كان تشبيها صحيحا ، وإن كانت الحور لم تشاهد ولم يستقر في نفوسهم قبح طلع الزقوم كما استقر في نفوسهم قبح رؤوس الشياطين فكان المشبه به أوضح . وفي رؤوس الشياطين أيضا من المبالغة في القبح ما ليس في طلع الزقوم ، وقد قيل في بعض التفاسير : إن الشياطين هنا الحيات وعلى هذا القول يستعمل السؤال لأن الحيات مشاهدة ) (٩) .

(١) سورة النور : ٣٩ (٢) سورة ابراهيم : ١٨

(٣) سورة الرحمن : ٣٧ (٤) سورة العنكبوت : ٤١

(٥) سورة الرحمن : ٢٤ (٦) سر الفصاحة : ٢٣٨

(٧) المصدر السابق : ٢٣٨

(٨) سورة الصافات : ٦٤ ، ٦٥

(٩) سر الفصاحة : ٢٤٦

ويسميها بالأرداف كما سماها بذلك أبو هلال ويسميها أيضا بالتبعية حيث يقول ( ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تراد الدلالة على المعنى ، فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللفظة ، بل يوتى بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع ، وهذا يسمى الأرداف والتبعية لأنه يوتى فيه بلفظ هو ردف اللفظ المخصوص بذلك المعنى وتابعه ، والأصل في حسن هذا أنه يقع فيه من المبالغة في الوصف ما لا يكون في نفس اللفظ المخصوص بذلك المعنى ، ومثاله قول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط ، إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

فإنه إنما أراد أن يصف هذه المرأة بطول العنق ، فلو عر عن ذلك باللفظ الموضوع له لقال - طويلة العنق - فعدل عن ذلك وأتى بلفظ يدل عليه وليس هو الموضوع له ، فقال : بعيدة مهوى القرط - فدل ببعد مهوى قرطها على طول الجيد ، وكان في ذلك من المبالغة ما ليس في قوله - طويلة العنق - لأن بعد مهوى القرط يدل على طول أكثر من الطول الذي يدل عليه - طويلة العنق - لأن كل بعيدة مهوى القرط طويلة العنق ، وليس كل طويلة العنق بعيدة مهوى القرط ، إذا كان الطول في عنقها يسيرا وهذا موضع يجيب فهمه (١) .

وقد شرح بعد ذلك المبالغة في كنايةي امرئ القيس ( نووم الضحى )

و ( قيد الأوابد ) في قوله :

وَتَضْحَى فَتَيْتُ الْمَسْكِ فَوْقَ فَرَّاشِهَا نُوومُ الضْحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفْضُلِ

وقوله :

وقد اغتدى والطير في وكنايتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

ثم قال ( وأه حاب صناعة البلاغة يذكرون الأرداف ، ولا يشرحون العلة

في سببه وحسنه من المبالغة التي نهينا عليها (٢) وقد كان على حق في ذلك فهو أول من أدخل هذا الأسلوب تحت باب المبالغة .

٤ - تأكيد المدح بما يشبه الذم :

يقول ابن سنان ( ومن المبالغة قول النابغة الذبياني :

(١) المصدر السابق : ٢٢١ (٢) المصدر السابق : ٢٢٢



ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكنايب  
ولما كان هذا الاستثناء من المبالغة في المدح ، لأنه قد دل به على  
أنه لو كان فيهم عيب غيره لذكره ، وأنه لم يقصد إلا وصفهم بما فيهم على  
الحقيقة .

ومنه أيضا قول أبي هفان :

ولا عيب فينا غير أن سماحننا      أضربنا والبدأس من كل جانب  
فأفنى الردي أعمارنا غير ظالم      وأفنى الندى أموالنا غير عائيب  
أبونا أب لو كان للناس كلهم      أبا واحدا أغناهم بالمناقب (١)

وقد ذكر هذا الأسلوب ابن رشيق وسماه الاستثناء وأشار إلى تسميته  
عند ابن المعتز فقال ( وابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذم  
، وذلك نحو قول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم      بهن فلول من قراع الكنايب  
فجعل فلول السيف عيبا وهو أكد في المدح .

وقال النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه      جواد فما يبقى من المال باقيا  
فاستثنى جوده الذي يستأصل ماله ، بعد أن وصفه بالكمال ، وبهذا  
الاستثناء ثم وزاد كمالا وتأكد حسنه (٢) .

صورة الوهم :

=====

وقد جعل ابن سنان من المبالغة الممتنع ( الذي يمكن تصويره في  
الوهم ولا يمكن وجوده ) وكانت إمكانية التصور في الوهم هي الفرق بين  
المستحيل والممتنع — إذ أن المستحيل ( هو الذي لا يمكن وجوده ولا تصويره  
في الوهم ) بينما الممتنع يمكن أن يتصور ( مثل أن يتصور تركيب أعضاء الحيوان  
من نوع في نوع آخر منه ، كما يتصور يد أسد في جسم إنسان ، فإن هذا وإن  
كان لا يمكن وجوده فإن تصويره في الوهم ممكن ) ثم قال : ( وقد يصح أن يقع  
الممتنع في النظم والنثر على وجه المبالغة ، ولا يجوز أن يقع المستحيل أبته  
فأما قول أبي عباد :

لما مسدحتك وإفاني بذاك على      أضعاف ظني فلم أظفر ولم أخب  
فليس هذا من المتناقض . . . ألا ترى أن معناه لم أظفر بنفس ما ظننته

لأنك زدت عليه ، لكأن ظني لم يصدق ، لأنه لو صدق لكان وقع على ما ظننته  
بعينه من غير زيادة عليه ، ولم أحب لأنك قد أعطيتني ، ومن أعطى فما خاب ،  
وهذا صحيح واضح (١) .

وقد ذكر ابن سنان كلا من الإيفال والحشو ولكنه لم يدخلها تحت بـ  
المبالغة .

## ٦- عبد القاهر الجرجاني

كثير حديث الإمام عبد القاهر عن المبالغة ، وبعدها أو قريبها من الحقيقة ،  
وتحدد مكان المبالغة في كثير من الأنواع التي أدخلها تحت المبالغة ، وسننظر الآن  
في أسماء المبالغة عنده ؟ وهل تتخذ تسمياتها فوارق بين درجاتها ، ثم نتناول  
بعد ذلك الأنواع التي أدخلها في المبالغة .

فأما أسماؤها عنده فهي المبالغة والإغراق والإفراط وتجد هذه الأسماء  
مترادفة عنده ، وينوب بعضها عن بعض وذلك إذا نظرنا إلى قوله تعليقا على بيت أبي  
الطيب المتنبى :

دون التعانق ناحلين كشـــــــــــــــــكلتني      نصَّبِ أدقِّهما وضمَّ الشاكلِ (١)

"وأما المتنبى فأراك الشيعين في مكان واحد وشدد في الفرق بينهما ، وذلك  
أنه لم يعرض لهيئة العناق ، ومخالفتها صورة الافتراق ، وإنما عمد إلى المبالغة في  
فرط النحول واقتصر من بيان حال الممانعة على ذكر الضم مطلقاً (٢) مع قوله أيضا حول  
ذلك البيت "ولئن كان المتنبى قد زاد على الأول فليس تلك الزيادة من حيث وضع  
الشبه على تركيب شكلين ، ولكن من جهة أخرى ، وهي الإغراق في الوصف بالنحول (٣)  
حيث نجده أناب الإغراق مناب ما وسعه بالإفراط والمبالغة . أو قوله " . . . وقولهم  
إذا أفرطوا : نور الصباح يخفى في ضوء وجهه ، أو نور الشمس مشروق من جبينه ، وما  
جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة " (٤)

وقد يذكرها مقترنة من ذلك قوله " فهذا ليس من جنس ما مضى - أعني ما  
أصله التشبيه ثم أريد التناهي في المبالغة والإغراق والإغراب . . . " (٥)

ولكن هل يعني هذا الترادف والاقتران عدم وجود فوارق بين درجاتها  
لديه ؟ لقد كان عبد القاهر يصدر عن هذه الفوارق والدرجات بين أنواع المبالغة  
التي وضعت من خلال المنظور إلى الواقع الخارجي . . . فهو يقول ( واعلم أن المعنى  
في المبالغة - وتفسيرنا بقولنا جعل هذا ذلك ، وجعله الأسد ، وادعى أنه الأسد  
حقيقة - أن المشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذي يجمع بين  
الشيعين ، وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة . فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة  
بين عينيه ، وألقى ما عداها فلم ينظر إليه ، فإن هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت

(١) الشكله : أراد الشلكة التي تكون في الاعراب . وضم الشاكل : الكاتب يريد

بالضم ولم يرد الضم الذي في الاعراب ( التبيان : ٢٥٣/٣ )

(٢) أسرار البلاغة : ٥٥/٢ (٣) المصدر السابق : ٥٦/٢

(٤) المصدر السابق : ٧٥/٢ (٥) المصدر السابق : ١٣٩/٢

له خطأ ظاهرا في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال : هو الأسد ، تناهى في الدعوى إما قريبا من المحق لفرط بسالة الرجل ، وإما متجاوزا في القول فجعلنا بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئا . . . ( ١ ) .

ولعل إيراد هذه المصطلحات مقترنة ومترادفة مع هذه المعرفة بدرجات القول قريبا أو بعدا عن الحقيقة يدلنا على أن الفوارق بين درجاتها لا تعنيه بقدر ما يعنيه المعنى الدال عليه عموم المبالغة عنده وعند السابقين من ارتفاع بالحقيقة إلى درجة لا تكاد تبلغها ويستوى لديه إن كان ذلك اغراقا أو مبالغة .

لكن الذي لا يستوى لديه هو بعض أنواع المبالغة وبعض أنواع التخييل فإن كان التخييل لديه جنسا تدخل تحته بعض أنواع المبالغة ، فإن هناك أنواعا منه غير مرضية وينظر إليها عبد القاهر نظرة شك وارتباب ولا يوضح ذلك نقول : إن التخييل عند عبد القاهر يتأرجح بين معان عدة وليس أدل على ذلك قوله " والذي أريده بالتخييل ههنا : ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويربها مالا ترى . . . " ( ٢ ) .

فكلمة ههنا تشير إلى أن مقصوده بالتخييل ههنا يختلف عن مقصوده به فسي مواضع أخرى ، فهو يجعل التخييل هنا قرين الكذب والخداع ، والدعوى التي لا تصح إلا وما كان ذلك إلا لأنه يحكم الواقع الخارجي والمنطق العقلي في الشعر . ومن هنا سارع إلى اخراج الاستعارة من هذه النظرة المريبة وذلك لكثرتها في التنزيل ( واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظية المستعارة ، وإنما يعتمد على إثبات شبه هناك ، فلا يكون مخبره على خلاف خبره وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن وهي كثيرة في التنزيل على مالا يخفى : كقوله عز وجل " واشتمل الرأس شيئا " ( ٣ ) ، ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على الاشتغال ظاهرا وإنما المراد إثبات شبهه ( ٤ ) .

وكان وسيلة اخراجها من ذلك هو إيجاد العلاقة بين ما يظهر في الكلام من مخالفة لحكم العقل والواقع ، بين الأصل المفترض للكلام فهو يقول " أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمرا عقليا صحيحا ويدعى دعوى لها شبح في العقل . . . " ( ٥ ) . وهذا المحذوف هو إثبات الشبه ، وعلى هذا كان الأمر ههنا في اخراج المجاز والاستعارة من تهمة الكذب ( ٦ ) .

- |       |                         |       |                         |
|-------|-------------------------|-------|-------------------------|
| ( ١ ) | المصدر السابق : ١٠٥ / ٢ | ( ٢ ) | المصدر السابق : ١٣٦ / ٢ |
| ( ٣ ) | سورة مريم : ٤           | ( ٤ ) | اسرار البلاغة : ١٣٥ / ٢ |
| ( ٥ ) | المصدر السابق : ١٣٦ / ٢ | ( ٦ ) | المصدر السابق : ١٣٥ / ٢ |

والبعد عن الحقيقة وخداع العقل لوجود التقدير والعلاقة بين هذه الصور والأصل المفترض للكلام . . . ولكن هناك أنواعا أخرى من الكلام لا توجد فيها هذه العلاقات نرى الإمام يمتبرها بمعنى الأحيان كذبا وتزويقا وخداعا للعقل ( وستمر بك ضروب من التخيل هي أظهر أمرا في البعد عن الحقيقة تكشف عن وجهه في أنه خداع للعقل وضرب من التزويق ، فتزداد استبانة العرض بهذا الفصل ، وأزيدك حينئذ ان شاء الله كلاما في الفرق بين ما يدخل في حيز قولهم : خير الشمر أكذبه وبين ما لا يدخل فيه ما يشاركه ما كان كلاما فيه اتساع وتجوز فاعرفه ( ١ ) .

وقد قسم الامام التخيل الى ضروب عدة :

١ - فممنه ما يجي \* مصنوعا قد تلطف فيه واستمين عليه بالرفق والحدق حتى أعطى شيئا من الحق وغشى رونقا من الصدق باحتجاج بخيل وقياس يصنع فيه ويعمل ومثاله قول أبي تمام :

لا تتكرى عطل الكريم من الفنى فالسيل هرب للمكان العالسي ( ٢ )

٢ - وأقوى من هذا في أن يظهر حقا وصدقا وهو على التخيل قوله :

الشيب كره وكره أن يفارقني أعجب بشيء على البفضاء مودود

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة لأن الإنسان لا يحببه أن يدركه الشيب فاذا هو أدركه كره أن يفارقه فتراه لذلك ينكره ويكرمه ، على أن إرادته أن

يدوم له إلا أنك إذا رجعت إلى التحقيق كانت الكراهة والبفضاء لا حقيقة

بالشيب على الحقيقة ، فأما كونه مرادا ومودودا فتخيل فيه وليس بالحق والصدق

بل المودود الحياة والبقاء ، إلا أنه لما كانت العادة جارية بأن زوال رؤيته

الانسان للشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها وكان العيش فيها محبا إلى

النفوس صارت محبته لما لا يبقى له حتى الشيب كأنها محبة للشيب ( ٣ ) .

٣ - ومن ذلك صنيمهم اذا أرادوا تفضيل شيء أو نقصه أو مدحه أو زمه فتعلقوا

ببعض ما يشاركه في أوصاف ليست هي سبب الفضيلة والنقيصة وظواهر أمور

لا تصحح ما قصدوه من التهجين والتزيير كما تراه في باب الشيب والشباب كقول

البحترى :

وبياض البازي أصدق حسنا ان تأملت من سواد الفراب ( ٤ )

٤ - وهذا نوع آخر وهو دعواهم في الوصف هو خلقه في الشيء وطبيعة أو واجب

على الجملة ، من حيث هو - أن ذلك الوصف حصل له من المدوح ومنه

( ١ ) المصدر السابق : ١٣٦/٢ وكان الكلام في الأصل . . . وبين ما يدخل ما -

يشاركه في أكلاما اتساع وتجوز فاعرفه .

( ٢ ) المصدر السابق ١٢٩/٢

( ٣ ) المصدر السابق : ١٢٩/٢ ( ٤ ) المصدر السابق : ١٢٩/٢ ، ١٣٠

استفادة ، وأصل هذا التشبيه ، ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد . . . (١) ، وجعل منه قول ابن بابك :

ألا يا رياض الحزن من أبرق الحمى      نسيمك مسروق ووصفك منتحل  
حكيت أبا سعد فنشرك نشوره      ولكن له صدق الهوى ولك الملل

نوع آخر : وهو أن يدعى في الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعلة يضافها الشاعر ويختلفها إما لأمر يرجع إلى تعظيم المدوح أو تعظيم أمر من الأمور .  
فمن الغريب في ذلك معنى بيت فارسي ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته      لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى أعني ما أصله التشبيه ثم أريد التناهي في المبالغة والإغراق والإغراب .  
(٢)

ويدخل في هذا الفن قول المتنبي :

لم يحك نائلك السحاب وإنما      همت به فصبها البرحضا (٣)

وجعل من لطيف هذا الجنس قول الصولي :

الريح تحسدني عليــك ولم أخلها في الصدا  
لما همت بقبــة      ردت على الوجــه الرد (٤)

وجعل من الطريقة السابقة مع وجه اختلاف قول الشاعر :

وحاربت فيه ريب الزمان      كأن الزمان له عاشق

وأوضح خلافه للنوع الأول بقوله " إلا أنه لم يضع علة ومعلولا من طريق النص بل أثبت محاربة الزمان في معنى الحبيب ثم جعل دليلا على جواز أن يكون شريكا في عشقه " (٥) . ويضيف مبينا الفرق بينهما ( فان من حكم المحصل ألا ينظر في تلاقي المعاني وتناظرها إلى جعل من الأمور والمعاني الاطلاق والمموم ، بل ينبغي أن يدقق النظر في ذلك ويراعى التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل فأنت في نحو بيت ابن وهيب - وحاربتني الخ - تدعى صفة غير ثابتة ، هي ثبتت اقتضت مثل العلة التي ذكرها . وفي نحو بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة ، ثم تدعى لها علة من عند نفسك وضما واختراعا ) (٦) .

نوع آخر في التعليل " وهو أن يكون للمعنى من المعاني ، والفعل من

- 
- (١) المصدر السابق : ١٣٨/١ (٢) المصدر السابق : ١٣٨/٢ ، ١٣٩  
(٢) المصدر السابق : ١٣٩/٢ ، الرحضا : العرق المتصبب .  
(٤) المصدر السابق : ١٤١/٢ (٥) المصدر السابق : ١٤١/٢  
(٦) المصدر السابق : ١٤١/٢ ، ١٤٢

الأفعال علة منسوبة من طريق الماديات والطباع ، ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة ويضع له علة أخرى ، مثاله قول المتنبي :

ما به قتل أعاديه ولكن يتقى اخلاف ما ترجو الذئاب ( ١ )

وهذا النوع هو حسن التعليل الذي صرح عبد القاهر بإفادته المبالغة ( واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون في استثناء هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالمدح أو يكون لها تأثير في الذم كقصد المتنبي ههنا في أن يبالح في وصفه بالسخاء والجود وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبه أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة في آمالهم قد يلفت به هذا الحد فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتل عداه كره أن يخلفها ، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها . . . ) ( ٢ )

ويظهر حسن التعليل ظهورا واضحا في النوع الخامس من هذه الأنواع وأما بقيتها فيظهر فيها بقدر لا يبلغ وضوح ظهوره في هذين النوع ومن هنا رأى الدكتور أحمد إبراهيم موسى أن التعليل يطرد في كل ما مضى ( ٣ ) .

( وهذا نوع آخر من التخيل وهو يرجع الى ما مضى من تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه إلا أن ما مضى معلل ) ومثاله قول أبي تمام :

- ٨

ويصعد حتى يظهر الجهو ل بأن له حاجة في السما  
فلولا قصده أن ينسى التشبيه ويرفعه بجهد ، ويصمم على إنكاره ويجده  
يجعله صاعدا في السما من حيث المسافة الكائنة ، لما كان لهذا الكلام وجه ( ٤ )  
ويضيف الامام قائلًا " وهكذا الحكم اذا استعاروا اسم الشيء بعينه من  
نحو شمس أو بدر أو بحر أو أسد فانهم ييلفون به هذا الحد ويصوغون الكلام  
صياغات تقضي بأن لا تشبيه هناك ولا استعارة .  
ومثاله قوله

قامت تظللني من الشمس نفس أعز علي من نفسي  
قامت تظللني ومن عشب شمس تظللني من الشمس ( ٥ )

وهذا التقسيم للتخييل ينسب عن درجاته في القرب من الحقيقة والبعده عنها ، ولم يصح عبد القاهر في الثلاثة الأولى بأنها للمبالغة أو يشر إلى ذلك

- 
- ( ١ ) المصدر السابق : ١٥٨ / ٢ ( ٢ ) المصدر السابق : ١٩٨ / ٢  
( ٣ ) الصيغ البديعي في اللغة العربية : ٢٣٣ ، ( ٤ ) اسرار البلاغة : ١٦٤ / ٢  
( ٥ ) المصدر السابق : ١٦٥ / ٢

وأما الباقية فقد صرح في بعضها ، وأشار في بعضها للمبالغة كما هو واضح من حديثه الذي نقلناه في هذه الأنواع .

ولو تساؤلنا عن هدف عبد القاهر من هذا الجهد الذي أضناه في محاولة استقراء هذه الأنواع والتفريق بين درجاتها مع أنه يعلم حق العلم أن ( ما شأنه التخيل أمره في عظم شجرته ، إذا توّمل نسبه ، وعرفت شعوبه وشعبه . . . لا يكاد تجي فيه قسمة تستوعبه وتفصيل يستفرقه )<sup>(١)</sup> لوجدنا أن قياس الكلام بما يمكن أن يقع في المعقول هو الداعي إلى هذه التقسيمات لإيجاد علائق ووسائط يمكن أن ترد للكلام معقوليته . . . حتى ولو كانت تلك الوسائط ادعاء ، أو اختلافا ، أو تعليلا بغد ادعاء ، أو تحويل العلة المعروفة إلى علة توجد في الكلام ، وكان هذا المطلب مع إحساس الإمام بجمال فن اللغة الذي ينطوي في الكثير الأعم على التخيل هو الذي يفسر موقفه من التخيل والمبالغة بين القبول والرفض وهو الذي يجعله حيناً يجعل الاستمارة من التخيل<sup>(٢)</sup> ، وحيناً يخرجها منه<sup>(٣)</sup> كما سنوضح ذلك إن شاء الله .

#### أساليب المبالغة عنده :

##### ١ - التشبيه :

تحدث الإمام عبد القاهر عن التشبيه وأنواعه وما يفيد المبالغة منه وما لا يفيدها . وقد عرفنا أن التشبيه لا يراد به في كل حين إلحاق الناقص بالزائد ومن هنا يستقيم العكس في التشبيهات التي لا يراد فيها ذلك ( جملة القول أنه متى لم يعتمد ضرب من المبالغة في إثبات الصفة للشيء ، والقصد إلى إيها في الناقص أنه كالزائد واقتصر على الجمع بين الشئيين في مطلق الصورة والشكل واللون أو جمع وصفين على وجه يوجد في الفرع على حد يوجد هو أو قريب منه في الأصل ، فإن العكس يستقيم في التشبيه وممتى أريد شيء من ذلك لم يستقم )<sup>(٤)</sup> . واستثنى من ذلك ما إذا كان الشاعر ( يقصد على عادة التخييل أن يوهم في الشيء هو قاصر عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه في استخفافها واستيجاب أن يجعل أصلا فيها ، فيصح على موجب دعواه وشوقه إلى أن يجعل الفرع أصلا ، وإن كنا إذا رجعنا إلى التحقيق

( ١ ) المصدر السابق : ١٣٧ / ٢  
 ( ٢ ) المصدر السابق : ١٣٩ / ١ ، ٩٧ / ٢  
 ( ٣ ) المصدر السابق : ١٢٥ / ٢  
 ( ٤ ) أسرار البلاغة : ٧٤ / ٢





الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذي يجمع بين الشئيين وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة ، فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه ، وألقى مبادئها فلم ينظر إليه فإن هو قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له خطأ ظاهرا في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد ، وإذا قال هو الأسد تناهى في الدعوى إما قريبا من المحق لفرغط بسالة الرجل ، وإما متجاوزا في القول فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئا<sup>(١)</sup> وأما التمثيل فيقصد به عبد القاهر نوعا من التشبيه وهو ما يكون الشبه فيه محصلا بضرب من التأول<sup>(٢)</sup> كقولك هذه حجة كالشمس<sup>(٣)</sup> ، وغيره مما لا يمكن ادعاؤه إلا على نوع من المقارنة أو المجازفة دون التحقيق والقطع من المتشابهات المتأولة التي ينتزعها العقل من الشيء للشيء والتي لا تكون في حيز المتشابهات الأصلية الظاهرة لأن الشبه العقلي كاد الشيء به يكون شبيها<sup>(٤)</sup> بالمشبه به .

وهذا الشبه العقلي ربما انتزع من شيء واحد كالمثال السابق ، وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشئيين يخرج أحد هلمتها الآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الأفراد لا سبيل الشئيين يجمع بينهما وتحفظ صورتها ومثاله قوله عز وجل ( مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاره )<sup>(٥، ٦)</sup> .

وقد ركز عبد القاهر على التشبيه المركب ورأى أنه الأولى بأن يسمى تمثيلا فقال ( وعلى الجملة فينبغي أن نعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلا - لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح - ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إن التشبيه كل ما كان أوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر )<sup>(٧)</sup> .

وقد بين عبد القاهر إفادة عموم التمثيل للمبالغة بقوله : ( فأما القول في العلة والسبب لما كان للتمثيل هذا التأثير وبيان جهته ومآتاه ، وما الذي أوجبه واقتضاه ففيها ، وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعلا كل منهما يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينيل ويشرف ويكمل )<sup>(٨)</sup> وبين أن الأوصاف

- |       |                       |       |                         |
|-------|-----------------------|-------|-------------------------|
| ( ١ ) | المصدر السابق : ١٠٥   | ( ٢ ) | المصدر السابق : ١٩٠/١   |
| ( ٣ ) | المصدر السابق : ١٩٣/١ | ( ٤ ) | المصدر السابق : ٢٠٩/١   |
| ( ٥ ) | الموقظة لجمعة : ٥     | ( ٦ ) | اسرار البلاغة : ٢١٠/١   |
| ( ٧ ) | المصدر السابق : ٢١٨/١ | ( ٨ ) | المواظبات للشيخ : ٢٣٤/١ |

التي ترد السامع فيها بالتمثيل مع العقل إلى العيان والحس وهي في نفسها معروفة مشهورة صحيحة لا تحتاج إلى الدلالة على أنها هي ممكنة موجودة أم لا ؟ فإنها وإن غنيت من هذه الجهة عن التمثيل بالمشاهدات والمحسوسات فإنها تفتقر إليه من جهة المقدار ، لأن مقاديرها في العقل تختلف وتتفاوت ، فقد يقال في العقل انه من جمال الفائدة على حدود مختلفة في المبالغة والتوسط فكان التمثيل ميزان القسطاس فلما قال الشاعر : كقابض على الماء خائته فرج الأصابيح، أراك كما يقول عبد القاهر ( رؤية لا تشك معها ولا ترتاب أنه بلغ في خيبة ظنه وبقوار سعيه إلى أقصى المبالغ . وانتهى فيه إلى أبعد الغايات، حتى لم يحظ ما قل ولا ما كثر ) ( ١ ) .

وأوضح عبد القاهر أن المبالغة وبينان المقدار غير مقصود في كل حين من التمثيل فقال ( وما يدل على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنسا وإن لم يكن بك حاجة إلى تصحيح المعنى ، أو بيان المقدار المبالغة فيه ، أنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التي تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لا تدع في النفوس منزعا نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالطول : يوم كأطول ما يتوهم وكأنه لا آخر له . وما شاكل ذلك من نحو قوله :

في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليلة بالحشر موصول  
فلا تجد له من الأنس ما تجده لقوله :

• ويوم كظل الرمح قصر طولـــــــــــــــــه .

على أن عبارتك الأولى أشد وأقوى في المبالغة من هذا ، فظل الرمح على كل حال متناه تدرج العين نهايته ، وأنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لا آخر له ) ( ٢ ) .

الاستعارة : ————— ٢

تحدث الإمام عبد القاهر كثيرا عن الاستعارة مبينا معالمها ، ومقدسا لبلاغتها لكثرتها في التنزيل ، والكلام العربي الفصيح ، ومشفقا عليها من دعوى التخييل في بعض الأحيان — كما أشرنا إلى ذلك —

والذي يهمننا الآن هو الحاحه على عنصر المبالغة فيها إلى درجة اقترنت عنده فيها الاستعارة بالمبالغة وذلك كما يظهر من حديثه عن التشبيه الذي ينبغي أن يصرف إلى المبالغة والذي لا ينبغي له ذلك حيث قال ( فإن

( ١ ) المصدر السابق : ٢٣٧/١ ، ٢٣٨

( ٢ ) المصدر السابق : ٢٤٠/١ ، ٢٤١

قلت : فلا بد من أصل يرجع إليه في الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه  
الى الاستعارة والمبالغة ، وما لا يحسن ذلك فيه ، ولا يحبيك المعنى إليه ،  
بل يصد بوجهه عنك متى أردت عليه ( ١ ) .

وقد قسم عبد القاهر الاستعارة الى نوعين :

١ - استعارة غير مفيدة : كاستعمال اسم مختص بجنس معين في غير جنسه  
تصو وضع المشفر للإنسان والمرش للإنسان كما في قول المجاج :  
. وفاحمنا ومرسنا مسرجا . ( ٢ )

وقد أقرت دعوى عدم الفائدة في مثل هذا عبد القاهر أمام أمثلة  
فرضت الفائدة في نفسها على حسه ووقفه فأخرجها من هذا الضرب مع أنها  
منه واعترف بفائدتها وافادتها المبالغة من مثل قول الحطيئة :

قروا جارك الميمان لما جفوته      وقلص عن برد الشراب مشافره

وقول مزرد :

فما رقد الولدان حتى رأيتهم      على البكر يمر به بساق وحافر ( ٣ )

٢ - استعارة مفيدة : وأما الاستعارة المفيدة فهي التي يحصل لك  
باستعارتها ( فائدة ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض ، ولولا مكان تلك  
الاستعارة لم يحصل لك ، وجملة تلك الفائدة ، وذلك الغرض التشبيه إلا أن  
طرقه تختلف حتى تفوت النهاية ، ومذاهبه تتشعب حتى لا غاية ( ٤ ) .

وضرب لذلك أمثلة بين فيها أن وجه فائدة الاستعارة هو المبالغة

فقال ( ومثاله قولنا : رأيت أسدا - وانت تعني رجلا شجاعا - وحررا - تريد  
رجلا جوادا ، ويدرا وشمسا تريد انسانا مضي الوجه وتهللا ، وسللت سيفا  
على العدو - تريد رجلا ماضيا في نصرتك أو رأيا نافذا وما شاكل ذلك . فقد  
استعرت اسم " الأسد " للرجل . ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما للولاها  
للإهليلج يحصل لك ، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة ، وإيقاعك منه  
في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدته ، وسائر المعاني  
المركوزة في طبيعته مما يعود الى الجرأة . . . وهكذا أفدت باستعارة البحر  
سعته في الجود وفيض الكف ، وبالشمس والهدر ما لهما من الجمال والبهاء  
والحسن المالي للعيون والباهر للنواظر ( ٥ ) .

وإذا كانت الاستعارة من أجل التشبيه وهو كالمغرض فيها ، أو كالعلة

- 
- ( ١ ) المصدر السابق : ١٠٤ / ٢  
( ٢ ) المصدر السابق : ١٢٣ / ١ ، ١٢٤  
( ٣ ) المصدر السابق : ١٣٠ - ١٣٢  
( ٤ ) المصدر السابق : ١٢٦ / ١  
( ٥ ) المصدر السابق : ١٢٦ / ١

والسبب في فعلها (١) . فإن حصوله بها على وجه خاص هو المبالغة وتبقي المبالغة فيها غرضا وعلّة مع الاختصار والإيجاز . يقول عبد القاهر في ذلك (ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة ، فقولي " من أجل التشبيه ، أردت به من أجل التشبيه على هذا الشرط ، وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلّة ، كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها . ألا ترى لئنا تفيد بالاسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة لأنك تفيد بقولك ( رأيت أسدا ) أنك رأيت شجاعا شبيها بالأسد وان شبيهه به في الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه حتى أنه لا ينقص طعن الأسد فيها (٢) الكنايــــــــــــة : وقد صرح عبد القاهر بإفادتها المبالغة ، وأن هذه - ٣

الإفادة جاءت عن طريق الإثبات شأنها في ذلك شأن الاستعارة والتمثيل وذلك لأنك ( إذا كنييت عن كثرة القرى بكثرة رماد القدر كنت قد أثبتت كثرة القرى بإثبات شاهدها ودليلها ، وما هو علم على وجودها ، وذلك لا محالة يكون أبلغ من إثباتها بنفسها ، وذلك لأنه يكون سبيله حينئذ سبيل الدعوى تكون مع تهللهم (٣) .

- ٤ المجاز الحكمي : لقد تحدث الإمام عبد القاهر عن الاستعارة وهي كما يقول مجاز في ذات الكلمة وفي اللفظ نفسه (٤) . وعن إفادتها المبالغة .

وهناك من تكلم بالتشبيه أن في الكلام مجازا على غير هذا السبيل وهو أن يكون التجوز في حكم يجري على الكلمة فقط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ويكون معناها مقصودا في نفسه ، ومرادا من غير تورية ولا تصريح مثل قولهم : نهارك صائم ، وليلك قائم ، ونام ليالي ، وتجلى همسي ، وقوله تعالى (٥)

( فما رحبت تجارتهم ) (٦) . وأشار إلى إفادة هذا النوع من المجاز للمبالغة بقوله ( واعلم ان الذي ذكرت لك في المجاز هناك من أن من شأنه أن يفخم عليه المعنى وتحدث فيه النباهة قائم لك مثله ههنا ) (٧) . وجعل من ذلك قول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادّكرت فإنهما هي إقبال وإدبار

وأكد إفادته المبالغة بقوله ( وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار

غير معناهما فتكون قد تجوّزت في نفس للكلمة وإنما تجوّزت في أن جعلتها لكثرة

- 
- |       |                        |       |                        |
|-------|------------------------|-------|------------------------|
| ( ١ ) | المصدر السابق : ٩٤ / ٢ | ( ٢ ) | المصدر السابق : ٩٥ / ٢ |
| ( ٣ ) | دلائل الاعجاز : ٣٤٣    | ( ٤ ) | المصدر السابق : ٣٢٧    |
| ( ٥ ) | سورة البقرة : ١٦       | ( ٦ ) | دلائل الاعجاز : ٢٢٧    |
| ( ٧ ) | المصدر السابق : ٢٢٨    |       |                        |

ما تقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن له حال غيرهما  
كأنها قد تجسست من الإقبال والإدبار (١) .

وفي بعض الأحيان يتغلب الإحساس الأدبي عنده، واحترام كلمة القائل  
على مراعاة المعقول ورد كل تصرف للقائل في اللغة الى ما يستسيغه العقل  
ويستجيزه من حذف أو تعبير يلزم عن ملزوم على عبد القاهر فلا يبالي بذلك  
كما فعل أمام هذا البيت الذي قال فيه ( وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون  
حذف المضاف ويقولون إنه في تقدير " فإنما هي ذات إقبال وإدبار ) وذلك (٢)  
لأن المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين يعني قوله تعالى ( وأسأل القرية )  
وقول الشاعر :

وكيف تواصل من أصبحت      خلالتك كأبي مرحب  
وقول الأعرابي :

حسبت نعام راحلتي عناقا      وما هي ويب غيرك بالمناق

في سهل ما يحذف من اللفظ ويراد بالمعنى كمثل أن يحذف خبر  
المتبداً أو المتبداً إذا دل عليه الى سائر ما إذا حذف كان في حكم المنطوق  
به وليس الأمر كذلك في بيت الخنساء لانما إذا جعلنا المعنى فيملا الآية. الآن  
كالمعنى إذا نحن قلنا : فإنما هي ذات إقبال وإدبار : أفسدنا الشعر  
على أنفسنا وخرجنا الى شي " مفسول ، وإلى كلام عامي مرذول (٣) .  
ويضيف قائلا ( فالوجه أن يكون تقدير المضاف في هذا على معنى أنه  
لو كان الكلام قد جي " به على ظاهره ولم يقصد إلى الذي ذكرنا من المبالغة  
والإتساع ، وان تجعل الناقدة كأنها قد صارت بجملتها إقبالا وإدبارا حتى  
كأنها قد تسبعت منهما لكان حقه حينئذ أن يجاء فيه بلفظ الذات فيقال :  
إنما هي ذات إقبال وإدبار : فإما أن يكون الشعر الآن موضوعا على ارادة ذلك  
وعلى تنزيله منزلة المنطوق به حتى يكون الحال فيه كالحال في ( حسبت نعام  
راحتي عناقا ) حين كان المعنى والقصد أن يقول حسبت نعام راحلتي نعام  
عناق مفما لا مساغ له عند من كان صحيح الذوق صحيح المعرفة نسابة للمعاني (٤)  
وسبق لنا أن رأينا أن ابن جنى يمد هذه الصور المجازية من المبالغة .

٥ - افادة بعض طرق القصر المبالغة :

تحدث عبد القاهر عن افادة بعض طرق القصر المبالغة فذكر أن طريق انما

- ( ١ ) المصدر السابق : ٢٣٣ ( ٢ ) سورة يوسف : ٨٢  
( ٣ ) دلائل الاعجاز : ٢٣٣ ، ٢٣٤ ( ٤ ) المصدر السابق : ٢٣٤ ، ٢٣٤

وطريق التعريف يفيد ان المبالغة في بعض الأحيان، فإنما تفيد المبالغة إذا  
ادعى في القصص أنه امر ظاهر معلوم للجميع كقول الشاعر :

( ١ ) إنما مصعب شهاب من اللـه — تجلت عن وجهه الظلماء

وهي على افادة هذا الطريق للمبالغة عندما قال : ( فأما نحو  
"إنما مصعب شهاب" فيصلح فيه أن نقول : ما مصعب إلا شهاب لأنه ليس  
من المعلوم على الصحة وإنما ادعى الشاعر فيه أنه كذلك . وإذا كان هذا  
هكذا جاز أن تتوله بالنفي وللإثبات إلا أنك تخرج المدح حينئذ عن أن يكون  
على حد المبالغة من حيث لا يكون قد ادعيت فيه أنه معلوم وأنه بحيث لا ينكره  
منكرو ولا يخالف فيه مخالف ) ( ٢ ) .

وتأتي المبالغة في طريق التعريف إذا قصرت جنس المعنى على المخبر  
عنه لقصدك المبالغة وذلك قولك : زيد هو الجواد ، وعمرو هو الشجاع :  
تريد أنه الكامل إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجواد أو الشجاع لم  
توجد إلا فيه ، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال ( ٣ ) .  
إفادة التقديم للمبالغة :

- ٦

وقد نوه عن ذلك بقوله ( فإن قلت فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر  
المحدث عنه بالفعل أكد لاثبات ذلك الفعل له ، وأن يكون قوله "هما يلبسان  
المجد" أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال : يلبسان المجد . فإن ذلك  
من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من الصوامل إلا لحدث قد نوى إسناده إليه ( ٤ )  
والذي يدل على أنه يعني في هذا الموضع ب ( أبلغ ) الدلالة على  
المبالغة ، أنه قرن ذلك بما يدل عليها وهو التخييم حيث قال ( ومن ههنا  
قالوا : إن النبي إذا أضر ثم فسركان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم  
اضار ) ( ٥ ) .

حسن التعليق :

- ٧

وقد ذكرناه في حديثنا عن أنواع التخييل عند الإمام ولا حاجة بنا  
الآن الى إعادة القول فيه .

- |       |                     |       |                     |
|-------|---------------------|-------|---------------------|
| ( ١ ) | المصدر السابق : ٢٥٥ | ( ٢ ) | المصدر السابق : ٢٥٦ |
| ( ٣ ) | المصدر السابق : ٢٣٨ | ( ٤ ) | المصدر السابق : ١٠١ |
| ( ٥ ) | المصدر السابق : ١٠٢ |       |                     |

## ٧- الزمخشري

أمام محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨ هـ . صاحب التفسير المعروف بـ ( الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ) فقد كانت دلالته على مواطن المبالغة كثيرة بسبب كثرة الآيات القرآنية والأساليب الفصيحة التي يستشهد بها في تفسيره المتمشية مع مفهوم المبالغة عنده .

ومما يجب أن ننبه إليه أن الزمخشري يستخدم لفظ " ابلغ " في كثير من الأحيان بمعنى أكثر مبالغة ، والدليل على ذلك قوله في قوله تعالى ( وإنا على ذهاب به لقادرون ) عن النكرة <sup>(١)</sup> : ( من أوقع النكرات ، آخرها للمفصل والمعنى ، على وجه من وجوه الذهاب ، وطريق من طرقه ، وفيه إيدان باقدااره ، وأنه لا يتفابي عليه شيء " إذا أراد ، وهو أبلغ في الإيعاد من قوله " قل رأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتكم بما معين " <sup>(٢)</sup> فتخصيصه الأبلغية بالإيعاد دليل على إرادته بها المبالغة ما سوغ له وجه المفاضلة بين آيتين من كتاب الله .

وقوله في قوله تعالى ( ليس كمثله شيء ) <sup>(٤)</sup> : ( قالوا مثلك لا يبخل ، فنفاوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عن بسد مسده وعن هو أخص أوصافه فقد نفوه عنه ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذم ، كان أبلغ من قولك أنت لا تخفر ، ومنه قولهم قد أيفعت لداته ، وبلغت أترابه ، يريدون إيفاعه وبلوغه ) <sup>(٥)</sup> .

ويتضح مفهوم المبالغة عنده من خلال استعراض المواضع التالية التي تحدث

فيها عن المبالغة :

- ١ - قوله في قوله تعالى " تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا " <sup>(٦)</sup> : ( تفيض من الدمع كقولهم تفيض دما ، وهو أبلغ من يفيض دمعها لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض ) <sup>(٧)</sup> .
- ٢ - قوله في قوله تعالى " بل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين " : ( وهذا كلام وارد على سبيل العرض والتمثيل لفرض ، وهو المبالغة في نفي الولد والإطراب فيه ، وألا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد وهي محال في نفسها ،

( ١ )	سورة المؤمنون : ٢٣	( ٢ )	الكشاف : ١٤١/٣
( ٣ )	سورة الطك : ٣٠	( ٤ )	الشورى : ١١
( ٥ )	الكشاف : ١٦٦/٤	( ٦ )	سورة التوبة : ٩٢
( ٧ )	الكشاف : ٢٣٦/٢		



فكان المعلق بها محالا مثلها ، فهو في صورته إثبات الكينونة والعبادة ، وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها <sup>(١)</sup> .

ففي هذين الموضعين تجدهما تدل على بلوغ الغاية في المعنى واستقصائه والتناهي فيه ، وتجدهما في بعض المواضع تدل على مبالغة نسبية أى زيادة في المعنى تتحقق عن طريق صيغة جاء عليها الكلام لا تتحقق في صيغة أقل منها ، وقد لا تعني بلوغ الغاية في المعنى والتناهي فيه ، فمن ذلك قوله في قوله تعالى " يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها " <sup>(٢)</sup> ( هو أبلغ من قولك يخرجون منها ) <sup>(٣)</sup> وقوله في قوله تعالى ( أولئك شر مكانة وأضل سبيلا ) <sup>(٤)</sup> جعلت الشرارة للمكان وهي لأهله ، وفيه مبالغة ليست في أولئك شر وأضل ، لدخوله في باب الكناية التي هي أخت المجاز <sup>(٥)</sup> وقوله في قوله تعالى " ليحطمنكم سليمان وجنوده " <sup>(٦)</sup> ( أراد ليحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ ، ونحوه عجبت من نفسي ومن إشفاقها ) <sup>(٧)</sup> .

وترتبط المبالغة عند الزمخشري بالتوكيد فهي تقترن به وأشار الى ذلك في مواضع عدة فمن ذلك قوله في قوله تعالى " يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون " <sup>(٨)</sup> .

( خطاب لمشركي مكة ، ويا حرف وضع في أصله لنداء البعيد صوت يهتف به الرجل بمن يناديه .

وأما نداء القريب فله أى والهمزة ، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بعد ، فاذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنى به جدا فان قلت فما بال الداعي يقول في جواره يا رب وهو أقرب اليه من حبل الوريد وأسمع به ، وأبصر قلت : هو استقصاره واستبعاد لها من مظان الزلفى . . . وأى وصلة الى نداء ما فيه الألف واللام . . . وهو اسم مبهم مفتقر الى ما يوضحه ويزيل ابهامه فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يتضح المقصود بالنداء . . . وفي هذا التدرج من الابهام الى التوضيح ضرب من التأكيد والتشبيه وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين : معاضدة حرف النداء ومكانفتسه بتأكيد معناه ، ووقوعها عوضا مما يستحقه أى من الإضافة . فان قلت : لمكثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكن في غيره . قلت لا استقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهي وعظاته وزواجره ووعدته ووعيده

( ١ )	الكشاف : ٢١٠ / ٤	( ٢ )	سورة المائدة : ٣٧
( ٣ )	الكشاف : ٤٢٧١	( ٤ )	سورة الفرقان : ٣٤
( ٥ )	الكشاف : ٥٠٨ / ١	( ٦ )	سورة النمل : ١٨
( ٧ )	الكشاف : ٢٨١ / ٣	( ٨ )	سورة البقرة : ٢١

واختصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطيبون  
جسام وسمان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون  
فاقتضت الحال أن ينادوا بالاكذ (الأبلغ) (١) .

وقوله في قوله تعالى " كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم " (٢) : ( فما تقول في  
كيف حيث كان إنكارا للحال التي يقع عليها كفرهم ؟ قلت حال الشيء تابعة لذاته  
فإذا امتنع ثبوت الذات اتبعه امتناع ثبوت الحال ، فكان إنكار حال الكفر لأنها تتبع ذات  
الكفر ، ورد فيها إنكارا لذات الكفر وثباتها على طريق الكناية وذلك أقوى لا إنكار الكفر  
وأبلغ (٣) فالقوة في الإنكار هي تأكيده في النفس . وإذا قال الزمخشري عن الكناية إنها  
هنا أبلغ وأقوى فقد بين تأكيدها في موضع آخر مما يدل تقارب مفهوم المعنيين ، المبالغة  
والتوكيد وتناوبهما حيث يقول في قوله تعالى " إنما يعمر مساجد الله (٤) . ( فأما  
القراءة بالجمع ففيها وجهان ، أحدهما أن يراد المسجد الحرام . . . والثاني أن يراد  
جنس المساجد ، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك ألا يعمروا المسجد  
الحرام الذي هو صدر الجنس ومقدمته ، وهو أكد ، لأن طريقته طريقة الكناية كما لو قلت  
فلان لا يقرأ كتب الله ، كنت أنفي لقراءته القرآن من تصريحك بذلك (٥) .

وأظن أن الدكتور محمد حسين أبا موسى قد لفت نظره هذا التلاؤم والاقتران  
بين المعنيين عند الزمخشري فجاء بهما أيضا متلاحمين مقترنين عندما تحدث عن عناصر  
التوكيد عند الزمخشري حيث يقول ( والمؤكدات الكثيرة لا يمكن الإحاطة بها فان كثيرا من  
طرق بناء الكلام تعطيه تقوية ووكادة . فالذكر قد يفيد توكيدا ، والحذف قد يفيد توكيدا  
والوصل والفصل ، والتكرار ، والاعتراض ، والالتفات وصور التشبيه والاستعارة وأنواع  
المجاز والكناية كل هذه وغيرها تفيد أنواعا من التوكيد والمبالغة في تثبيت المعنى أو نفيه (٦)  
ومن هنا كانت طرق المبالغة عنده متعددة ومتنوعة تعدد وتنوع عناصر بلوغ الغاية  
في المعنى ، والزيادة فيه ، وتوكيده وسنشير هنا الى بعض طرقها ومواضعها من كتابه  
الكشاف .

١ - التشبيه : تحدث الزمخشري في ثنايا تفسيره عن بعض صور التشبيه وإفادتها  
المبالغة فأشار الى ذلك في تفسيره لقوله تعالى ( طلعتها كأنه رؤوس الشياطين ) (٧)  
حيث يقول ( وشبه رؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة ، وقبح المنظر ،  
لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لا اعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير

( ١ )	الكشاف : ٦٨ / ١	( ٢ )	سورة البقرة : ٢٨
( ٣ )	الكشاف : ٧٧ / ١	( ٤ )	سورة التوبة : ١٨
( ٥ )	الكشاف : ١٩٨ / ٢	( ٦ )	البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٤٥
( ٧ )	سورة الصافات : ٦٥		

فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان ، كأنه رأس شيطان ، وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدرون وأهوله <sup>(١)</sup> . وقال في قوله تعالى ( ان أنكر الأصوات لصوت الحمير ) <sup>(٢)</sup> . . . . ( فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، ثم إخلاص الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراجه مخرج الاستعارة وإن جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا ، مبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التشييط عن رفع الصوت ) <sup>(٣)</sup> .

و التشبيه المقلوب كذلك كان عنده طريقين طرق المبالغة كما نص على ذلك في تفسيره لقوله تعالى " إنما البيع مثل الربا " <sup>(٤)</sup> . <sup>(٥)</sup> .

وكذلك كانت القيود في التشبيه عناصر من عناصر المبالغة في المعنى وتوكيده فمن ذلك تفسيره لقوله تعالى " مثل ما ينفقون في الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته " <sup>(٦)</sup> حيث يقول : ( وشبه بحرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلك عقوبة لهم على معصيتهم لأن الهلاك من سخط أسوأ وأبلغ ) <sup>(٧)</sup> وأشار إلى ذلك أيضا في تفسيره لقوله تعالى " وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة " <sup>(٨)</sup> .

٢ - الاستعارة : وجرى فيها على سنن من سبقوه في إفادتها المبالغة ونص على أنها أبلغ من التشبيه <sup>(٩)</sup> .

٣ - بعض صور التمثيل والتخييل : ولا يعنينا هنا التفريق بينهما الذي أشار إليه الدكتور محمد حسين أبو موسى <sup>(١٠)</sup> . وإنما الذي يعنينا كون بعض هذه الصور تأتي للمبالغة فمن ذلك التشبيه في قوله تعالى ( طلعتها كأنه رؤوس الشياطين ) <sup>(١١)</sup> والتمثيل في قوله تعالى ( أنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، واشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ) <sup>(١٢)</sup> وجعل منه قوله تعالى " لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ) <sup>(١٣)</sup> حيث يقول : ( من باب التخييل : خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوما -

( ٢ )	سورة لقمان : ١٩	( ١ )	الكشاف : ٤٧ / ٣
( ٤ )	المصدر السابق : ٢٤٥ / ١	( ٣ )	الكشاف :
( ٦ )	سورة آل عمران : ١١٧	( ٥ )	سورة البقرة : ٢٧٥
( ٨ )	سورة المنافقون : ٤ وانظر الكشاف ٣٢ / ٤	( ٧ )	الكشاف : ٣١١ / ١
( ١٠ )	البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٣٥ - ٤٣٩	( ٩ )	الكشاف : ١٧٤ / ١ ، ١٧٥
( ١٢ )	سورة الأحزاب	( ١١ )	سورة الصافات : ٦٥
		( ١٣ )	المجادلة : ٢٢

مؤمنين يوالون المشركين ، والفرغى به انه لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد له حال ، مبالغة في النهى عنه ، والزجر عن ملاسته (١) .

وكذلك كان تعليق جواب الشرط على ثبوت صحة الشرط المفترض تمثيلا جي \* به لفرغى المبالغة إذ يقول في قوله تعالى " قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين " (٢) وهذا كلام وارد على سبيل الغرض والتمثيل لغرض . وهو المبالغة في نفي الولد والأطناب فيه ، وألا يترك الناطق به شبهة إلا مضحكة ، مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد (٣) .

وبقي أن نقول إن ما أطلق عليه الحاتمي الفلوم نحو المخاطبة مالا يعقل أو تكلمه نجاه عند الزمخشري واقعا تحت باب التخويل فمن قبلك قوله في قوله تعالى " فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين " (٤) . ( ومعنى أمر السماء والأرض بالأتين وامتثالهما أنه أراد تكوينهما فلم يمتصفا عليه ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالأموار المطيع إذا ورد عليه فعمل الأمر المطاع وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل . ويجوز أن يكون تخيلا ، ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما ائتيا على الطوع لا على الكره ، والفرغى تصوير أثر قدرته في المقدرات لا غير من غير أن يحقق شي \* من الخطاب والجواب ، ونحوه قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقني ؟ قال الودت أسأل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي ) (٥) . ومقارنة الحقيقة في الكلمة الإلهية التي تم بها تكوين الكون بهذه الحكاية المتخيلة في هذا المثال المصطنع أمر فيه كثير من التعميط وتجنى منطق العقل البشرى على الكتاب الكريم .

٤ - الكناية : وقد أشار إلى إفادتها المبالغة في كثير من المواضع فمن ذلك تفسيره لقوله تعالى " كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم " (٦) الذي ذكرنا منه سابقا الجزء الخاص بالمبالغة .

وتفسير قوله تعالى " إنما يعمر مساجد الله . . . " (٧) وتفسير قوله تعالى " أولئك شر مكانا وأضل سبيلا " (٨) وقد ذكرنا جانب المبالغة الذي ذكره في هاتين الآيتين .

٥ - المجاز الحكمي : وأشار إلى إفادته المبالغة في عدة مواضع منها ما ذكره أستاذ

- |       |                                     |       |                                      |
|-------|-------------------------------------|-------|--------------------------------------|
| ( ١ ) | الكشاف : ٣٩٦/٤                      | ( ٢ ) | سورة الزخرف : ٨١                     |
| ( ٢ ) | الكشاف : ٢١٠، ٢٠٩/٤                 | ( ٤ ) | سورة فصلت : ١١                       |
| ( ٥ ) | الكشاف : ١٤٨/٤                      | ( ٦ ) | سورة البقرة : ٢٨ وانظر الكشاف ٩١/١   |
| ( ٧ ) | سورة التوبة : ١٨ وانظر الكشاف ١٩٨/٢ | ( ٨ ) | سورة الفرقان : ٣٤ وانظر الكشاف ٥٠٨/١ |

تفسير قوله تعالى " تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً " (١) . وتفسير قوله تعالى " صفراء فاقع لونها " (٢) وتفسير قوله تعالى " وكذلك سلكتنا في قلوب المحرمين " (٣) وجماع ذلك ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى " ختم الله على قلوبهم " (٤) حيث قال في ذلك ( . . . . ) ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله لله فيكون الختم مسنداً الى اسم الله على سبيل المجاز ، وهو لغيره حقيقة ، تفسير هذا أن للله ملابسات شتى يلبس الفاعل ، والمفعول به ، والمصدر ، والزمان والمكان والسبب ، فاسناده الى الفاعل حقيقة ، وقد يسند الى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة ، وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابسة الفعل كما يضاهي الرجل الأسد في جراته ، فيستعار إليه اسمه ، فيقول في المفعول به عيشة راضية ، وما دافق ، وفي عكسه سيل مغمم ، وفي المصدر شعر شاعر ، وذيل ذائل ، وفي الزمان نهاره صائم ، وليله قائم ، وفي المكان طريق سائر ونهر جار . . . . ) وفي المسبب بني الأمير المدينة (٥) وعلى هذا الطريق الأخير قال ( فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذي أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل الى السبب ) (٦) . وهكذا كان كل ما رأى فيه زيادة في توكيد المعنى ، أو تقريره ، أو اشعار للاهتمام فيه بشي . دون آخر ، كل ما كان كذلك أشار الزمخشري الى افادته المبالغة فيذكر أنك هناك مبالغة في نفي الأخص حيث يقول في قوله تعالى ( قال الملأ من قومه : إنا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين ) (٧) . ( فان قلت لم قال ليس بي ضلالة ، ولم يقل ضلال كما قالوا ؟ قلت : الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كأنه قال ليس بي شي من الضلال كما لو قيل لك أنك تمر فقلت مالي تمره ) (٨) . ويذكر أن هناك مبالغة في الاستفهام في قوله تعالى ( فهل أنتم منتهون ) (٩) حيث يقول عن هذا الاستفهام ( من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل قد تلي عليكم ما فيها من أنواع العجز والعوالموانع ، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا ) (١٠) .

- 
- ( ١ ) سورة التوبة : ٩٢ وانظر الكشاف : ( ٢٣٦ / ٢ ) .  
( ٢ ) سورة البقرة : ٦٩ وانظر الكشاف : ( ١١٢ / ١ ) .  
( ٣ ) سورة الشعراء : ٢٠٠ وانظر الكشاف : ( ١٠ / ٣ ) .  
( ٤ ) سورة البقرة : ٧ الكشاف : ( ٣٩ / ١ ) ، ٤٠ .  
( ٥ ) الكشاف : ( ٤٠ / ١ ) سورة الاعراف : ( ٧ ) .  
( ٦ ) الكشاف : ( ٨٩ / ٢ ) ، ٩٠ سورة المائدة : ( ٩ ) .  
( ٧ ) الكشاف : ( ٥٢٦ / ١ ) .

وقد أشار الدكتور محمد حسين أبو موسى الى رؤية الزمخشري المبالغة في مثل هذا النوع من الاستفهام .

وذكر الزمخشري أيضا أن هناك مبالغة في الأمر في قوله تعالى ( ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون ) (٢١) وقد أشار الى ذلك الدكتور محمد حسين أبو موسى حيث قال ( ومن معاني صيغة الأمر الدلالة على تناهي السخط من الأمر وذلك إذا كان الأمر به غير مرغوب فيه ) (٢) كما - في هذه الآية - ويضيف ( قال الزمخشري : فان قلت كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه ؟ قلت هو مجاز عن الخذلان والتخلية وأن ذلك الأمر متسخط الى غاية ، ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر وعندك أن ذلك الأمر خطأ ، وأنه يؤدي الى ضرر عظيم ، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه ، فاذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم جردت عليه وقلت أنت وشأنك وافعل ما شئت ، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر ، وكيف والأمر بالشيء مريد له ، وأنت شديد الكراهية متحسر ، ولكنك كأنك تقول له ، فإن قد أبيت قبول النصيحة ، فأنت أهل ليقال لك افعل ما شئت وتبعث عليه ، ليتبين لك اذا فعلت صحة رأيي الناصح وفساد رأيك ) (٤) .

وذكر أيضا أن هناك مبالغة في النداء مثل قوله تعالى ( يا أيها الناس اعبدا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ) (٥) . وقد تقلبنا أنفا كلامه في هذه الآية . وإذا كانت المبالغة قرينة التوكيد فمن الطبيعي أن تأتي بعض المؤكدات للمبالغة كما أشار الى ذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى ( وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم . . الآية ) (٦) حيث يقول ( فان قلت : لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالاسمية محققة بأن ؟ قلت ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرا بأقوى الكلامين وأؤكد هما ، لأنهم في ادعاء حدوث الايمان منهم ونشئه من قبلهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الايمان غير متشويق فيه غبارهم ، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعد هم عليه إذ ليس من عقائدهم باعث ومحرك . وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية ، وصدق رغبة واعتقاد ، واما لأنه لا يروح عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة ) (٧) .

- 
- ( ١ ) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٢٩٦ ( ٢ ) سورة العنكبوت : ٦٦  
( ٣ ) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٠٧  
( ٤ ) المرجع السابق : ٣٠٧ ، ٣٠٨ وانظر تفسير الكشاف ٣٦٥/٣ .  
( ٥ ) سورة البقرة : ٢١  
( ٦ ) سورة البقرة : ١٤  
( ٧ ) الكشاف : ٥٠/١

## المبالغة عند المتأخرين

تناولت في الفصلين السابقين تطور المبالغة عند الملطاء على اختلاف اتجاهاتهم ، ما بين لغوي ، وناقد ، وأديب ، ومفسر ، ومتكلم ، حتى يتبين من ذلك كيف كان مفهومها عند هم ، وكيف استفادوا منها في أبحاثهم ، وكيف تلونت بأبحاثهم واتجاهاتهم ، وسيتناولها البحث الآن عند البلاغيين المتأخرين ، وسيكون التناول كما سبق من عرض لمصطلحاتها ، وما يدخل تحتها ، وكيفية فهمها ، تاركا بيان الموقف منها الى مكان آخر من هذا البحث .

وهذا العصر الذي يضم هؤلاء البلاغيين المتأخرين هو عصر السكالي ومدارسته وسنقف فيه على ابن الأثير والعلوي ، ذلك لأنهما وإن كانا في عصر السكالي إلا أن لكل منهما وجهة مستقلة في المنهج البلاغي ، عن السكالي ومن لف لفه ، لذلك حرص البحث على معرفة مفهوم المبالغة عندنا ، وعند مدرسة السكالي حتى نكون على ما كانت عليه في مختلف الاتجاهات .

## ١ - ابن الأثير

يشمل ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ من الهجرة ، اتجاهها نقديا بلاغيا ، يمتزج بالأدب ، وهذا الاتجاه امتداد لاتجاه كثير من النقاد قبله كأبي هلال في القرن الرابع الهجري ، وابن رشيق ، وابن سنان في القرن الخامس الهجري - وقد كان في كتابه المثل السائر أشبه بأبي هلال ، إذ كان يتخذ ( في تأليفه النقدي منهجا قريبا من منهج أبي هلال في الصناعتين ، إذ يقسم الكتاب الى مقدمة في البيان ، وأدواته بصفة عامة ، ثم يقسم الكلام فيه الى مثالين أولهما في الصنعة اللفظية ، والثاني في الصنعة المعنوية ) (١) .

ومفهوم المبالغة عنده ، ليس فيه كبير اختلاف عن كثير من سبقه فلقد جعل من المبالغة التكرير بالمعنى دون اللفظ في مثل قوله تعالى ( قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم انا براء منكم وما تعبدون دون الله ، كفرنا بكم ودا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ) (٢) حيث قال ( فان البغضاء والعداوة بمعنى واحد ، وإيها حسن إيرادها معا في معرض

(١) ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد : ٧٥

(٢) سورة الممتحنة آية (٤) . (٣) ابن الأثير ، المثل السائر ، ١١٦ / ١١٧ ، ١١٧ / ١١٨ .

ابن الأثير ، المثل السائر ، ١١٦ / ١١٧ ، ١١٧ / ١١٨ .

واحد لتأكيد البراءة بين إبراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به ، وبين الكفار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده ، وللمبالغة في اظهار القطيعة والمصارمة <sup>(١)</sup> والى مثل ذلك أشار في قوله تعالى ( فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير ) <sup>(٢)</sup> حيث قال في ذلك ( فقوله ( غير يسير ) بعد قوله ( عسير ) من هذا النوع المشار اليه ، والا فقد علم أن العسير لا يكون يسيرا ، وإنما ذكر ههنا على هذا الوجه ، لتعظيم شأن ذلك اليوم في عسره وشدته على الكافرين ) <sup>(٣)</sup> وجعل منها أيضا التكرير باللفظ في مثل قول أبي الطيب :

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثم اسلمى ثلاث تحيات وان لم تكلمني

حيث يقول عنه ( وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة ، وكل هذا يجاء به

لتقرير المعنى المراد إثباته ) <sup>(٤)</sup> .

وهذه الأمثلة واقعة عنده في القسم المفيد من التكرير ، الذي عله بالمبالغة حيث يقول ( واعلم أن المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيد له ، وتشبيها من أمره وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك ، أما مبالغة في مدحه أو في ذمه ، أو غير ذلك . ولا يأتي إلا في أحد طرفي الشيء المقصود بالذكر ، والوسط عار منه ، لأن أحد الطرفين هو المقصود بالمبالغة إما بمدح أو ذم أو غيرهما ، والوسط ليس من شرط المبالغة ) <sup>(٥)</sup> وتحدث كذلك عن المبالغة في الكلمة المفردة عند حديثه عن " قوة اللفظ لقوة المعنى " . الذي رأيناه عند ابن جنى ورأينا جذوره عند الخليل وسيبويه فقال ( أعلم أن اللفظ اذا كان على وزن من الأوزان ، ثم نقل الى وزن آخر أكثر منه ، فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا . لأن الألفاظ أدلة على المعاني ، وأمثلة للإبانة عنها ، فاذا زيد في الألفاظ أو حيت القسمة زيادة المعاني ، وهذا لا نزاع فيه لبيان ، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة ) <sup>(٦)</sup> . ومثل لذلك بخشن واخشوشن ، وقدر واقندر ، وقال في قوله تعالى ( فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ) <sup>(٧)</sup> : ( فإن غفارا أبلغ في المغفرة من غفر لأن فعلا يدل على كثرة صدور الفعل وفعلا لا يدل على الكثرة ) <sup>(٨)</sup> ولقد أشار الى سابق ابن جنى عليه في التنبيه الى هذا <sup>(٩)</sup> .

وفهم ابن الأثير للمبالغة كما يظهر ما سبق بيين لنا أنه يفهمها بمفهومها

الأصيل في اللفظة . وأنها تجيء للدلالة على بلوغ الغاية ، والنهية فيما يراد قوله .

( ١ ) المثل السائر : ١٧٧/٢ ، ١٧٨ ويلاحظ أن ابن الأثير جعل العداوة والبغضاء

بمعنى واحد وليس هما كذلك . ( ٢ ) سورة المدثر : ٨ - ١٠

( ٣ ) المثل السائر : ١٧٧/٢ ( ٤ ) المصدر السابق : ١٦٢/٢

( ٥ ) المصدر السابق : ١٥٨/٢ ( ٦ ) المصدر السابق : ٦٠/٢

( ٧ ) سورة نوح : ١٠ ( ٨ ) المثل السائر : ٦١/٢

( ٩ ) المصدر السابق : ٦٠/٢



ولقد صرح ابن الأثير بإفادة التشبيه للمبالغة بل إنه ربط جميع أغراضه بها فقال ( والقول السديد في بلاغة التشبيه هو ما ذكره . وهو أن اطلاق من أطلق قوله في أن من شروط بلاغة التشبيه أن يشبه الأصغر بالأكبر غير سديد ، فان هذا قول غير حاصر للغرض المقصود ، لأن التشبيه يأتي تارة في معرض المدح ، وتارة في معرض الذم ، وتارة في غير معرض أولاً ذم وإنما يأتي قصداً للإبانة والإيضاح ، ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر كما ذهب إليه من ذهب . بل القول الجامع في ذلك أن يقال : إن التشبيه لا يعمد إليه إلا لضرب من المبالغة ، فإما أن يكون مدحاً ، أو ذمماً ، أو بياناً وإيضاحاً ولا يخرج عن هذه المعاني الثلاثة . وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من تقدير لفظة أفعل ، فان لم تقدر فيه لفظة أفعل فليس بتشبيه بليغ ، ألا ترى أننا نقول في التشبيه المضمرة الأداة ( زيد أسد ) فقد شبهنا زيدا بأسد الذي هو أشجع منه ، فان لم يكن المشبه به في هذا المقام أشجع من زيد الذي هو المشبه ، وإلا كان التشبيه ناقصاً ان لا مبالغة فيه ) (١) .

وابن الأثير الذي استعمل لفظ المبالغة في معناه الأصيل ، لا يستخدم هذا اللفظ فيما رأى أنه فيه إسرافاً وتجاوزاً للحد بل يستخدم في ذلك " الإفراط " الذي قرنه بالغلو وقد سبق أن رأينا مثل ذلك عند أبي هلال والشعالبي ، وابن رشبة . فهو يقول عن الإفراط : ( هو الإسراف وتجاوز الحد ، يقال : أفراط في الشيء . أسرف وتجاوز الحد ) (٢) وإذا نقله إلى علم البيان يجعله ضداً للتفريط فيقول ( أما التفريط والإفراط فهما ضدان أحدهما : أن يكون المعنى المضمرة في العبارة ، دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه . والآخر أن يكون المعنى فوق منزلته ) (٣) . وما يدل على تخصيصه الإفراط بما تجاوز الحد أو كان المعنى فيه فوق منزلته عدم اطلاقه على الله سبحانه وتعالى لأنه مهما ذكر به من المعاملات في صفاته فإنه دون ما يستحقه . وأما المبالغة فلأنها لا تصل إلى هذه الدرجة المتجاوزة للنهاية والغاية فقد أطلقها على صفات الله سبحانه وتعالى كما رأينا أثناء حديثه عن المبالغة في اللفظة المفردة . وما حكم عليه بالإفراط والغلو والمقالة قول عنتره :

وأنا المنية في المواطن كلها

والطمس مني سابق الآجال

وقال ( وقد يروى بالهاء ، وكلا المعنيين حسن ، إلا أن الياء أكثر غلوا ) (٥)

وقال عن أبي الطيب المتنبى :

( وقد استعمل أبو الطيب المتنبى هذا القسم في شعره كثيراً ، فأحسن في

(١) المصدر السابق : ٣٩٦ ، ٣٩٧ (٢) المصدر السابق : ٣١٦ / ٢

(٣) المصدر السابق : ٣١٦ / ٢ (٤) المصدر السابق : ٣٣٢ / ٢

(٥) المصدر السابق : ٣٣٢ / ٢

مواضع منه فمن ذلك قوله :

عجاها تمثر المقبان فيسه <sup>١</sup> كأن الجووعث أو خبار

ثم أعاد هذا المعنى في موضع آخر فقال :

عقد سنايكها عليها عشيرا لو تبتغي عنقا عليه لأمنا

• وهذا أكثر مغالاة من الأول (١٢)

---

( ١ ) الوعث من الأرض : السهل الكثير الرمل ، الخبار : الأرض اللينة ( التباوضي

شرح الديوان : ١٠٣ / ٢ )

( ٢ ) المثل السائر : ٢ / ٤٣٤ ، ٣٣٥

إنَّ هذه المدرسة التي تبتدىء بالسكاكي ، ويمتد بتيارها الخطيب القزويني وشراح التلخيص من بعده لتتحمل مسئولية كبيرة في انحسار البلاغة ، إذ أنها ابتداءً من السكاكي قد غمست قواعد البلاغة في بحار من العلوم العقلية من منطق وفلسفة وجرت في ذلك إلى غاية بعيدة المدى ، كانت أولى الخطوات الواسعة — بعد قدامة — في النزول بالبلاغة إلى هذا الدرك الشائن الذي هي عليه الآن وقد صادفت هذه الطريقة رواجا عظيم المتأخرين حتى يخيل إليك وأنت تقرأها أنك أمام عدة علوم قوامها المنطق والفلسفة وعلم الكلام . وما إليها<sup>(١)</sup> ويصور لنا الدكتور أحمد إبراهيم موسى ما لقيه البديع وأخوه المعاني والبيان على يد هذه المدرسة بقوله ( فلما كانت أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، أخذ البديع — كزميليه ينحدر رويدا رويدا ، إلى هاوية الإسفاف ، والانحطاط ، ويفقد صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الإشراق والإعجاب ، ويتعثر في قيود ضيقة قد هالته المنطق والفلسفة ، حتى صار هم العلماء تعدد ألوانه والاكتفاء بتحديد ما تحدد الكلمات اللغوية ، وسوق الأمثلة التقليدية التي يتوارثونها لكابر عن كابر حتى أصبحت الكتب الكثيرة التي ألفت فيه بعد السكاكي كأنها كتاب واحد ، فمن وقف على أحدها غنى به عما عداه . . . وقد زاده تعثرا على مر الزمن وقوعه فريسة للشراح والمقررين الذين يرون أن الحدق والتمهرا إنما يظهران في العناية ، بالجدل الذي لا يفيد ، وافتراض الاعتراضات والشبه ، ثم الاشتطاط في الإجابة عليها مما قضى على البديع ، وذهب بروعته الأدبية وأورده موارد العقم والجمود )<sup>(٢)</sup> .

ومن هنا فإننا لا نتوقع أن نرى عند هذه المدرسة فهما جديدا للمبالغة ، بل على العكس من ذلك نجد عندها تضييقا لها وحصرا في دائرة الإدعاء والكذب والتجاوز والاستحالة ، إذ خضعت لتقسيم منطقي يربطها بالواقع والعادة إذ عرفها الخطيب بقوله ( والمبالغة أن يدعي لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف )<sup>(٣)</sup> وحصرها في التبليغ والإغراق ، والفلو ، فقال ( وتتحصر في التبليغ ، والإغراق ، والفلو لأن المدعى إن كان ممكنا عقلا وعادة فتبليغ كقوله :

فعداى عداى بين شور ونمجة دراكا فلم ينضح بما فيفسل

وإن كان ممكنا عقلا لا عادة فإغراق كقوله :

(١) الصبغ البديعي : ٢٤٦ ، ٢٤٧ (٢) المرجع السابق : ٢٤٣

(٣) الإيضاح ضمن شروح التلخيص : ٣٥٨/٤

ونتممه الكرامة حيث مالا

ونكرم جارنا ما دام فينا

وهما مقبولان ، وإلا فغلو كقوله :

( ١ ) تخافك النطف التي لم تخلق

وأخفت أهل الشرك حتى إنه

وسنعود إلى مناقشة هذا التقسيم ، وما بنى عليه . عندما نتناول المبالغة

في البديع بإذن الله ، وحصر المبالغة وأنواعها في البديع ، وحملها على الإدعاء

والتجوز جعل أحد أعلام هذه المدرسة وهو البهاء السبكي ، يحمل المبالغة في اللفظة

المفردة على المجاز ويجعل المبالغة فيها مصطلحا خاصا باللغويين والنحاة فهو يقول

( ما ذكر المصنف من المعالجات هو فيما يتعلق بالمركبات ، وذكر جماعة المبالغة على

وجه يعم المفرد والمركب ، فقال الرماني : ( المبالغة على ضرب منها : المبالغة في

الصفة المعدولة غير الجارية فانها جاءت على فعلان ، وفعل ، وفعل ، وفعل ، وفعل ،

ومفعل معدول عن فاعل مثل مدعي عن داعسيه ، ومطمئن عن طاعن ، ومفعل مثل

مطمئنا ، وزاد عبد اللطيف البغدادي في قوانين البلاغة فزاد فيها مفعل وفعل ،

وفعل وفعل في النداء مثل يا كع ، وبالكاع ، قال الجاحظ ( قالوا لفارس شجاع ،

فان زاد قليلا قالوا : بطل ، فان زاد قالوا : بهمة ، فان زاد قالوا كمي ، فان

زاد قالوا صنديد ، فان بلغ الغاية قالوا أليس ، وكذلك يجري الحال في سائر

الطبقات مثل الكريم والحليم والبخيل والعالم والجاهل ) . ويضيف السبكي قائلا

( وقد ذكر الثعالبي في فقه اللغة كثيرا من هذا النوع ، وذكر ابن الشجري من الأمثلة

المحولة للمبالغة فعل وفعل ومفعل ، وذكر أيضا مفعلان في النداء مثل يا مكذبان

ويا مكلمان وما ذكرناه من صيغ المبالغة ليس مقتصرًا عليه كما أفهمه كلامهما ، فان للعرب

أوزانًا لا تكاد تستعمل إلا للمبالغة مثل فعل وفعل مثل سكيت ، وفعله مثل همزة

لمزة ( ٢ ) ويضيف مخرجا هذه المفردات من المبالغة قائلا ( وأما ذكر هذه الصيغ من

أنواع المعالجات ففيه نظر لأن معنى كون هذه الألفاظ للمبالغة أن العرب وضعت

لذلك المعنى يقيد كونه كثيرا فوصفت العرب راحما ليفيد أصل الرحمة ، ووصفت راحيما

ليفيد رحمة كثيرة ، فرحيم معناه راحم كثيرا فالمعنى المستفاد منه أبلغ من المعنى

المستفاد من صيغة راحم ، وهذا المعنى ليس هو المذكور في علم البديع ، لأن المبالغة

في البديع أن تدعى لوصف بلوغه في الشدة والضعف لحد مستحيل أو مستبعد ليعلم

بذلك أن مبناه في أحدهما فلا بد فيه حينئذ من التعبير عن الواقع من تلك الصفة

بعبارة موضوعة لأكثر منه على سبيل المجاز ، فأنت إذا قلت عن شخص كثير الرحمة هو

( ١ ) المصدر السابق : ٣٥٩/٤ ، ٣٦١

( ٢ ) عروس الافراح ضمن شروح التلخيص : ٣٦٧/٤

رحيم . فهذه ليست مبالغة لأنك أخبرت عنه باشماله من الصفة على الكثرة التي هي موضوع رحيم ، كما أنك إذا قلت عنه أنه كثير الرحمة لم تتبالغ ، وكما أنك إذا قلت عندي ألف ليس فيه مبالغة بالنسبة إلى من قال عندي واحد ، ولأبني في المبالغة من تجاوز . نعم تحسن المبالغة إذا قلت زيد رحيم ولم يكن كثير الرحمة بل أردت أن تتبالغ في الرحمة اليسيرة الواقعة منه لفرض من الأغراض ، فهذه حينئذ مبالغة ، وكذلك إذا قلت عندي ألف رجل ، وأردت مائة تعظيما لهم ، فقد تبين بذلك أن هذه الألفاظ ليست موضوعة للمبالغة الهدية ، وأن من يطلق عليه المبالغة فذلك بحسب اصطلاح النحاة واللغويين نظرا إلى ما دل عليه بالنسبة إلى ما دل عليه مطلق اسم الفاعل فليتأمل ( ١ ) .

وقد دعاه هذا المفهوم للمبالغة الذي يقرنها بالادعاء والتزويد أن يقول ( سمعت بعض المشايخ يقول إن صفات الله تعالى التي هي على صيغة المبالغة كغفار ورحيم وغفور ومنان كلها مجازات وهي موضوعة للمبالغة ، ولا مبالغة فيها لأن المبالغة أن يثبت للشيء أكثر مما له ، وصفات الله تعالى متناهية في الكمال ، لا تمكن المبالغة فيها ، والمبالغة أيضا تكون في صفات تقبل الزيادة والنقص وصفات الله تعالى منزهة عن ذلك ، وعرضت هذا الكلام على الوالد فاستحسنه ، ولا شك أن هذا إنما يأتي تفريفا على أن هذه الأسماء صفات ، فإن قلنا أعلام فلا يرد السؤال ، لأن العلم لا يقصد مدلوله الأصلي من مبالغة ولا غيرها ، وسمعت بعض أهل العلم يقول ، إنما لم يوجد لكثير من الشعراء المسلمين كثير من الشعر يمدحون به رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الشعراء إنما يحسن بالمبالغة ، وهي متعذرة في حقه صلى الله عليه وسلم لأن المادحين وإن بذلوا جهدهم لا يصلون إلى قطرة من بحر عليه أفضل الصلاة والسلام ) ( ٢ ) .

ومبنى هذا الكلام يقوم على التناهي عن مفهوم المبالغة الأصلي في الدلالة على الوصول إلى الغاية ، والتناهي في أداء المعنى ، إلى التجاوز بها عن النهاية والغاية إلى الكذب والإدعاء ، والإسراف .

( ١ ) المصدر السابق ٣٦٧/٤ ، ٣٦٨

( ٢ ) المصدر السابق : ٣٦٨/٤

## ٣ - الإمام العلوي

وأما أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي المتوفي سنة ٢٤٥ هـ. فنحن نذكره هنا ، لأنه صاحب بحث مستقل في كتابه الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ، وحقائق علوم الإعجاز لم يعتمد فيه على المفتاح ، وإنما كانت له مصادر أخرى أشار إليها - وإن كان بعضها يمثل أصولا لمفتاح العلوم الذي قام عليه التلخيص وشروحه - لنرى الى أي حد وصلت المبالغة عنده ؟ هل انحصرت في الإدعاء والإفراط والتجوز ؟ كما رأينا عند مدرسة التلخيص ، أو أنها لا زالت تحمل شيئا من دلالتها الأصلية في بلوغ الغاية والوصول إلى النهاية كما رأينا عند كثير من العلماء السابقين الذين سبقت الإشارة إليهم ؟ !

لقد حاول الإمام العلوي أن يظهر لنا من خلال مقدمة كتابه . أنه يتخذ في التأليف البلاغي منهاجاً وسطاً بين من يخلطون مباحثهم البلاغية بالأدب ، وبين من يخصصونها ، ويقررون قواعد لها ، ويحصرن أمثلتها حيث قال عن منهج تينك الفئتين ( فمنهم من بسط كلامه فيه نهاية البسط ، وغلط فيه ما ليس منه فكان آفته الإملال ، ومنهم من أوجز فيه غاية الإيجاز ، وحذف منه بعض مقاصده فكان آفته الإخلال ) وأشار إلى أنه طالع من الدواوين المؤلفة فيه أربعة كتب هي : المثل السائر للشيخ أبي الفتح نصر بن عبد الكريم المصروف بابن الأثير .

وكتاب التبيان للشيخ عبد الواحد بن عبد الكريم ، وكتاب " النهاية " لابن الخطيب الرازي ، وكتاب " المصباح " لابن سراج المالكي .

وأشار إلى مكانة الإمام عبد القاهر في علم البيان وأنه أول من أسس من هذا العلم قواعده ، وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ، ورتب أفانينه ، وقال عن كتابيه ( وله من المصنفات فيه كتابان ، أحدهما لقبه " بدلائل الإعجاز " والآخر لقبه " بأسرار البلاغة " ولم أقف على شيء منهما مع شغفي بحبيهما ، وشدة إعجابي بهما ، إلا ما نقله العلماء في تعاليقهم منهما ) (١) .

ولقد حمل في كتابه هذا على الذين يخلطون المنطق بعلم البيان قائلاً " فإن موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، ومعرفة أساليبيهما ، وهما بمعزل عن المنطق ، فلا ينبغي أن يمزج أحدهما بالآخر لاختلاف حقائقهما ) (٢) .

وأما منهجه في المبالغة فقد كان فيه قريباً من منهج مدرسة التلخيص إذ عدها من أنواع البدع فيما يتعلق بالفصاحة المعنوية تماماً كما فعلت مدرسة التلخيص

وعزفها تعريفا مقاربا لتعريفهم قائلًا بأنها في مصطلح علماء البيان ( هي أن تثبت للشئ<sup>١</sup> وصفًا من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غيره ، إما على جهة الإمكان ، أو التمتع أو الاستحالة ) وعندما جاء إلى ذكر أنواعها ربطها بالإدعاء كما فعلوا ، وقسمها إلى أقسامها الثلاثة عندهم ، من تليغ ، وإغراق ، وغلو ، مستبدلاً التليغ بالمبالغة فقال " اعلم ان المبالغة ترجع حقيقة أمرها إلى دعوى المتكلم للوصف اشتدادا فيمضي سبق من أجله على مقدار فوق ما يسلمه العقل ، ويستقر به ، ثم ذلك المقدار في نفسه إما أن يكون ممكنا أو غير ممكن ، والممكن إما أن يكون واقعا أو غير واقع ، فدعوى كون الوصف على مقدار مستبعد يصح وقوعه عادة ويسمى مبالغة ، ودعوى كون الوصف على مقدار ممكن يمتنع وقوعه عادة ، يسمى إغراقا ، ودعوى كون الوصف على مقدار غير ممكن يسمى غلوا (١) ، ولقد جعل ما يستبعد في العقل ويصح وقوعه قوله تعالى ( واخفض لهما جناح الذل من الرحمة (٢) وقوله عز وجل ( فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ) (٣) ولست أدري ما الذي دعاه إلى ربط المبالغة بالإدعاء والاستيحاء الفظلي - ومن ثم ادخل استعارات القرآن الكريم في هذا الحكم - مع أن في دلالة المبالغة الأصلية في اللغة والتي قال عنها ( وهي مصدر من قولك : بالفت في الشيء مبالغة إذا بلغت أقصى الغرض منه ) (٤) مندوحة له عن هذا الحكم الجائر على أي الكتاب العزيز ، وقصر بالمبالغة فيها عن الإسراف والإفراط في حدود أقصى الغرض وغايته ، مع إن المبالغة ليست وظيفة الاستعارة الوحيدة وليست هي الوظيفة التي نركن إليها ، ونستريح من عناء البحث في الاستعارة كما سنرى في الفصول القادمة وأما ما ادخله تحت المبالغة من أساليب فقد حصره في طرق ثلاث :

الطريق الأولى :

=====

استعمال اللفظ في غير ما وضع في الأصل وجعل من ذلك الاستعارة ، والكناية والتشثيل قال في هذا الطريق ( أن يستعمل اللفظ في غير ما وضع له في الأصل إما على جهة الاستعارة أو الكناية ، أو التشثيل . . . فإنه إنما استعمل فيها على تلك الأوجه من أجل المبالغة في معناها ، فإن قولنا : مررت بالرجل الأسد يخالف قولنا مررت بالرجل الشجاع البالغ في الشجاعة كل مبلغ ، وما ذاك إلا لما فيه من المبالغة بكونه مجازا ) (٥) .

(١) المصدر السابق : ١٢٥/٣ (٢) سورة الاسراء : ٢٤

(٣) سورة النحل : ١١٢ (٤) الطراز : ١١٦/٣

(٥) المصدر السابق : ١٢٢/٣

## الطريق الثانية :

=====

وأما الطريق الثانية فقال فيها ( أن ترادف الصفات وتكون متكررة لإعظام حال الموصوف ، ورفع شأنه ، ومن أجل قصد التحويل في المعنى المقصود وإشادة أمره من مدح أو ذم )<sup>(١)</sup> . وجعل من ذلك قوله تعالى ( الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور )<sup>(٢)</sup> . وعلق بقوله ( فانظر إلى تعدد هذه الجمل ، ومبنيها من غير حرف عطف ، كيف أفادت المبالغة في حال الموصوف ، وإشارات من قدره ، ورفعت من حاله وأبانت المقصود على أحسن هيئة )<sup>(٣)</sup> وإذا علمنا ان هذه الآية تتحدث عن نور الله عز وجل فكيف يكون فيها الرفع من حاله ؟ وكان علينا أيضا أن نفهم المبالغة في حاله بمفهوم يخالف مفهومها عنده الذي يجعلها دعوى ، ويجعلها مما يستبعد في العقل فنفهمها حسب مدلولها اللغوي ، الذي يدل على بلوغ الغاية في الوصف . وجعل من ذلك قوله تعالى ( أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها )<sup>(٤)</sup> حيث قال : فتأمل هذه الأوصاف في نعت النور والظلمة ، كيف أصابت المحزوظ طبقاً المفصل في تحصيل المقصود ، وإظهار المبالغة فيه كما نرى )<sup>(٥)</sup> . وعلينا أيضا أن نفهم المبالغة فيها كما فهمناها في الآية الأولى وكما يجب أن نفهمها في القرآن الكريم عموماً أنها تبلغ بالكلام الغاية في الوصف ، والنهائية في المعنى دون تجاوز لذلك إلى الإدعاء والإسراف والإفراط وغير ذلك من المسميات الجائرة التي ارتبطت بالمبالغة .

## الطريقة الثالثة :

=====

وأما الطريقة الثالثة فهي عنده : ( إتمام الكلام بما يوجب حصول المبالغة فيه ، وإكماله به ، وهذا كقول من قال يمدح نفسه وقومه :  
ونكرم جارنا ما دام فينا  
ونتبعه الكرامة حيث كانا  
فإنه لم يكف بما صدره في أول البيت من مقدار ما هو عليه وقومه من الإحسان إلى الجار والقيام بحقه ، وبذل الجهد في المعروف إليه ، حتى شفعه بقوله  
( ونتبعه الكرامة حيث كانا ) مشتملاً على زيادتين ، الزيادة الأولى لحقوق الكرامة له

(١) المصدر السابق : ١٢٢/٣ ، ١٢٣ (٢) سورة النور : ٣٥

(٣) الطراز : ١٢٣/٤ (٤) سورة النور : ٤٠

(٥) الطراز : ١٢٣/٣



من الاتحاف والإلطاف وكثرة الإحسان والتبجيل ، والتمظيم ، والزيادة الثانية  
قوله " حيث كانا " وأراد به حيث يسير من سائر الجهات من برأ وبجر أو سهل أو جبل  
فحصول هاتين الزادتين قد اشتمل على المبالغة فيما ذكرناه (١) .

وسنناقش مستقبلاً ان شاء الله هذا التصور للمعنى ، وكيفية الحكم بالزيادة

فيه ، وهل ذلك يصح أولاً ؟

## الباب الثاني

أساليب المبالغة في البلاغة العربية

الفصل الأول :

أساليب المبالغة في علم البيان

الفصل الثاني :

أساليب المبالغة في علم الممانسي

الفصل الثالث :

أساليب المبالغة في علم البديع

## الفصل الأول

## المبالغة في علم البيان

## ١ - المبالغة في التشبيه

كثرت الدراسات التي قام بها المحدثون لبيان منظور البلاغة العربية والنقد العربي إلى التشبيه وتكاد تجمع هذه الدراسات على أن غالب هذا المنظور يرى أن فكرة التشبيه هي تمثيل شيء بشيء لتقريره وتوضيحه أو توكيده والمبالغة فيه <sup>(١)</sup> يقول الرماني ( والأظهر الذي يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه : منها إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة . ومنها إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة ، ومنها إخراج ما لا يعلم بالبدئية إلى ما يعلم بالبدئية ، ومنها إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة في الصفة ) <sup>(٢)</sup> ولقد أعاد أبو هلال العسكري هذه الأوجه ومثل لها بأمثلة قرآنية تحت قوله : ( وأجود التشبيه وأبلغه ما يقع على أربعة أوجه ) <sup>(٣)</sup> وأضاف إليها قسماً آخر أوضحه بقوله : ( وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه ما يرى العيان بما ينال بالفكر وهو ردي ، وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدقة وهو مثل قلشوبل الشاعر :

يعوضه صفوح من مطول

وكنت أعزّ عزّاً من قنوع

به فقر إلى فهم جليل

فصرت أذل من معنى دق

كقول الآخر :

وأفق الليل مرتفع السجوف

وندمان سقيت الراح صرفاً

كمعنى دق في ذهن لطيف

صفت وصفت زجاجتها عليها

فأخرج ما تقع عليه الحاسة إلى ما لا تقع عليه ، وما يعرف بالعيان إلى ما يعرف بالفكر ، ومثله كثير في أشعارهم <sup>(٤)</sup> والذي دعاه إلى الحكم عليه بالرداءة فكرة التوضيح والإخراج التي رأى أن التشبيه يأتي لها ( والتشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً ولهذا ما أطبق عليه جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه ) <sup>(٥)</sup> ويقول ابن الأثير عنه وعن صور المجاز الأخرى من استعارة وتمثيل وكناية أن عملها هو ( إثبات الفرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عياناً ، ألا ترى أن حقيقة قولنا : زيد أسد هي قولنا : زيد شجاع ، لكن الفرق بين

(١) انظر مثلاً : فلسفة البلاغة : ٧٥ والصورة الأدبية : ٥٦ - ٦٤ والصورة الفنية : ٢٣٧

(٢) النكت في اعجاز القرآن : ٨١ (٣) الصناعتين : ٢٤٦ - ٢٤٨

(٤) الصناعتين : ٢٤٨ (٥) المصدر السابق : ٢٤٩

القولين في التصوير والتخييل وإثبات الفرض المقصود في نفس السامع لأن قولنا : زيد شجاع لا يتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرى مقدام ، فإذا قلنا زيد أسد تخييل عند ذلك صورة الأسد وهيئته ، وما عنده من البطش والقوة ودق الفرائس ( ١ ) .

ويقول السكاكي ( المشبه به من حقه أن يكون أعرف بجهة الشبه ، وأخصبها وأقوى حالا معها . ولا لم يصح أن يذكر لبيان مقدار المشبه ، ولا لبيان إمكان وجوده ، ولا لزيادة تقريره . . . ولا لإبرازه في معرض التزيين . . . أو التشويه . . . أو الاستطراف ) ( ٢ )

ويقول العلوي : ( اعلم أن الفرض من حال التشبيه أن يكون المشبه به أعظم حالا من المشبه في كل أحواله وقد يأتي على العكس كقول من قال :

وبدا الصباح كأن غرت —————  
وجهة الخليفة حين يمتدح

فبالغ حتى جعل المشبه أعلى حالا من المشبه به ، في الوضوح والجلال ، لأن الغالب في العادة هو تشبيه بياض الوجه بظفرة الفجر ، فأما ههنا فعلى العكس من ذلك ) ( ٣ ) .

ومن هنا بيدو للمبالغة دور بارز في وظيفة التشبيه وتفسيره ، وهناك قسم من التشبيه خصوه بالمبالغة وجعلوها غرضه وهدفه وهو التشبيه الذي يجعل المشبه به — أزاء المشبه دون ربط بأداة أو بيان اشتراك في صفة ، وسموا هذا التشبيه بالبليغ نظرا للدرجة التي يحتويها من المبالغة . يقول الإمام عبد القاهر في ذلك ( وهلمنا أصل يجب ضبطه وهو أن جعل المشبه به على ضربين أحدهما أن تنزله منزلة الشبيء تذكره بأمر قد ثبت له فأنت لا تحتاج إلى أن تعمل في اثباته وتزجيته . وذلك حيث تسقط ذكر المشبه من الشيعين ولا تذكره بوجه من الوجوه كقولك : رأيت أسدا ، والثاني أن تجعل ذلك كالأمر الذي يحتاج إلى أن تعمل في اثباته وتزجيته . وذلك حيث تجرى اسم المشبه به صراحة على المشبه فتقول زيد أسد ، وزيد هو الأسد أو تجيء به على وجه يرجع إلى هذا كقولك : إن لقيت به أسدا ، وإن لقيته ليلقيني منه الأسد ، فأنت في هذا كله تعمل في إثبات كونه أسدا أو الأسد وتضع كلامك له ، وأما في الأول فتخرج مخرج ما لا يحتاج فيه إلى إثبات وتقرير . والقياس يقتضي أن يقال في هذا الضرب أعني ما أنت تعمل في إثباته وتزجيته أنه تشبيه على حد المبالغة ويقتصر على هذا القدر ولا يسمى استعارة ) ( ٤ ) . والأساس في هذا التفريق هو قول القاضي عبد العزيز الجرجاني ( وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة أو تشبيه أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس :

( ١ ) المثل السائر : ٦٣ / ٢ ( ٢ ) مفتاح المعلوم : ١٤٧

( ٣ ) الطراز : ٣٢٧ / ٣ ( ٤ ) دلائل الاعجاز : ٥٣ ، ٥٤

والحب ظهر أنت راكبـه  
فإذا صرفت عنانه انصرفا  
ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر ،  
أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ، فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شي \* بشي \*  
وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ، ونقلت العبارة فجعلت في  
مكان غيرها . . . ( ١ ) .

ولقد أفاد الامام عبد القاهر في الاحتجاج والجدل لتفريق بين النوعين  
مشيرا الى كلام القاضي الآنف الذكر ( ٢ ) .

والذي دعانا الى ذكر هذا التفريق بينهما الدلالة على أن التشبيه عند هم  
هو محض مقارنة بين طرفين متمايزين لا شتراك بينهما في الصفة ( ٣ ) مرة في نفسها وحقيقة  
جنسها ، ومرة في حكم لها ومقتضى اللفظ يشارك الورد في الحمرة نفسها ، ونجدها  
في الموضوعين بحقيقتها ، واللفظ يشارك العسل في الحلاوة لا من حيث جنسها بل من  
جهة حكم وأمر تقتضيه وهو ما يجده الذائق في نفسه من اللذة والحالة التي تحصل في  
النفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل الى الطبع ويقع منه بالموافقة ( ٤ ) . ويضيف في  
التفريق هذين الضريين من الاشتراك في الصفة قائلا ( وأما الضرب الأول فإذا كان  
المثبت من الشبه في الفرع من جنس المثبت في الأصل - الفرع هو المشبه والأصل هو  
المشبه به - كان أصلا بنفسه ، وكان ظاهر أمره وباطنه واحدا وكان حاصل جمعك بين  
الورد والخذ أنك وجدت في هذا وذاك حمرة ، والجنس لا تتغير حقيقته بأن يوجد  
في شيئين ، وإنما يتصور فيه التفاوت بالكثرة والقلّة والضعف والقوة ، نحو أن حمرة هذا  
الشي \* أكثر وأشد حمرة من ذلك . وإذا تقررت هذه الجملة حصل من العلم بها أن  
التشبيه الحقيقي الأصلي هو الضرب الأول ، وأن هذا الضرب فرع له ومرتب عليه . . .  
ومعلوم أن هذه القضية إنما توجد على الاطلاق والوجود الحقيقي في الضرب الأول . . .  
وأما الضرب الثاني فإنما يجي \* فيه على سبيل التقدير والتنزيل فلما ألا نجد فضلا بين  
ما يقتضيه العسل في نفس الذائق ، وما يحصل باللفظ المرضي والكلام المقبول في نفس  
السامع فظالا يمكن ادعائه الا على نوع من المقاربة أو المجازفة ، فأما على التحقيق  
والقطع فلا ( ٥ ) .

وقد أشار الجاحظ لعلى هذه الحدود المتميزة للطرفين بقوله ( وقد يشبهه  
الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس ، والغيث والبحر ، والأسد والسيف  
وبالحية وبالنجم ، ولا يخرجونه بهذه المعاني الى حد الإنسان ، وإذا ذموا قالوا :

- ( ١ ) الوساطة بين المتبني وخصومه : ٤١ ( ٢ ) اسرار البلاغة ٢ / ٨٨ / ٩٦  
( ٣ ) الصورة الفنية : ٢٠٨ ( ٤ ) اسرار البلاغة : ٢٠٢ / ١ - ٢٠٦  
( ٥ ) المصدر السابق : ٢٠٧ / ١ - ٢٠٩

هو الكلب والخنزير ، وهو القرد والحمار وهو الثور ، وهو التيس ، وهو الذئب ، وهو المقرب وهو الجمل ، وهو القرني ، ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم ، ولا يخرجون بذلك الإنسان الى هذه الحدود وهذه الأسماء . وسُموا الجارية غزالا ، وسُموا أيضا خشفا . . . وخيزرانا على ذلك المعنى ، وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب فذكروا الأسد والثور ، والحمل والجدى والمقرب والحوت ، وسُموا بالقوس والسنبلة والميزان وغيرها . وقال في ذلك ابن غسلة الشيباني :

فصحت والنمري يحسبها عم السماء وخالة النجم

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ( نعمت العمة لكم النخلة خلقت من فضله طينة آدم ) وهذا الكلام صحيح المعنى ، لا يعيبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام وليس هذا مما يطرد لنا أن نقيسه ، وإنما نقدم على ما أقدموا ونحجم عما أحجموا وننتهي الى حيث انتهوا . . . (١) فما دام أن الطرفين متمايزان فعملية التشبيه هي الحاق فرع بأصل كما رأينا عند عبد القاهر مثلا وهذا الإلحاح لا يتم إلا لأجل المشابهة في الصفة المشتركة ، وبيان مقدار توفر الصفة في الفرع . . . ومن ثم كانت الصفة الموجودة في المشبه به نموذجاً يرفع المشبه اليه لتوضيح المشبه وتقريره أو تأكيد الصفة في الفرع والمبالغة فيها . يقول الدكتور مهدي صالح السامرائي ( وفي ضوء فكرة التوضيح والحق الأضفر بالأضفر فهم البلاغيون التشبيه على أنه هورة من صور المبالغة ) (٢) وقد فسر الإمام عبد القاهر معنى المبالغة بقوله : ( ان المشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر الى الوصف الذي يجمع بين الشئين وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه وألقى ما عداها فلم ينظر اليه . فإن قال : زيد كالأسد كان قد أثبت له حفا ظاهرا في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد . وإذا قال هو الأسد تناهى في الدعوى اما قريبا من الحق لفرط بسالة الرجل واما متجاوزا في القول فجعله لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئا ) (٣) وقد اعترض الدكتور مهدي صالح السامرائي على هذا المفهوم مبينا أنه إذا ألقى المشبه زيدا في الأسد صورة الشجاعة بين عينيه وغنى النظر عما سواها فسيكون حاله حال من يفهم معنى الشجاعة من كلمة " شجاعة " لأنه في هذه الحالة يقطع معنى الشجاعة عن مصدره — المشبه به — الشبه . وإذا قطع معنى الشجاعة عن الطرفين فكيف يتحصل مفهوم المبالغة ؟ ويقول ( الواقع أننا ننظر الى الشجاعة في التشبيه من خلال صورة الأسد ، من خلال لبدته ونيوه وأظفاره وزغيره . . . وفي التشبيه صورتان موجودتان

( ١ ) الحيوان : ٢١١ / ١ ، ٢١٢

( ٢ ) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية : ٢١٢

( ٣ ) أسرار البلاغة : ١٠٥ / ٢

( ١ )  
احداهما تعطي والأخرى تأخذ . وهذا الأخذ والعطاء هو أساس حيوية التشبيه (١)  
وفي الحقيقة أن الدكتور واقع أيضا في حبال النموذج ولا زال يفهم من هذا التشبيه  
نموذج الشجاعة الذي فهمه عبد القاهر والبلاغيون ! !

والذي جنى على التشبيه هذه الجنابة وأخضعه لفكرة النموذج والقياس أن يحثه  
كان في أي عمل فني هو البحث في مثال مجرد تحده حدود الجملة التي تؤخذ مثلا -  
للدروس والتعليم ثم ينطبق مجيئها على العمل الفني على أساس أن اللغة قوالب جاهزة  
يفرغ فيها الإبداع الفني بينما لا يحدد الكلمة في المجال الفني إلا سياقها الذي قيلت  
فيه فالشاعر كما يقول جان بول سارتر ( أبعد ما يكون من استخدام اللغة أداة ، وقد  
اختار طريقه اختيارا لا رجعة فيه . وهو طريق فرضه عليه مسلكه الشعري في اعتبار  
الكلمات أشياء في ذاتها وليست بعلامات لمعان . . فالناشر دائما وراء كلماته متجاوز  
لها ليقرب دائما من غايته في حديثه . ولكن الشاعر دون هذه الكلمات لأنها غاية  
والكلمات للمتحدث خادمة طيبة وللشاعر عصية أبية المراسم لم تستأنس بعد ، فهي على  
حالتها الوحشية ، والكلمات للمتحدث اصطلاحات ذات جدوى ، وأدوات تبلى قليلا  
قليلا باستخدامها ، ويطرح بها حين لا تعود صالحة للاستعمال ، وهي للشاعر أشياء  
طبيعية تنمو طبيعية في مهدها كالعشب والأشجار ) ( ٢ ) .

ولقد قسمت النظرة الجزئية التشبيه على ضوء العلاقة المنطقية بين طرفيه  
المسند والمسند إليه ، بين الإصابتة والافراط والمقارنة والبعد يقول المبرد :  
( والعرب تشبه على أربعة أضرب ، فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه  
مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام ) ( ٣ ) . ولكن  
هذا التقسيم المنطقي للتشبيه على ضوء المقابل الخارجي . وعلى ضوء الدرجة من  
وجه الشبه بين الأصل والفرع أمر يعنى على عملية الخلق الأدبي ويقصر بالنقد عن بلوغ  
المستوى الفني للكلام . . إذ أن المقاييس التي يأخذها الناقد من قواعد البلاغة في  
التشبيه قوانين مستقرة من أمثلة جزئية على ضوء تلك العلاقة المنطقية . . طبقت على كل  
عمل أدبي فألغت بذلك شخصية القائل ، وحجبت النقد عن تقدير الإبداع فيه وإن أبتقت  
على شيء يحمد للقائل فيه إبداعه وابتكاره فإن مرد ذلك الإبداع والابتكار إلى استطراف  
وغرابة وشحن ذهن في الحصول على شبه خفي ، ومن ذلك نظرهم إلى قول امرئ القيس  
نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

التي بين الدكتور مصطفى ناصر سطحيتها وقصورها عن سبر أغوار الكلام في سياقه

( ١ ) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية ١١٢ ( ٢ ) ما الأدب : ١٤ ، ١٥

( ٣ ) الكامل : ١٠١ / ٢



الذى وجد فيه وذلك حيث يقول ( فمن مسخ التشبيه بالمبالغة أن تقول انه شـبـه  
النجوم بمصابيح الرهبان لأنها في السحر يضعف نورها كما يضعف نور المصابيح الموقدة  
ليلها أجمع ، وأن القفال يرجعون من الغارات وجه الصبح ، فإذا رأوها أول الصبح  
وقد خمد سناها فكيف كانت أول الليل ، والصورة بريئة من ذلك كله ، فإنها قامت  
على القرآن بين القفال من الغزوات والرهبان غلبهم النعاس بعد تعبد ومناجاة ،  
وتقوم على المجاورة بين نار تشب لقفال ، ومصابيح تولد لعباد ، وتضع النار والمصابيح  
معا في مساق واحد ، ولا علاقة لهذا الفهم بأن تكون النار أول الليل واضحة وأن تكون  
النجوم أول الصبح خافتة<sup>(١)</sup> . ثم يفسر سبب التعلق بهذا التفسير البسيط ( المبالغة )  
بقوله : ( لقد كان للجو التعللي للغة - لبعده المسافات بينها وبين الحياة تباعا -  
آثار هائلة في افساد فقه المعنى الأدبي ، والا خلال بموجبات التفكير في تعقده جزئيا  
وراء السانج الشعبي من التفسير )<sup>(٢)</sup> .

والتفسير بالمبالغة هو الذى يحجبنا عن رؤية الابداع في مثل قول أبي الطيب

المتبى :

(٣) ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهـرم  
فلو قلنا من خلال المنطق البلاغي ، شبه الشاعر نفسه بالثريا تشبيها بليفا  
وشبه العيب والنقص بالشيب والهـرم تشبيها بليفا أيضا . . . وأخذنا نبحث عن وجه  
الشبه ودرجة الادعاء في التشبيه فإن هذا يحجبنا عن أبعاد أخرى لسياق الكلام يمكن  
أن نفهمها من سياق القصيدة . . . فالشاعر في هذه القصيدة معتد بذاته أيما اعتداه  
. . فهو يوجد نفسه وسط هذا البلاط المشحون بالفيرة والحقد عليه . . . ويقوم لذاته  
وجود آخر يرتفع عن هؤلاء ويظل يرتفع حتى يصبح كائنا لا يناله أذى هؤلاء وحسد هم  
وذلك الايجاد ينبت نباتا خلال سياق القصيدة فالشاعر في البداية يتحدث بضمير المتكلم :

يا أعدل الخلق الا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم  
أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ثم تجر لنا بعد ذلك ذاته للمتفردة المتميزة :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبي وأنا مل جفوني عن شواردها  
وأسمعت كلماتي من به صمم ويشهر الخلق جراها ويختصم  
ومرهب سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت  
فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

( ١ ) الصورة الأدبية : ٦٣ ( ٢ ) المرجع السابق : ٦٣

( ٣ ) التبيان في شرح الديوان : ٣٧١/٣

صحبت في الغلوات الوحش منفردا حتى تعجب مني القور والأكرم

ثم ترتفع هذه الذات ويتحدث عنها بضمير الجمع "نا"

يا من يميز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عـدم

بل يسمو بها إلى درجة تقف موقف الند من سيف الدولة

ما كان اخلقنا منكم بتكرمة لو أن أمركم من أمرنا أمم

وتصعد هذه الذات في سموها فترتفع إلى مقام أكبر من ذلك بكثير فتصبح كأننا

آخر يبهر البشر ويتطلعون إليه فلا يظفرون بمداه . . . فيصبح هو الثريا . ولكن هل

تبقى الثريا في السياق هي ذلك النجم المرتفع في السماء أو تثبت في السياق نبتا

جديدا ؟

في البيت عملية صراع بين العيب والشرف . . العيب أمر مهانة وذلة والشرف

أمر عز وكرامة . . . العيب انحدار وسقوط والشرف ارتفاع وسمو . . الشرف يرتفع إلى الثريا

والعيب والنقصان يزرى بمن يلحق به ويشييه ويهرمه . . ونلاحظ عملية انبات الثريا في

السياق نبتا جديدا ونموها نماء آخر إذ لم تعد الثريا هي ذلك النجم المرتفع في السماء

وانما هي رمز لارتفاع الذات وسموها . . ولم يعد هناك مجال مقارنة بين الشاعر والثريا ،

ولم تعد أنا شيئا منفصلا عن الثريا بحرف تشبيهه مقدر . . . فالشاعر ارتفع عن العيب

والنقصان إلى الشرف وارتفع به الشرف عن الانحدار والسقوط في الثرى إلى الثريا رمز

الارتفاع والاستمرار . . . بينما بقي العيب والنقصان في انحدارهما وسقوطهما حتى وصلا

إلى مرحلة الشيب والنهم ، وعلى كل فكلمة الثريا لها حياتها ونشاطها النابعة من داخل

سياق القصيدة ، ومن داخل سياق البيت ولم تبق منفصلة بمعناها الوضعي المحدد وانما

أوجد بها الشاعر ذاته المتفردة المتميزة التي ظلت في سموها وارتفاعها حتى تعلقت بها

كرمز للسمو والارتفاع يقاوم علامات السقوط والانتها .

والآن نستطيع أن نشير إلى أن ( الصورة التشبيهية ليس المقصود منها مثلا

اعطاء مبالغات ذهنية سقيمة ، أو كما يعبر البلاغيون بزيادة الصفة في المشبه به ، بل إن

المطلوب أن تتعاقب الصورة واجزأوعا مع السياق العام الذي يولد علاقة رمزية تشير إلى

المتلقي تجاه نقاط تفجر كل واحدة منها طاقات فنية ذات آثار نفسية خاصة (١) . وذلك

لا يتم إلا إذا عرفنا أن ( قيمة التشبيه لا يكتسبها من طرفيه فقط ، ولا من وجه التشبه

القائم بينهما بقدر استمدادها من الموقف الذي يدل عليه السياق ويستدعيه الحس

الشعوري المنبت خلال الموقف التعبيري ، كذلك فإن النص اللفوي يضي حياة على الصورة

التشبيهية ، ويكسبها ظللا إيحائية لا يستطيع التشبيه بطرفيه أو بوجهه أن يقوم بها (٢)

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور : ١٧٥ (٢) المرجع السابق : ١٧٥ ، ١٧٦

ومثل هذه النظرة الى التشبيه تحترم العمل الأدبي ، ونقدر تمييز كل عمل وتفرد هـ ،  
 يخرج من الدخول تحت أحضان قواعد كلية يقودنا تطبيقها على العمل الأدبي الى  
 به بالمبالغة والتزويد وحصر عمل الأديب في ادراك المشابهة والبحث عنها اما ادعا  
 أو قريبا من التحقيق والصدق وذلك لأن التشبيه يتجاوز العلاقات المنطقية العامة الى  
 أحداث علاقات جديدة داخل العمل الأدبي لأنه ( لا يعني تحقق معنى واحدا ينقل  
 كليا من المشبه الى المشبه به بل انه يولد في الطريق احياءات قتالية تظل تتناوش  
 طرفي التشبيه وهو يؤدي متصلا بسابقه ولا حقه دورا فنيا في العمل الفني بأكمله ) ( ١ )  
 وهذه الولادة للاحياءات التي تولد داخل سياق العمل سواء كانت احياءات قتالية أم  
 لا فان البحث عنها هو الذي يفتح مغاليق العمل الأدبي التي لا يمكن للعلاقة الآلية  
 بين طرفي التشبيه أن تفتحها إذ أن تلك العلاقة تنظر الى العمل الأدبي على أساس  
 الذي تحقق أخبار المسند عن المسند اليه واذنا نظرنا الى قول المجنون :

أقول لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناولها بعمد

لقد عارضتنا الريح منها بنفحة على كبدى من طيب أرواحها برد

على هذا الأساس فإننا لا نستطيع فتح مغاليقه . ( وما أمون أمر الشعر

إذا حمل على أنه اخبار يراد ابلاغه للسامع وليس فيه من معنى الا ما يقتضيه التشبيه  
 لرفاه من مشبه ومشبه به . . . واذنا كان ذلك كذلك فما الداعي الى قوله " ضوءها قريب

ولكن في تناولها بعد " ؟ ان كان ذلك للايضاح قلنا ان ضوء الشمس لا يحتاج الى  
 ايضاح ، والأمر حين يراد التدليل على ظهوره يقال انه واضح كالشمس ، ثم ما الوجه

في ذكر الريح والنفحة والكبد وما بينهما من علاقات أكيدة ، أم أن هذه شرثة من المجنون  
 لا يؤاخذ عليها ؟ ) ( ٢ ) .

وهذه الآفاق التي يقودنا اليها مثل هذا الفكر في العمل الفني لا شك أنها  
 شبيهة ولا شك أنها تعيد قراءة الأدب العربي قراءة جديدة ، يحيا بها في ضمير الأمة  
 يوجد ان شبابها وتقييم حبل الاعمال بين قواعد النقد والعمل الأدبي ، ذلك الاتصال  
 الذي قطعته علوم البلاغة ، جعلت العمل الأدبي يخرج من محكمة الناقد الذي  
 يتخذ من قواعد البلاغة مقياسا له متهما بمخالفة العقل والمنطق وسلوك سبيل الخيال  
 والتجاوز والتزويد والمبالغة .

فالتشبيه الجارى بكثرة في كلام العرب ( حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم  
 ) ( ٣ ) . لا سبيل له في تراثنا النقدي والبلاغي الا الحاق الفرع بالأصل يقول ابن

( ١ ) المرجع السابق : ١٧٦ ( ٢ ) التركيب اللغوى للأدب : ١٢٨

( ٣ ) الكامل : ٧٩/٢

رشيق ( وسبيل التشبيه - إذ كانت فائدته إنما هي تقريب المشبه من فهم السامع وإيضاحه له - إذ أن تشبه الأذن بالأعلى إذا أردت مدحه وتشبه الأعلى بالأذن إذا أردت دمه ، فتقول في المدح : شراب كالمسك وحصى كالياقوت وما أشبه ذلك ، فإذا أردت الذم قلت مسك كالمسك والثراب ؛ وياقوت كالزجاج أو كالحصى ، لأن المراد في التشبيه ما قدمته من تقريب الصفة ، وأفهام السامع ، وإن كان ما شابه الشيء من جهة فقد شابهه الآخر منها ، إن المتعارف وموضوع التشبيه ما ذكرت ( ١ ) .

ومن هذه الفكرة أخذوا يرتبون التشبيه في القوة والضعف في درجة المبالغة ومن ثم قسمه الخطيب إلى ثمان مراتب ( فالحاصل من مراتب التشبيه في القوة والضعف في المبالغة باعتبار ذكر أركانها كلها أو بعضها ثمان أحدهما ذكر الأربعة كقولك زيد كالأسد في الشجاعة ولا قوة لهذه المرتبة ، وثانيتها ترك المشبه كقولك كالأسد في الشجاعة أي زيد وهي كالأولى في عدم القوة ، وثالثتها ترك كلمة التشبيه كقولك زيد أسد في الشجاعة وفيها نوع قوة ورابعتها ترك المشبه وكلمة التشبيه كقولك أسد في الشجاعة أي زيد وهي كالثالثة في القوة ، وخامستها ترك وجه الشبه كقولك زيد كالأسد وفيها نوع قوة لموم وجه الشبه من حيث الظاهر ، وسادستها ترك المشبه ووجه التشبيه كقولك كالأسد أي زيد وهي كالخامسة ، وسابعها ترك كلمة التشبيه ووجهه كقولك زيد أسد وهي أقوى الجميع وثامنيتها إفراد المشبه به بالذکر كقولك أسد أي زيد وهي كالسابقة ( ٢ ) .

والسرف في حصر التشبيه في وظائف التوضيح والتقرير ، والتوكيد والمبالغة وتقسيمه إلى هذه الدرجات وغيرها من التقسيمات في السلم الوظيفي الذي يؤديه لخدمة معنى مفترض ينطلق من مسلمة سيطرت على النقد العربي نظرت إلى أن المعنى فكرة مجردة ثم تخرج إلى حيز الوجود بصورة يفكر فيها الشاعر ويكد ذهنه فيها لينقل المعنى عن طريقها إلى الآخرين . ومن ثم كان عمل الناقد البحث عن هذه الككرة التي نقلها الشاعر من خلال التشبيه أو المجاز . . أو الاستعارة . . بردها إلى ما كانت عليه قبل ذلك ، والحديث عن طبيعة إخراجها بطريقة سطحية لا تصل إلى أعماق العمل الأدبي ولا تبرز لنا إبداعه وتفرد . . ولا تبين لنا ما تحمله الكلمة من معطيات فتجدهم يحصرون الصورة في معنى يتفق مع الفرض الذي افترضوه للمعنى قبل إخراجها . . ويجادلون في ذلك جدلاً كان يفنيهم عنه التعامل مع الكلمة ككائن حي داخل سياق تتفاعل معه فتحيا به حياة جديدة ويحيا بها حياة جديدة كذلك . ومن ذلك مناقشة الامام عبد القاهر

( ١ ) العملة : ٢٩٠ / ٢ ( ٢ ) الايضاح ضمن شروط التلخيص : ٣ / ٤٧٦ ، ٤٧١

لقول النابغة الذبياني :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أن المنتأى عنك واسمع

ان رفض تفسيره على طريقة المبالغة محتجا بأنك ( ان حاولت فيه طريقة المبالغة فقلت : فانك الليل الذي هو مدركي - لزمك لا محالة أن تعتمد الى صفة من أجلها كالشجاعة التي من أجلها الرجل الأسد فان قلت تلك الصفة الظلمة وانه قصد شدة سخطه وراعى حال المسخوط عليه ، وتوهم أن الدنيا تظلم في عينيه حسب الحال في المستوحش الشديد الوحشة كما قال :

أعيد و صباحي فهو عند الكواكب ( ١ )

قيل لك : هذا التقدير ان استجزناه ، وعلمنا عليه فاما نحتمله والكلام على ظاهره ، وحرف التشبيه مذكور داخل على الليل كما تراه في البيت ، فاما وأنت تريد المبالغة فلا يجسيء لك ذلك ، لأن الصفات المذكورة لا يواجه بها المدوحون ، ولا تستعار الأسماء الدالة عليها الا بعد أن نتدارك وتقرن الى أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله ( أنت الصاب والعسل ) ولا تقول وأنت مادح أنت الصاب وتسكت . ثم يمرض الوجه الذي يراه ويحتج له وعلى من يعترضه قائلا ( فان قلت : أفترى أن تأبى هذا التقدير في البيت أيضا حتى يقصر التشبيه على ما تفيدُه الجملة الجارية في صلة الذي ؟

قلت : فان ذلك الوجه فيما أظنه فقد جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم ( ليدخلن هذا الدين ما دخل عليه الليل ) فكما تجرد المعنى للحكم الذي هو الليل من الوصول الى كل مكان ، ولم يكن لاعتبار ما اعتبروه من شبه ظلمته وجه كذلك - يجوز أن يتجرد في البيت له ويكون ما ادعوه من الاشارة بظلمة الليل الى ادراكه لسه ساخطا ضربا من التعقق والتطلب لما لعل الشاعر لم يقصده ، وأحسن ما يمكن أن ينتصر به لهذا التقدير أن يقال : ان النهار بمنزلة الليل في وصوله الى كل مكان فما من موضع من الأرض الا ويدركه كل واحد منهما ، فكما أن الكائن في النهار لا يمكنه أن يصير الى مكان لا يكون به ليل كذلك الكائن في الليل لا يجد موضعا لا يلحقه فيه نهار ، فاختصاصه الليل ليل على أنه قد روى في نفسه فلما علم أن حالة اوراقه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى . ويمكن أن يزداد في نصرته بقوله :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الا شراق في كل بلد

وذاك أنه قصد ههنا نفس ما قصده النابغة في تعميم الاقطار والوصول الى كل

( ١ ) عجزه : ورد في رقادي فهو لاحظ الحباب .

مكان ، الا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة الى أقاصي البلاد وانتشارها في العباد بالليل ووصوله الى كل بلد وبلوغه كل أحد ، لكان قد أخطأ خطأ فاحشا الا أن هذا وإن كان مجتبي<sup>١</sup> مستويا في الموازنة فنرى بين ما تكلمه من الشبه وما تحب ، لأن الصفة المحبوبة اذا اتصلت بالفرض من التشبيه نالت من الصناية بها والمحافظة عليها قريبا مما يناله الفرض نفسه وأما ما ليس بمحبوب فيحسن أن تعرض عنها صفحا وتدع الفكر فيها جانبا .

وأما تركه أن يمثل بالشهارة وإن كان بمنزلة الليل فمما أراد ، فيمكن أن يجاب عنه بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لا محالة ، واذا كان يكلمه وهو في النهار بعد أن يضرب المثل بإدراك النهار له وكان الظاهر أن يمثل بإدراك الليل الذي اقبله منتظر ، وطرياقه على النهار متوقع ، فكأنه قال وهو في صدر النهار أو آخره : لو سرت عنك لم أجد مكانا يقيني الطلب منك ، ولكن ادراكك لي وإن بعدت واجبا كما ادراك هذا الليل المقبل في عقب نهاري هذا اياي ، ووصوله الى أى موضع بلغت من الأرض .

وهنا شي آخر وهو أن تشبيه النعمة في البيت بالشمس وإن كان من حيث الفرض الخاص وهو الدلالة على العموم فكان الشبه الآخر من كونها مؤنسة للقلوب ومبسة العالم البهجة والبهاء كما تفعل الشمس حاصل على سبيل العرض وضرب من التطفل ، فان تجريد التشبيه لهذا الوجه الذي هو الآن تابع وجعله أصلا ومقصودا على الانفraz مألوف معروف كقولنا : نعمتك شمس طالعة وليس كذلك الحكم في الليل<sup>(١)</sup> .

ولقد حاولت أن أنقل معظم نص عبد القاهر حتى نكون على بينة من مراده الذي نفى فيه بشدة أن يكون في التمثيل بالليل اشارة الى سخط المدوح . . ورد على من يقول لذلك حاصرا الفرض من التمثيل بالليل في افادة العموم والشمول . . ولذلك فهو يرى أن العلاقة بين الطرفين علاقة منطقية آية ومن هنا يتبين لنا وهم الدكتور كمال أبو ديب عندما توهم أن عبد القاهر لم يحصر غرض تشبيه النابغة نفسه بالليل في هذا الفرض وأنه فهم من تشبيه النابغة نفسه بالليل معنى السخط فخصه بالليل . . ولذلك جاءت الصورة تجلو الوجود العاطفي للشاعر وذلك حيث يقول : ( في صورة النابغة كما يقول الجرجاني تحقق الوظيفة المعنوية للتعبير " أنت كالنهار " الى الدرجة ذاتها من الكمال التي يحققها التعبير " أنت كالليل " كلا التعبيرين يقرر أن الملك له القدرة على الوصول الى كل مكان ، وإن الشاعر يدرك استحالة الهرب منه . والنهار في هذا له خصائص الليل ذاتها لكن الصورة " أنت كالنهار " تتحرك على مستوى واحد ، مستوى التقرير ، ولا تجلو الوجود العاطفي للشاعر وأبعاد أحاسيسه لا بازا<sup>٢</sup> الملك ولا بازا<sup>٣</sup> النهار ، الصورة لا تعكس

ما يثيره الموضوعان في عالم الشاعر الداخلي من أحاسيس وما يفرضانه من استجابات ،  
أو ما يجسدانه في سياق القصيدة الكلي للشاعر — إنسانا متكاملًا له ردة فعله الحيوية  
للوجود (١) .

ولقد علق على العبارة ( فاخصاصه الليل دليل على أنه قد روى في نفسه  
فلما علم أن حالة ادراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى )<sup>(٢)</sup> الواردة  
في نص الجرجاني مشيدا بادراك الجرجاني لفاعلية طرفي الصورة الشعرية وذلك حيث  
يقول ( للعبارتين في "نفسه" و"حالة ادراكه" دلالات مهمة يجب أن تستقصى ، إذ  
يبدو وانهما تؤكدان بطريقة مباشرة ، الدور النفسية للصورة الشعرية ، وأصولها النابعة  
من ذات الفنان الخالق ، العاكسة لأبعاد الوجود النفسي والعاطفي الذي يشكل جزءًا  
حيويا من التجربة الشعرية المتكاملة ، ثم ان العبارتين "اختصاصه الليل" و"روى في  
نفسه" تطرحان بعدا جديدا للتجربة ، أمام العقل المكتسبة ، هو بعد الوعي ، وعي  
الشاعر بالمكونات المتشابكة لتجربته ، وبالصورة المثلى لاعطاء هذه الأبعاد تعبيرًا شعريا  
لكن دور الوعي هنا ليس دورا آليا ، ذهنيا ، جافا ، بل دور خلاق يكشف المستوى النفسي  
للموقف الشعري في الصورة عن طريق خلق بنية تتداخل فيها العلاقات ، وتتبادل  
الفاعلية بفن يستقى من طبيعة طرفي الصورة المضامين لأون حيث هما ظواهر فيزيائية  
معزولة ، وإنما من حيث هما مدركات تنفعل بها الذات ، الصورة بهذا التحديد تخلق  
لا تنقل معنى فقط ، ولا لتقرر أن ( ب ) يشبه ( ج ) في سياق المجرى ، وإنما لتخلق  
جوا يتسرب فيه تيار داخلي مضي\* ، جذوره في الاستجابة الانسانية للعالم )<sup>(٣)</sup> .

وقد كان يمكن لنا أن نشيد معه بادراك الجرجاني لهذه العلاقات النابعة  
من داخل السياق ، والمنبثقة خلال التعبير ، لو أن الجرجاني انتصر لهذا التقدير  
وأما وأن الجرجاني قد ضرب عنه صفحا فان ذلك يدل على اهمال الجرجاني لها وان كان  
ذلك لا يمنع من معرفته بها وانها أمر يمكن أن يتجه اليه في النص بدليل أنه أورد هذه  
الحجة في الانتصار للرأي المعارض لرأيه الذي كان يرى أن في التشبيه بالليل معنى الصلعة  
والسخط والإحاطة ، ذلك الرأي الذي فنده عبد القاهر وخص التشبيه بالشمول والمموم  
فقط .

وفكرة النموذج في التشبيه وإلحاق الفرع بالأصل جعلتهم يلوون عنق الكلام ويحكمون  
عليه بالقلب والعكس ويفسرونه بالأدعاء بأن صفة المشبه به أصبحت أتم في المشبه ولذلك  
قلب التشبيه. ولذلك حكموا على قول محمد بن وهيب :

(١) جدلية الخفاء والتجلي : ٤٢ (٢) أسرار البلاغة : ١٠٩/٢

(٣) جدلية الخفاء والتجلي : ٤١

وبدا الصباح كأن غرنه ————— وجهه الخليفة حين يمتدح

فالعكس . وذلك حين مثل به عبد القاهر للدلالة على أن الشاعر قد يقصد على عادة التخييل أن يوهم في الشيء هو قاصر عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه فــــي استحقاقها واستيجاب أن يجعل أصلا فيها ، فيصبح على موجب دعواه وشوقه إلى أن يجعل الفرع أصلا وان كنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه <sup>(١)</sup> ويفسر ذلك بقوله ( فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل في النور والضيء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية ان يجعل الصباح فرعا ووجه الخليفة أصلا <sup>(٢)</sup> ) .

ثم يتحدث عن سر بلاغة هذا التشبيه الكامنة في قدر الادعاء والمبالغة فيه وطريقة الاتيان بها قائلا ( واعلم أن هذه الدعوى وان كنت تراها تشبه قولهم : لا يدري أوجه أنور أم الصبح ؟ وغرته أضوا أم البدر ؟ وقولهم إذا أفرطوا : نور الصباح يخفى في ضوء وجهه ، أو نور الشمع مسروق من جبينه ، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة ، فان في الطريقة الأولى خلافة وشيئا من السخر ، وهو أنه كان يستكثر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة ، ويوهم أنه قد احتشد له واجتهد في طلب تشبيه يقم به أمره ، وجهته الساحرة أنه يقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه . ويزجي الخبر عن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوة ، ولا اشفاق من خلاف مخالف ، وانكار منكر وتجهم معترض وتهكم قائل : " لم " ومن اين لك ذلك ؟ والمعاني اذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السوور خاص . وحدث بها نوع من الفرح عجيب ، فكانت كالنعمة لــــم تذكرها العنة ، والصنعة لم ينقصها اعتداد المصطنع لها <sup>(٣)</sup> ) .

وأما البلاغيون بعده فقد ساروا على هذه السنة في فهم البيت ولذلك كان الشاهد عندهم فيه ( ايهاً أن المشبه أتم من المشبه به ، ويسمى التشبيه المقلوب ، فانه قصد ايهاً أن وجه الخليفة أتم من الصباح في الوضوح والضيء ، وفي قوله حين يمتدح دلالة على اتصاف المدوح بمعرفة حق المادح ، وتعظيم شأنه عند الحاضرين بالاصفاً إليه ، والارتياح له وعلى كونه كاملا في الكرم يتصف بالبشر والطلاقة عند استماع المديح <sup>(٤)</sup> ) .

وكان داعيهم إلى ذلك النظرة الجزئية في التشبيه ، وأخذة على أساس أنه جملة مستقلة في السياق . يرتبط طرفاها برباط النموذج ، والحاق الفرع بالأصل ، اما قريبا من التحقيق واما ادعاء أو مبالغة ، ولم يفتنوا إلى أن العمل الفني يقوم على عطية خلق

(١) أسرار البلاغة : ٢/٧٥ (٢) المصدر السابق : ٧٥

(٣) المصدر السابق : ٢/٧٥ ، ٧٦ (٤) معاهد التنصيص : ١/١٥٣



واعادة لتشكيل الأشياء\* وامتزاجها من خلال نسلط الكلمة وحيويتها ، وتفاعلها في سياقها الذي سيقته فيه . . . وعلى ذلك ففي التشبيه خلق لغوى يصهر الطرفين في بوتقة جديدة ولا نستطيع أن نفسر هذه الصورة الجديدة لهما إلا بتأويلها ما يمكن أن يعطيه كل طرف للآخر وما يأخذه منه ، ويتأمل اشعاع كلا الطرفين وتفاعله في سياقه داخل كيان العمل الأدبي . . . ومن هنا لو نظرنا الى بيت محمد بن وهيب الحميري هذا داخل نصه الذي أورده صاحب معاهد التصحيح لخرجنا بتفسير لهذا التشبيه كان يحجب النقد عمس رؤيته النظرية الجزئية لجعل التشبيه ، وفكرة النموذج وفكرة الادعاء والمبالغة :

لقد ورد هذا البيت في قصيدة للشاعر يقول فيها :

المذران انصفت متضح	وشهور حباك أدمع سـ
واذا تكلمت العميون على	اعجامها فالسر مفتضح
سهما أبيت معانقي قمر	للحسن فيه مخايل تضح
نشر الجمال على محاسنه	يدعا وأنهب همة الفرح
يختال في حلل الشباب به	مرح وداؤك أنه سـ
ما زال يلتمني مراشقه	ويعلني الابريق والقـ
حتى استرد الليل خلعتة	ونشا خلال سوايه وضـ
وبدا الصباح كأن غرتة	وجه الخليفة حين يمتدح
نشرت بك الدنيا محاسنها	وتزينت بصفاتك المـ
وكأنما مذ غاب عنك له	بازاء طرفك عارض سـ
واذا سلمت فكل حادثة	جلل فلا بؤس ولا تـ (١)

فالنص من بدايته تتجلى لنا فيه جدلية بين الخفاء والتجلي ، فالمذري يظهره الإنصاف ، والأدمع تشهد على الحب الذي تتكلم عنه العميون ، وتفصح عنه الجفون النواطق مهما حاول الضمير أن يكيد ويستودع ، والوجود الذي أقامه الشاعر لنفسه وجود ملي\* باللهو والمرح يستتر فيه ذلك الليل الذي جرد عليه خلعتة . . وعاش الشاعر في ذلك الوجود الذي أقامته شاعريته حتى بدأ الليل في استرداد خلعتة تاركا الشاعر لفضيحة الصباح . . . وبدأ الشاعر يفيق ويتعقل . كيف لا وهو أمام صبح مزيل لسـتر الظلام . . أول ما يخشى فيه الخليفة رمز الشرع القائم بالحدود والرادع عن كل لهو . . وبدأ الخليفة يحتوى وجود الشاعر ، فأضحى الخليفة هو كل شيء . . وأضحى يمتزج بالوجود امتزاجا ملاء على الشاعر كل زمانه . فلا غروا ان ان التمس الصباح بخصائص الخليفة وصفاته ، وانتزع غرته . . وجاءه هذا الصباح بهيبة الخليفة وجلاله . . والشاعر

لا يهيمه من هذا الصباح الا وجود الخليفة المقيم للحدود والرؤدع عن كل لهو . . . وهذا الوجود الشمري للخليفة حتم على الشاعر الافاقة والتعقل والتحول من اللهو الى الانتقال الى حياة الجد فوجود الخليفة كان فيه جانبان ، جانب حرم الشاعر من الاستمرار في وجوده اللاهي العابت ، وجانب حتم عليه امتداح الجد المتمثلة في شخص الخليفة . ولقد نبه الشاعر الى أن وجود الخليفة هذا الوجود الممتزج بزمان الشاعر هو وجود شاعري . . . أقامه مدح الخليفة . . . وان هذا الوجود هو أفق آخر للخليفة لا يقارن بواقعه الفعلي وذلك حين يقول " حين يمدح " ومن هنا يصف حملهم المعنى على أن ذلك يدل على اتصاف المدوح بمعرفة حق المادح وتعظيم شأنه عند الحاضرين بالاصفاء اليه والارتياح له ، وعلى كونه كاملا في الكرم يتصف بالبشر والطلاقة عند استماع المديح . . . . . فذلك غير لا يبقى ألا يتتبه الشاعر الى وجود تلك الصفة الا في ساعة المدح فقط .

## ٢ - المبالغة في الاستعارة

لقد تناول البحث البناء الاستعماري بالتحليل والتجريد والتظهير سواء أكان ذلك قديما أم حديثا . ولا يعنينا هنا الخوض في تفاصيل تلك الأبحاث الا بقدر ما تشير اليه من وضع للاستعارة في درجة من درجات المبالغة .  
والذى يضع الاستعارة هذا الموضع هو مقابلة الأداء الفني بالواقع الخارجي انطلاقا من مسلمة الوضع التي ناقشناها سابقا ، والحكم تبعا لذلك على الاستعارة بالنقل أو الادعاء .

فاذا كان ابن قتيبة يرى أن العرب ( تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة اذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاورا لها أو شاكلا )<sup>(١)</sup> . فإن الجاحظ وأحمد ثعلب وابن المعتز يحددون الاستعارة ، ويعرفونها تعريفا مشابها لتعريف ابن قتيبة أو قريبا منه فالجاحظ يعرفها بأنها ( تسمية الشيء باسم غيره اذا قام مقامه )<sup>(٢)</sup> و ثعلب يقول بأنها ( ان يستعار للشيء اسم غيره أو معنى سواء )<sup>(٣)</sup> . وابن المعتز يحدد ثنا عنها بأنها ( استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف )<sup>(٤)</sup> .

وتمضي الاستعارة في رحلتها عبر تاريخ النقد العربي حاملة لذلك المفهوم باختلافات يسيرة ان يقول الآمدى عنها ( وانما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له اذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لا ثقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه )<sup>(٥)</sup> .  
والرمانى يعرفها بأنها ( تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللفظة على جهة النقل للابانة )<sup>(٦)</sup> .

وأما أبو هلال فيقول : ( الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللفظة الى غيره لفرس )<sup>(٧)</sup> .

وأما الحاتمي فلم يكن خارجا عن هذه التعاريف عندما يقول ( حقيقة الاستعارة أنها نقل كلمة من شيء قد جعلت له الى شيء لم تجعل له )<sup>(٨)</sup> .

ويعلق الدكتور جابر عصفور بعد أن أورد هذه التعريفات قائلا ( ولسنا نمضي

في حصر تعريفات الاستعارة في القرن الخامس أو ما تلاه فهي لا تخرج في جوهرها عن التعريفات السابقة ، وانما كانت هناك فوارق بينها في درجات التحديد والحصر ، ولكنها

- |       |                         |       |                         |
|-------|-------------------------|-------|-------------------------|
| ( ١ ) | تأويل مشكل القرآن : ١٣٥ | ( ٢ ) | البيان والتبيين : ١٥٣/١ |
| ( ٣ ) | قواعد الشعر : ٤٧        | ( ٤ ) | البيديع : ٢             |
| ( ٥ ) | الموازنة : ٢٦٧/١        | ( ٦ ) | النكت : ٨٥              |
| ( ٧ ) | الصناعتين : ٢٧٤         | ( ٨ ) | الرسالة الموضحة : ٢٩    |

في النهاية تشير الى شيء واحد وهو أن الاستعارة الثقيل في الدلالة لأغراض معددة ،  
وان هذا الانتقال لا يصح ولا يتم الا اذا قام على علاقة عقلية صائبة تربط بين الأطراف ،  
وتيسر عملية الانتقال من ظاهر الاستعارة الى حقيقتها وأصلها (١) .

وتتضح حقيقة هذا القول بالرجوع الى تعريف ابن قتيبة والمجاhez والى قول  
الآمدى الذى كان يرى فيه أن العرب انما استعارت المعنى لما ليس له ( اذا كان  
يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله ، أو كان سببا فيهن أسبابه فتكون اللفظة  
المستعارة هيئذ لا ثقة بالشئ الذى استعيرت له ، وملائمة لمعناه ) (٢) .

وأما الامام عبد القاهر وهو علم بارز في النقد العربي ، وكانت آراؤه محسورا  
لكثير من المفاهيم النقدية التي جاءت بعده فهو يتقبل فكرة النقل في الاستعارة عندما  
يعرفها بقوله ( اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوى  
معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع فسم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في  
غير ذلك الأصل ، وينقله اليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالمبارية ) (٣) .

وأما العلاقة بين لفظ الأصل في الوضع اللغوى المفترض وبين استعمال الشاعر  
أو غيره فتحصر عند الامام في التشبيه لأجل المبالغة ويسمى النوع الذى توجد فيه هذه  
العلاقة بالاستعارة المفيدة ، وما لم يجد فيه تلك العلاقة فيحكم عليه بعدم الفائدة  
( وموضع هذا الذى لا يفيد نقله حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد  
به التوسع في أوضاع اللفظة والتفوق في مراعاة دقائق في الفرق في المعاني المدلول  
عليها : كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان ، نحو  
وضع الشفة للإنسان ، والمشفر للبعير ، والجفلة للفرس ، وما شاكل ذلك من فروع ،  
ربما وجدت في غير لغة العرب ، وربما لم توجد . فاذا استعمل الشاعر شيئا منها في  
غير الجنس الذى وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله ، وجازبه موضعه كقول العجاج

وفاحمنا ومرسنا مسرجا

يعني أنفا برق كالسراج ، والمرسنا في الأصل للحيوان ، لأنه الموضع الذى

يقع عليه الرسن . . . فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا لو لزم الأصل لم يحصل لك (٤) .

ولكن التحكم في كلام العرب الأقحاح على ضوء لزوم الكلمة لموضع معين يتحتم  
على القائل ألا يجاوزها اياه الا بعلاقة منطقية تربط بين الأصل المفترض واللفظ المستعمل ،  
جعل عبد القاهر يعيد النظر في حكمه على هذا النوع ويلتمس الشبه بين الأصل  
والفرع فيقول ( فاعلم أنك قد تجد الشئ يخلط بالضرب الأول الذى هو استعارة من

(١) الصورة الفنية : ٢٤٥ (٢) الموازنة : ٢٦٦/١  
(٣) أسرار البلاغة : ١٢٣/١ (٤) المصدر السابق : ١٢٣ - ١٢٥

طريق اللفظ ويعد في قبيله وهو اذا حققت ناظر الضرب الآخر فهو مستعار من جهة  
المعنى وجار في سبيله . فمن ذلك قولهم ( انه لغلطيظ الجحافل وغلطيظ المشافر ) وذلك  
أنه كلام يصدر عنهم في مواضع الذم فصار بمنزلة أن يقال : كأن شفته في الغلظ مشفر  
البعير ، وجحفة الفرس ، وعلى ذلك قول الفرزدق :

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتي ولكن زنجيا غليظ المشافر

فهذا يتضمن معنى قولك : ولكن زنجيا كأنه حمل لا يعرّفني ولا يهتدي لشرفي .  
وهكذا ينبغي أن يكون القول في قولهم " أنشب فيه مخالفه " لأن المعنى على أن  
يجعل له في التعلق بالشيء والاستيلاء عليه حالة كحالة الأسد مع فريسته ، والبازي  
مع صيده وكذا قول الحطيئة :

قروا جارك العيمان لما جفوته وقلص عن برد الشراب مشافره (١)

وأما النوع الآخر المفيد فهو الذي يحصر العلاقة فيه بين الأصل المفترض وبين  
الاستعمال القائم في الكلام بالتشبيه لأجل المبالغة ، ويشرحه لنا بقوله ( وأما المفيد  
فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني ، وغرس من الأغراض ، ولولا مكان تلك  
الاستعارة لم يحصل لك ، وجملة تلك الفائدة ، وذلك الغرس ، التشبيه ، إلا أن طريقه  
تختلف حتى تفوت النهاية ، ومذاهبه تتشعب حتى لا غاية . . . ومثاله قولنا : رأيت  
أسدا - وأنت تعني رجلا شجاعا - وبحرا - تريد رجلا جوادا ، وبدرا وشمسا تريد  
إنسانا مضيء الوجه مهللا ، وسللت سيفا على العدو - تريد رجلا ماضيا في نصرتك  
أو رأيا نافذا وما شاكل ذلك ، فقد استعرت اسم " أسد " للرجل ، ومعلوم أنك أفدت  
بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك ، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة ،  
وابتعاك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه واقدامه وبأسه وشدته ، وسائر  
المعاني المنسكركوزة في طبيعته ، مما يعود الى الجرأة . . . وهكذا أخذت باستعارة  
البحر سعته في الجود وفين الكف ، وبالشمس والبدر ما لهما من الجمال والبهاء والحسن  
المالي للعيون والباهر للنواظر ) (٢) .

وتوظيف الاستعارة للمبالغة أمر استقر في تراثنا النقدي والبلاغي أشار اليه

الرماني عهد حديثه عن عدد من الاستعارات القرآنية فمن ذلك قوله في قوله تعالى  
" أنا لما طفا الماء حملناكم في الجارية " (٣) . ( حقيقته عليلا والاستعارة أبلغ لأن  
طفى علا قاهرا ، وهو مبالغة في عظم الحال ) (٤) .

وقوله في قوله تعالى ( سنفرغ لكم أيها الثقلان ) (٥) ( والله عز وجل لا يشغله

شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ في الوعيد ، وحقيقته سنعمد ، إلا أنه لما كان الذي

- 
- (١) المصدر السابق : ١٢٩/١ (٢) المصدر السابق : ١٢٦/١  
(٣) سورة الحاقة : ١١ (٤) النكت : ٨٧  
(٥) سورة الرحمن : ٣١

يعمد الى شي<sup>٥</sup> قد يقصر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب ما يجرى به التعارف ، دلنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ، ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند الخاصة والعامّة موقع الحكمة ( ١ ) .

وقال به أبو هلال حيث يقول ( الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة الى غيره لفرض ، وذلك الفرض اما أن يكون شرح المعنى وفضل الابانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الاشارة اليه بالقليل من اللفظ ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه ) ( ٢ ) .

وأشار اليه ابن رشيق بقوله ( ولو بطلت المبالغة كلها وعييت لبطل التشبيه وعييت الاستعارة ) ( ٣ ) .

وقال أبو الفتح عثمان بن جنى ( الاستعارة لا تكون الا للمبالغة ، والا فهي حقيقة ) ( ٤ ) .

وقال ابن الخطيب الرازي عن الاستعارة ( انها ذكر الشبي<sup>٥</sup> باسم غيره واثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه ) ( ٥ ) .

ويقول الخطيب القزويني معرفا الاستعارة ( وهي ما كانت علاقته تشبيهه معناه بما وضعه وقد تقيد بالتحقيقية لتحقق معناها حسا أو عقلا . . فيقال ان اللفظ نقل عن مسماه الأصل فجعل اسما له على سبيل الاعارة للمبالغة في التشبيه ) ( ٦ ) .

وهذه الوظيفة للاستعارة التي أصرروا عليها أمر يستقر مع رؤيتهم التي درجوا عليها في نظرتهم الى التشبيه ، فاذا كان التشبيه يقوم على الحاق فرع بأصل وتكون بالمبالغة تبعا لدرجة القرب والبعيد بين المتشابهين أو درجة الادعاء تبعا لحال ذكر الأداة ، والجامع الكلي فان في الاستعارة القائمة على فكرة التشبيه الغاء لفكرة التشبيه فسرفي تراشنا النقدي والبلاغي بالادعاء والتناسي وحمل لواء هذا التفسير الامام عبد القاهر وجاهد في سبيل الانقصار له جهادا يتضح لقارئه معاناته في الدفاع عن هذه الفكرة فهو يقول : ( واعلم أنك ترى الناس وكأنهم يرون أنك اذا قلت : رأيت أسدا وأنت تريد التشبيه كتت نقلت لفظ أسد عما وضع له في اللغة واستعملته في معنى غير معناه حتى كأن ليس الاستعارة الا أن تعمد الى اسم الشبي<sup>٥</sup> فتجعله اسما لشبيهه وحتى كأن لا فصل بين الاستعارة وبين تسمية المطر سماء والنبت غيثا والمزادة راوية ، وأشباه

- 
- |       |                |       |                                 |
|-------|----------------|-------|---------------------------------|
| ( ١ ) | النكت : ٨٨     | ( ٢ ) | اصناعتين : ٢٧٤                  |
| ( ٣ ) | العمدة : ٥٥/٢  | ( ٤ ) | المصدر السابق : ٢٧٠/١           |
| ( ٥ ) | الطراز : ٢٠١/١ | ( ٦ ) | الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٤٥/٤ |

ذلك مما يوقع فيه اسم الشيء على ما هو ملته بسبب ، ويدهبون عنا هو مركز في الطباع من أن المعنى فيها المبالغة ، وأن يدعى في الرجل أنه ليس برجل ولكنه أسد بالحقيقة (١) .

( ويستمر في مناقشة هذه القضية مبينا أن الاستعارة ليست لمجرد النقل قائلًا : والله إنما يطار اللفظ من بعد أن يعار المعنى ، وأنه لا يشترك في اسم الأسد إلا من بعد أن يدخل في جنس الأسد لا ترى أحد يعقل إلا وهو يعرف ذلك إذا رجع إلى نفسه أدنى رجوع ، ومن أجل أن كان الأمر كذلك رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبداً أبلغ من الحقيقة (٢) .

ويضيف الامام عبد القاهر مبينا أن هذه الأبلغية لا تتحقق مع النظر الـمـى الاستعارة بأنها ليست إلا مجرد نقل قائلًا ( والا فان كان ليس ههنا الا نقل اسم من شيء الى شيء فمن أين يجب لـيت شعري أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة ويكون لقولنا : رأيت أسدا مزية على قولنا : رأيت شبيها بالأسد ، وقد علمنا أنه محال أن يتغير الشيء في نفسه بأن ينقل إليه اسم قد وضع لغيره من بعد أن لا يراد من معنى ذلك الاسم فيه شيء بوجه من الوجوه بل يجعل كأنه لم يوضع لذلك المعنى الأصل أصلا وفي أي عقل يتصور أن يتيسر معنى شبيها بالأسد بأن يوضع لفظ أسد عليه وينقل إليه (٣) .

والامام عبد القاهر بمسألة الدعاء هذه يحاول أن يقدم لكثير من الاستعارات في الكلام العربي حجة تدافع بها عن نفسها أمام محكمة النظرة العقلية والمنطقية التي لا ترتضي للعمل الفني أن يعيد تشكيل الواقع بأن يقيم علما فنيا يعلو على الواقع الخارجي . تلك النظرة التي نظرت الى مجموعة من استعارات أبي تمام فجعلتها من مرزول الألفاظ وقبيح الاستعارات وأوردت لذلك أمثلة منها قوله :

يا دهر فوم من أخذ عيلك فقد  
اضججت هذا الأنام من حرقك  
وقوله :

ألا لا يمد الدهر كفا بسبي  
والدهر الأم من شرقت بلومه  
وقوله :

إذا للبت عار دهر كأنما  
وقوله يرثي غلاما :

أنزلته الأيام من ظهرها من  
بعد اثبات رحله في الركاب

(١) دلائل الاعجاز : ٣٣١ ، ٣٣٢ (٢) المصدر السابق : ٣٣٢

(٣) دلائل الاعجاز : ٣٣٢

وقوله :

كأنني حين جردت الرجاء له

عضبا صبت بنيه ماء على الزمن

وقوله يصف فرسا :

وكان فارسه يصرف ان بددا

في منته ابنا للصباح الأبلق

وعلقت عليها قائلة ( وأشباه هذا ما اذا تتبعته في شعره وجدته كثيرا ، فجعل كما ترى مع غثاثة هذه الألفاظ - للدهر أخذعا ، وبدا تقطع من الزند ، وكانه يصرع ، وجعله يشرق بالكرام . . . والليالي كأنها عوارك ، والزمان كأنه صب عليه ماء ، والفرس كأنه ابن للصباح الأبلق ، وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبعد من الصواب ( ١ ) .

وقد وجد الامام عبد القاهر في ربطه وظيفه الاستعارة بالادعاء مخرجا لهذه الاستعارات بل انه أوضح أنه لا يمكن اخراج الاستعارة على زعم النقل في مثل هذه الاستعارات التي أطلق عليها فيما بعد مصطلح الاستعارة المكنية ، وذلك حيث يقول : ( واعلم أن في الاستعارة مالا يتصور تقدير النقل فيه البتة وذلك مثل قول

ليبد :

وغداه ريح قد كشفت وقرة

ان أصبحت فيد الشمال رمامها (

مبينا أنه لا خلاف في أن اليد استعارة رادا على من زعم أن لفظ اليد نقل عن شيء الى شيء بأن ليس المعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكن أن يزعم أنه نقل لفظ اليد اليه ، وانما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال في تصريفها الغداه على طبيعتها شبه الانسان قد أخذ الشيء يقلبه ويصرفه كيف يريد فلما أثبت لها مثل فعل الانسان باليد استعار لها اليد ( ١ ) .

وقد طبق لنا الامام هذه النظرة على بيت الحماسة :

اذا هزه في عظم قرن تهللت

نواجذ أقواه المنايا الضواحك

قائلا ( فانه لما جعل المنايا تضحك جعل لها الأقواه والنواجذ التي يكون

الضحك فيها . .

فأنت الآن لا تستطيع أن تزعم في بيت الحماسة أنه استعار لفظ النواجذ ولفظ الأقواه ، لأن ذلك يوجب المحال ، وهو أن يكون في المنايا شيء قد شبهه بالنواجذ وشيء قد شبهه بالأقواه ، فليس إلا أن نقول انه لما ادعى أن المنايا تسردو تستبشرون اذا هو هز السيف وجعلها لسرورها بذلك تضحك أراد أن يبلغ في الأمر فجعلها في صورة من يضحك حتى تبد ونواجذه من شدة السرور ( ٢ )



وتظل فكرة الإدعاء في الاستعارة للمبالغة التي حمل لواءها الامام عبد القاهر حاطة للشك والريب واحتمال الكذب في الاستعارة على الرغم من أن الامام حاول أن يدفع عنها ذلك ببيان أن القصد من الاستعارة اثبات الشبه ( واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخيل لأن المستعير لا يقصد إلى اثبات معنى اللفظة المستعملة وانما يهدف إلى اثبات شبهه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره ، وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن وهي كثيرة التنزيل على ما لا يخفى كقوله عز وجل " واشتعل الرأس شيبا " ثم لا شبهه في أن ليس المعنى على اثبات الاشتعال ظاهرا وانما المراد اثبات شبهه ( ١ ) . ولقد سبق أن بينا تناقض الامام عبد القاهر في ذلك .

أما في النقد الحديث فقد تجاوز البناء الاستعاري هذه الوظيفة وذلك لأن النظرة الى الاستعارة في النقد الحديث نظرت اليها في ذاتها وفي ضوء استعمالها وسياقها الذي نمت فيه واعتبرتها عنصرا أساسيا يعتمد العمل الأدبي ويخلقه بواسطة اللغة انطلاقا من أن محور عمل الأديب هو اللفظة التي يتصرف فيها على قدر عمق رؤيته ، واستبصاره للأشياء . فتراه يقيم علاقات بين المتباعدات . ويقيم وجودا للأشياء يختلف عن وجودها الخارجي وما ذلك الا لأنها أصبحت من ذاته ، تستمد قيمتها من رؤيته التي تدخل في تكوينها العناصر والباعثة سواء كانت عناصر انفعالية أو ثقافية ( فاذا كانت القصيدة استعارة كبرى واذا كانت كل صورها وأدواتها الشعرية تعتمد على تغيير المعنى وتصحيح الانحراف المقصود فما هي وظيفة كل ذلك ؟ لماذا نقوم بتغيير المعنى ولا نسمي الأشياء بأسمائها ؟ لماذا يتحدث الشاعر عن " المنجل الذهبي " ويقصد القمر ؟

والاجابة على هذه التساؤلات تكمن في التناقض أو التناظر القائم بين المعنيين المعنى الفكري ، والمعنى الاليحائي العاطفي . فكلاهما لا يتعايش مع الآخر في نفس الوعي والضمير ، وليس بوسع الدال أن يؤدي دلالتين متناظرتين في نفس الوقت ، ولهذا فان الشعر يقوم بما أطلق عليه " حركة الالتفاف " يقطع الحبل الأصلي الذي يهمل بين الدال والفكرة كي يضع مكانه الانفعال ، أو الاحساس ، يحاصر نظام الدلالة القديم ليجعل من الممكن تشغيل النظام الجديد ، وبهذا فان الشعر ليس مجرد شيء مختلف عن النثر ، بل هو ضد النثر ، وليست الاستعارة مجرد تغيير في المعنى ولكنها نسخ له وسخط لمعالمه ، فالكلمة الشعرية تتضمن موت اللفظة وبعثها في آن واحد ، وليس بوسع الشاعر أن يسمي الأشياء بأسمائها ولا أن يقول " قمرا " وحسب لأن هذه

الكلمة تثير فينا وفي ضائرنا حالة باردة محايدة ، ولكنها كي تثير صورة وجدانها لا بد أن تلجأ الى الحيلة الشعرية الى انتهاك قوانين اللغة العادية ، ولأنق للشاعر ان أن يقول عن القمر انه " منجل ذهبي في حقل النجوم " فيتعد عن قوانين اللغة التي لا تسمح بتلافي هذه الكلمات على هذا الشكل ليؤدى وظيفته الشعرية الحميمة ( ١ ) .

وتحليل الاستعارة والبحث عن أركانها مستعار . ومستعار له ، وعلاقة المشابهة بينهما أمر يميم عمل الشاعر ، ويلغى شاعريته لأنه يردنا عن لغة الشاعر المبدعة الخلاقة الى اللغة العادية الايصالية التي يتجاوزها الشاعر في اللحظة التي نعد عمله شعريا ومن هذا المنطلق يقول الدكتور صلاح فضل ( ينطلق النقاد عادة من مبدأ عام ان يقترضون أن كل قصيدة لها معنى عام ويتصورون مهمتهم على أنها اكتشاف هذا المعنى فاذا قرأوا لأحد الشعراء بيتا يقول :

فوق السطح الهادى تدرج الحمائم

أدركوا من قرائن القصيدة أنه يعني بالسطح البحر ، وبالحمائم المراكب ، وهم على حق في ذلك فمن يفهم غير هذا يخون الشاعر ، لكن هذا المعنى انسياب المراكب فوق الماء الهادى - ليس شعريا في حد ذاته بدليل أننا يمكن أن نوّديه بعبارة نثرية عادية كما فعلنا . ويبدأ الشعر في اللحظة التي نسمي فيها البحر سطحا والمراكب حمائم ، عندئذ يحدث اعتداء وجرح لشفرة اللغة ، أى انحراف عن الاستخدام العادى هذا الانحراف هو الذى كانت تسميه البلاغة القديمة استعارة ، وهو وحده الآن الموضوع الحقيقي لدراسة الشعر ( ٢ ) .

ويغنى النظر عن اختلافنا معه في تسمية هذا الانحراف بالاستعارة - ان ليست الاستعارة الا جزءا من صور هذا الانحراف الذى تختلف تسمياته في البلاغة العربية بمصطلحات تدخل تحت اسم المجاز - فهو محق في اشارته الى أن نقد الشعر يجب أن يبدأ من اللحظة التي تتكون فيها الكلمة الشاعرة ، ويكون العمل النقدي متجه إليها والى البحث عن سر الخلق اللفوى والابداع الشعرى فيها عن طريق النظر الى تفاعل الكلمة مع السياق ذلك التفاعل القائم على الأخذ والعطاء ، والذى لا يقتصر على النظر الى السياق في ترابطه الذهني المنطقي ، وذلك لأن ( أمر التفاعل بين الحدود لا ينجلي تماما ، الا بالتفرقة بين التركيب العضوى ، والتركيب المنطقي ، فالتركيب المنطقي موصوف بالآلية ، اجزأه مستقلة والعلاقات بين هذه الأجزاء اضافة بحيث لا

( ١ ) نظرية البنائية في النقد الأدبي : ٢٨٠

( ٢ ) المرجع السابق : ٢٧٧

يتأثر الجزء والعلاقة بين هذه الأجزاء بالنظم الكلي الذي يدخلان فيه ، أما التركيب الفني العضوى فيعني أن علاقة الجزء بالجزء تتضمن في ذاتها علاقة الجزء بكل التعبير فعناصر الاستعارة لا معنى لها إلا من حيث ارتباطها بذلك المجموع الذى تخلقه بوساطة ما بينها من تفاعل ، وبعبارة أخرى يقتضى الفهم العضوى لبنية الاستعارة أن نقول : إن الاستعارة تقدم إلينا حدودا لا وجود كاهلا لها في خارج التعبير الذى أنتجته هي نفسها (١) .

وهذه الفكرة في التفرقة بين التركيبين هي التي جعلت الدكتور مصطفى ناصف يقول أيضا " ومن ثم كان تفسير المجاز أمرا محفوقا بالصعاب ، ولا يمكن أن يأخذ إلا جهة واحدة ويمثل لذلك بالفرق بين " أبواب الحياة الحديدية " و " أبواب المنتزه الحديدية " فالأبواب الحديدية جزء من المنتزه ، والعلاقة بينهما ثابتة لا تتغير على حين أن العبارة المجازية إذا أخذت مأخذ التفاعل بين جميع أجزائها تبين لنا فكرة الحياة في مشهد الأبواب الحديدية ، والأبواب الحديدية في مشهد الحياة ، وبحسب اختلاف وجهتي النظر الممكنتين إلى العبارة تتأثر الحياة بفكرة الأبواب الحديدية ، وتتأثر الأبواب الحديدية بفكرة الحياة تارة أخرى . وإذا نظرنا إلى الطرفين ، كل في مقام الآخر ، غدا الشبه الحقيقي معنى أنتجه التفاعل بين الحدين اللذين يشكلان معا المشبه به ، فالمشبه نوع من الحياة يمكن أن نتهلئ به في مواجهة الأبواب الحديدية ونوع من الأبواب الحديدية خليق بالتأمل في مواجهة الحياة (٢) .

وهذه الوظيفة التي اكتشفها النقد الحديث في الاستعارة ، والتي ترتفع على المعنى المعروف لكليهما لخلق وحدة جديدة معقدة أمر قد يقضى مسكلة الاستعارة بالكناية التي يرتد فيها البلاغيون إلى معنى المشابهة ، ثم يضطرون إلى أن يفترضوا أن المستعار حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه يقول الدكتور مصطفى ناصف فلسنا في هذا النموذج أمام مشابهة مكنية . . . ذلك لأننا لا نميل إلى أن تكون المنية في بيت أبي ذؤيب المشهور ، مشبهة بالسبع في اغتيال النفوس ، ولا نميل إلى أن المنية هي السبع بادعاء السبعية لها وانكار أن تكون شيئا آخر غير السبع ، ولن نرى أن المكنية هي التشبيه المضمرة في النفس الرموز إليه بإثبات لازم المشبه به للمشبه ( وهذا الإثبات هو الاستعارة التخيلية ) المقام أيسر من ذلك ، فالاستعارة لا علاقة لها مباشرة بالسبع والمشابهة وإنما هي العالم الخيالي الذى يعيش فيه الشاعر ، ويؤثره على التخيلات الساذجة الأولى التي قال بها كولردج ، فقد أعيد تنظيم الاحساس بالمنية والسبع

وأعطى لهذين العنصرين وظيفة جديدة ، بل ربما يستحيل افتراس المنية نفسه —  
 عنصرا آخر متميزا من ذلك السبع نفسه . وقد غاب عن أذهان محللي الاستعارة أن —  
 العناصر التي يتناولها الشاعر بالتفكيك ، وإعادة التركيب تصبح فعلا في الاستعارة  
 جديدة ، وأن هذه الجودة المتخيلة هي مصدر ما في الاستعارة من روعة <sup>(١)</sup> وذلك  
 لأن ( الخيال في الاستعارة حين يستعين ببعض العناصر الحسية إنما يريد من وراء  
 ذلك غاية أخرى هي التسامي عليها وخلق مقولة أو عالم خيالي ثاني يدل منها <sup>(٢)</sup> .  
 وما عسى أن يكون مصير المبالغة في الاستعارة بعد رفض فكرة تحليل الاستعارة  
 الى مكوناتها المفترضة ، والدعوة الى التعامل معها كوجود جديد ليس له مقابل  
 خارجي ؟

ان المبالغة تجاوز لواقع أوعادة ، ويتم ذلك بداهة بمقارنة الوجود بالواقع  
 والعادة ، ولكننا ما دمنا قد رفضنا قاطعا في الاستعارة وتحويلها الى ما يزعم  
 أنه مكوناتها على ضوء أن الاستعارة اختصار لتشبيه ، وأنها عدول عن حقيقة أصلية ،  
 فلا مجال للحكم على الاستعارة بالمبالغة وتجاوز الواقع والعادة ووضعها في قوس  
 الاتهام والدفاع عنها باخراجها وتبرئتها من تهمة الكذب وذلك لأن ( الاستعارة  
 عملية خلق جديد في اللغة ، ولغة داخل اللغة ، فيما تقيمه من علاقات جديدة بين  
 الكلمات . وبها تحدث اذابة لعناصر الواقع ليعاد تركيبها من جديد ، وهي في هذا  
 التركيب الجديد كأنها منحوت جانبا كانت تفتقده ، وهي بذلك تبت حياة داخل  
 الحياة التي نعرف أنماطها الرتيبة ، وهي بذلك تضيف وجودا جديدا ، أي تزيد  
 الوجود الذي نعرفه ، هذا الوجود الذي تخلقه علاقات الكلمات بواسطة تشكيلات لغوية  
 عن طريق تمثيل جديد له . <sup>(٣)</sup>

(١) الصورة الأدبية : ١٣٧ : ١٣٨ (٢) المرجع السابق : ١٣٨

(٣) فلسفة البلاغة : ١٥٧

## ٣ - المبالغة في الكناية

ان تقديم استعراش تاريخي لتعريف الأسلوب الكنايبي وتطوره أمر لا يهيم هذا البحث<sup>(١)</sup> ، وانما الذى يهيمه أن النظرة الغالبة الى الكناية في تراثنا النقدي والبلادي تنظر اليها على أنها دلالة اشارة تفهم لازما لمعنى الكلام مبهمة لدلالة الألفاظ التي يحملها ذلك التركيب اللغوي .

فالا مام عبد القاهر يعرفها بقوله : ( والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجي \* الى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوصي \* به اليه ، ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم " هو طويل النجاد " يريدون طويل القامة " وكثير رماذ القدر " يعنون كثير القرى ، وفي المرأة " نووم الضحى " والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكره بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا اليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود وأن يكون اذا كان ، أفلا ترى أن القامة اذا طالت طال النجاد ؟ واذا كثر القرى كثر رماذ القدر ؟ واذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها (٢) ذلك أن تمام الى الضحى ؟ ) ويعرفها السكاكي بقوله ( الكناية هي ترك التصريح بذكره الى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور الى المتروك كما تقول فلان طويل النجاد ولينتقل منه الى ما هو ملزومه وهو طول القامة ، وكما تقول : فلانة نووم الضحى لينتقل منه الى ما هو ملزومه - وهو كونها مخدومة غير محتاجة الى السعي بنفسها في اصلاح المهمات )<sup>(٣)</sup> ويعرفها الخطيب القزويني بقوله ( الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز ارادة معناه حينئذ كقولك فلان طويل النجاد أى طويل القامة وفلانة نووم الضحى أى مرفهة مخدومة غير محتاجة الى السعي بنفسها لنى اصلاح المهمات )<sup>(٤)</sup> .

واما افادتها المبالغة فقد أشار اليها الامام عبد القاهر عندما قال : ( اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهرة ، والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم اليها بخبره ولكنها في طريق اثباته لها ، وتقريره اياها )<sup>(٥)</sup> بعد قوله ( قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الافصاح والتعريف : أوقع من التصريح ، وأن للاستعارة

- ( ١ ) لقد كفانا مؤنة ذلك الدكتور محمود السيد شيخون في كتابه : الأسلوب الكنايبي .  
 ( ٢ ) دلائل الاعجاز : ٥٢ ( ٣ ) مفتاح العلوم : ١٧٠  
 ( ٤ ) الايضاح : ١٨٣ ( ٥ ) دلائل الاعجاز : ٥٦

مزية وفضلا ، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة (١) . ويقول مفسرا هذا الشئ — أن في الكناية ( تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا : ( ان الكناية أبلغ من التصريح ) أنك لما كنيت عن المعنى فردت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في اثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشد فليست المزية في قولهم : جسم الرماد . أنه دل على قرى أكثر بل إنك أثبت له القرى الكثير من وجه عو أبلغ وأوجبته ايجابا هو أشد وادعيت دعوى أنت بها أنطق ، وبصحتها أوثق (٢) ، ويضيف قائلا ( وان قد عرفت مكان هذه المزية والمبالغة التي لا تزال تسمع بها وأنها في الاثبات دون المثبت فان لها في كل واحد من هذه الأجناس — الكناية — الاستعارة — المجاز — سببا وعللة . اطل الكناية فان السبب في أن كان للاثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم اذا رجع الى نفسه أن اثبات الصفة باثبات دليلها . وايجابها بما هو شاهد في وجودها ، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا سادجا غفلا ، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها الا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجاوز والفلط (٣) .

وافادة الكناية للمبالغة أمر أشار اليه أيضا الزركشي حيث ذكر أن من فوائده الكناية ( قصد المبالغة في التشنيع كقوله تعالى حكاية عن اليهود — لعنهم الله — "وقالت اليهود يد الله مفلولة ، غلت أيانهم ، ولعنوا بما قالوا (٤) فان الفل كناية عن البخل وقوله تعالى " بل يدهاه مبسوطتان " (٥) ، كناية عن كرمه (٦) .

وان حجة الحموى عندما تحدث عن قول ليلي الأخرية :

ومخرق عنه القميص تغالسه وسط البيوت من الحياء سقيما

فقال ( كنت عن الافراط في الجود بمخرق القميص لجذب العفاة له عن — ازد حامهم عليه لأخذ العطاء (٧) .

ولا زم الكناية هذا الذي التفتوا اليه ، وجعلوا من وظائفها المبالغة في الدلالة عليه أمر استحوذ على اهتمامهم ، وكفاهم مؤونة البحث في الدلالة اللغوية لهذه التراكيب وكأنها ليست الا مجرد أصوات تشير الى لازمها المستعين .

ولقد اتخذت هذه التراكيب عبر التراث النقدي والبلاغي صفة الثبوت الديمومة وكانت معرفة اللازم والوسائط الذهنية بين التركيب وبين اللازم ، وأن الكناية جاءت

- |       |                         |       |                          |
|-------|-------------------------|-------|--------------------------|
| ( ١ ) | المصدر السابق : ٥٥      | ( ٢ ) | المصدر السابق : ٥٦ ، ٥٧  |
| ( ٣ ) | دلائل الاعجاز : ٥٧ ، ٥٨ | ( ٤ ) | سورة المائدة : ٦٤        |
| ( ٥ ) | سورة المائدة : ٦٤       | ( ٦ ) | البرهان في علوم القرآن : |
| ( ٧ ) | خزانة الأرب :           |       |                          |

للدلالة عليه من طريق هو أبلغ وأكد هي الغاية في البحث في هذه التراكيب الكنائية مع أن هذا اللازم ليس الا معرضا ومناسبة كلية من المناسبات التي قيلت فيها هذه التراكيب .

ف " بعيدة مهوى القرط " اتخذوها رمزا وكناية عن طول العنق . وهـذا التركيب جاء في قول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى القرط ، أما لنوفل أبوها ، واما عبد شمس وهاشم

وقال عنه قدامة بن جعفر : ( وانما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره

بلفظه الخاص به ، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد ، وهو بعد مهوى القرط )<sup>(١)</sup>

وقال أبو هلال العسكري ( فأراد أن يصف طول عنقها ، فأتى بمثل ذلك عليه من

بعد مهوى القرط ، وبعد مهوى القرط ردف لطول العنق )<sup>(٢)</sup> ولم ينفك السـ كـاكي

ولكن الدارس لدلالة التركيب اللغوية وسياق التركيب في البيت والنص يمكن أن

يجد فيه بعدا آخر يسمو على طول العنق ويتجاوزه . ذلك أن البيت ورد في قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي يقول فيها :

لها جيد ريم زينته الصرائم

رأيت بجنب الخيف هندا فراقتي

جنى أقحوان نبتته متاعم

وذو أشر عذب ، كأن نباته

ولي نظر لولا التحرج عارم

نظرت إليها بالمحصب من منى

بدت لك تحت السجف أم أنت حالم

فقلت أشمس ، أم مصابيح بيعة

وفي المرط منها أهيل متراكم

مهففة غراء ، صفر وشاخمها

أبوها ، واما عبد شمس وهاشم

بعيدة مهوى القرط ، أما لنوفل

على عجل تباعها والخوادم

وسد عليها السجف يوم لقيتها

عشية لاحت كفها والمعاصم

فلم استطعها غير أن قد بدا لنا

عصاها ووجهه لم تلحه السمائم

معاصم لم تضرب على البهم بالضحي

فالشاعر منذ البداية يقيم للمرأة وجودا في شعره يختلف عن وجودها الواقعي

ومقارنة ذلك الوجود بالواقع يخرج لنا هذا النص في صور مبثثة ، وممزقة .

ولقد كانت المرأة في الشعر العربي عالم قداسة ، وخصب ، ونماء ، وفي هذه

القصيدة يتجسد ذلك بصور شتى ، يراها الشاعر في مكان مقدس ، ويلفت نظره منها

الجيد ، ذلك الجيد الذي لم يعد جيد امرأة جميلة ، فحسب ، وانما أصبح جيد

(١) نقد الشعر : ١٥٨ (٢) الصناعتين : ٣٦٢

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة : الأشر : حده ورقة في أطراف الأسنان ومنه قيل :

شعر مؤشر ، وانما يكون ذلك في أسنان الأحداث وتفعله المرأة الكبيرة بتشبيهه

بأولئك ( لسان العرب : أشر ) - المرط : كساء من خز أو صوف أو كتان وقيل

هو الثوب الأخضر وجمعه مروق ( لسان العرب : مرط )

حيوان له في الشعر العربي مكانته ، التي ربما استمدّها من تقديس الجاهليين له .  
ويلفت نظره كذلك فاها الذي لم يعد ثفرا حاويا لأسنان جميلة ، وذا رائحة طيبة  
فحسب . بل يزيد على ذلك بأن أصبح رمزا للعطاء والخصب .

ولقد انبثقت هذا الوجود في جو قداسة الزمان والمكان ، الذي ارتبط بهيئة  
وجلال لهذه المرأة . . . وتأثر بهذا الوجود واقع الشاعر الحسي فتخرج نظره العارم  
وأصبح في عجز عن المجال القدسي الذي ارتفعت اليه ، وفي عجز عن تحديد موقفه  
هل هو في موقف تكون النظرة فيه واقعية ، أم أنه في عالم الأحلام :

نظرت اليها بالمحصب من منى      ولي نظر لولا التحرج عارم  
فقلت أشمس ، أم مصابيح بيعة      بدت لك تحت السجف أم أنت حالم

اننا نعقّي على رؤية هذا العالم القدسي لو قلنا انه أراد تشبيهها  
بالشمس أو مصابيح البيعة في الضياء والاشراق ونعقّي على علامة التشكك "أم" التي  
تحمل لنا انفصال المرأة عن وجودها الواقعي ، وابتعادها عنه الى ذلك العالم  
القدسي . مما جعل الشاعر يظهر لنا معاناته ، وحيرته في تصور ذلك العالم ، لأنه  
أبقى نفسه في واقعه ذو النظرة العارمة التي يقاومها التحرج ، والجلال ، والهيبة  
تلك الهيبة التي تستمدّها من نسبها العريق :

بعيد مهوى القرط ، أما لنوفل      أبوها ، وأما عبد شمس وهاشم

وإذا حصرتنا فائدة الكناية ( بعيدة مهوى القرط ) في الدلالة على طول العنق

عفينا على دلالة الألفاظ وحياتها داخل السياق .

فهنا لفظة "بعيد" وهنا "القرط" وهنا "نوفل" و"عبد شمس" و"هاشم"  
وهذه الأسماء تشترك في العزة والخطوة لديها ، فـ"نوفل" و"عبد شمس" و"هاشم"  
أسماء لها بعد في النسب عريق ، وهذا القرط في أذننها يحظى لديها بأن يستقر  
في مكان عال ، يستمدّ علوه من علو النسب والمهابة والجلال التي صبغها الشاعر عليها .  
لقد أقامها الشاعر في وجود يرفع رأسها ، ويمدّ عنقها ، فهي المتبوعـة  
المخدومة التي مدّ عليها الفطاء ، وأخفى عن ناظر الشاعر هذه الطول الممد من القدسية  
والجلال ، والجمال ، فلم يستطع أن يظفر بها لأنها مرت عندما نظر الى وجهها  
كالهلم ، ولم يستطع أن يتأملها ، ولم يبق من ذلك الوجود الا ما يراه من كفهـا  
ومعاصمها ، تلك المعاصم التي لا تزال في حرز من عراقة الحسب والنسب ، عن أن  
تضرب بها على البهم أو تقوم بما يقوم به السواد .

وهكذا يتضح لنا أن تحليل الكناية دون افعال لدلالات ألفاظها داخل

السياق ، يعطي لهذه الكناية حياة جديدة غير تلك التي كانت لها عندما انتزعت من



سيئقها التي قيلت فيه ، وأخذت كقوالب جاهزة لا يتغير مدلولها مهما تغيرت النصوص .  
وليس معنى ذلك أنها تتجرد عن مدلولها ، ولكن ذلك المدلول ليس هو كل  
شيء لأن ألفاظها لها حركة ووجود داخل كل نص يختلف عن حركتها ووجودها في أي  
نص آخر .

معنى "أبلغ" في قولهم : المجاز أبلغ من الحقيقة :

وقبل أن نحتكم هذا الفصل يجد ربنا أن نتبين ما الذي يعنيه العلماء بقولهم  
( المجاز أبلغ من الحقيقة ، والكناية أبلغ من التصريح ، والتصثيل أبلغ من غيره ) ،  
واجابة هذا السؤال توضح بالرجوع الى ما سبق أن ذكرناه عن دلالة "أبلغ"  
عند كثير من العلماء ، فلقد رأينا أنها في بعض النصوص ترتبط بالمبالغة وتفسر بها أو  
بمعناها<sup>(١)</sup> ، وفي بعضها الآخر تأتي في مجال الشفاظي بين كلمتين مفردتين كقولهم  
قد ير أبلغ من قادر<sup>(٢)</sup> .

وقد أثبت أيضا في مجال التفاضل بين آية وأخرى<sup>(٣)</sup> ، ومع أن صياغة أفعال التفضيل  
لا تأتي من الرباعي الا على رأى الأخفش والمبرد الذي ذكره ابن يعيش فقال ( وكان  
أبو الحسن الأخفش يحيز بناء أفعال من كذا ، من كل فعل ثلاثي لحقته زوائد ، قلت أو  
كثرت ، كاستفعل ، وافتعل ، وانفعل ، لأن أصلها ثلاثة أحرف ، قال : وانما قالوا :  
ما أعطاه للمال ، وأولاه للغير ، لأنه ثلاثي الأصل ، وهذا المعنى موجود في انطلق  
ونحوه مما فيه زيادة ، وتابعة أبو العباس المبرد . . . )<sup>(٤)</sup> . يـمـرـجـح أن تكون "أبلغ"  
في كل ما مر ذكره تقتضي المبالغة . بل انها فسرت بذلك في الموضع الأول ، وأما ترجيح  
اقتضاءها المبالغة في الموضعين الآخرين ، فانه لا وجه لأن تفضل كلمة أختها مجردة عن  
السياق الا بأن تكون احدهما تدل على زيادة في المعنى عن أختها . ومن هنا سمو  
بعض هذه الصيغ بصيغ المبالغة .

وأما في الموضع الآخر فان تنزيه الكتاب الكريم ، والايمان باعجاز كل آية منه  
يقتضينا أن نرجح انصراف "أبلغ" في هذه المفاضلة ، بين الآيات عند النقاد الى كونها  
منصرفة للدلالة على المبالغة لأنه لا يمكن أن تأتي بآية من سورة ونفضلها على آية في سورة  
أخرى بغير ذلك كأن نقول ان هذه الآية أو في بلاغة ، أو أفصح حيث أن لكل سورة سياقها  
الخاص . بل ان في السورة الواحدة سياقات مختلفة . ثم ان أولئك النقاد كانوا يأتون  
بأبلغ اذا جاءت في المفاضلة بين الآيات - كما رأينا في الباب الأول - مجردة او يخصصونها  
بالأبلغية في الفرض ، ولا يقرنونها بأى شيء آخر يمكننا أن نستنتج منه أنهم يريدون تفضيل  
آية في البلاغة على آية .

ولذلك تصرف "أبلغ" في هذه المواضع الى المبالغة سواء كان ذلك عن طريق صياغة  
"أفعل" التفضيل من الرباعي ، على رأى الأخفش والمبرد ، أو كان ذلك عن طريق صياغة

( ١ ) انظر ديوان المعاني ١٢٢/١ ، ١١٢/٢ ، ١١٠/٢ وحديثنا عن دلالة "أبلغ"  
عند أبي هلال ص من هذا البحث .

( ٢ ) انظر المحتسب : ١٣٤/٢ ، والخصائص : ٢٦٧/٣ ، والمثل السائر : ٦٠/٢

( ٣ ) انظر الكشاف : ١٤١/٣ والصناعتين ( ٤ ) شرح المفصل : ٩٢/٦

أفعل التفضيل من بلغ بمعنى وصل وانتهى ، فتكون أبلغ وصولا ونهاية في المعنى فهي لذلك تحمل المبالغة عن هذا الطريق ، وذلك لأن من معاني بلغ الوصول والنهاية كما رأينا عند أبي هلال العسكري <sup>(١)</sup> ، وكما نراه الآن في قول ابن منظور ( بلغ الشيء يبلغ بلوغا ، وبلاغا وصل وانتهى ، وأبلغه هو ابلاغاً ، وبلغه تليفاً ، وقول أبي قيس بن الأسلت :

قالت : ولم تقصد لقليل الخنى مهلا فقد أبلغت أسـماعي

أما هو من ذلك ، أي قد انتهيت فيه ، وأنعمت <sup>(٢)</sup> وقوله ( وبلغ النبـت انتهى ) <sup>(٣)</sup> وإذا جئنا إلى ما نحن بصدده من معنى أبلغية المجاز ، والكنائية ، والاستعارة وجدنا الامام عبد القاهر يقول ( قد أجمع الجميع على أن الكناية ، أبلغ من الافصاح ، والتعريض ، وأوقع من التصريح ، وأن للاستعارة مزية وفضلا . وان المجاز أهدأ أبلغ من الحقيقة . الا أن ذلك وان كان معلوما على الجملة ، فانه لا تطمئن نفس المناقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ به غايته ، وحتى يفلغل الفكر إلى زواياه ) <sup>(٤)</sup> . ويضيف قائلا ( اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم ان ليست العزية التي تتبعها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة ، التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم اليها بخبره لكنها في طريق اثباته لها ، وتقديره اياها فهو هنا لا يفسر " أبلغ " بالمبالغة ، وانما يجعل المبالغة جزءا وميزة من مزايا هذا الأجناس التي أصبحت بها " أبلغ " مما يدل على أن مدلول " أبلغ " هنا أكثر سعة لتشمل المبالغة ، والتقدير ، والتوكيد وما شابه ذلك مما جعله من مزايا هذه الأجناس . وبالمبالغة شرح ابن يعقوب المغربي قول الخطيب القزويني ( أطبق البلفاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ) حيث قال ( أبلغ أي أكثر مبالغة في اثبات المقصود ) <sup>(٥)</sup> ، وقال الدسوقي في ذلك ( قيل عليه ان أبلغ ان كان مأخوذا من بلغ بضم اللام بلاغة ، ففيه أن البلاغة لا يوصف بها المفرد ، والكناية كلمة مفردة والمجاز قد يكون كلمة ، وأيضا الحال ان اقتضى الحقيقة كانت البلاغة في الاثبات بها ، ولا عبرة بغيرها من كناية أو مجاز ، وان اقتضى المجاز والكناية كانت البلاغة في الاثبات بما ذكر ولا عبرة بالحقيقة ، وان كان مأخوذا من بالغ مبالغة ففيه أن أفعل التفضيل لا يصاغ من الرباعي . وقد يجب باختيار الأول وأن المراد البلاغة اللفوية وهي الحسن فقله أبلغ من الحقيقة أي أفض وأحسن منها ، ويصح ارادة الثاني بناء على مذهب الأخفش والمبرد المجوزين لصوغ أفعل التفضيل من الرباعي ، والمعنى أكثر مبالغة في

- 
- (١) الصناعتين : ١٢  
(٢) لسان العرب : بلغ  
(٣) لسان العرب : بلغ  
(٤) دلائل الاعجاز : ٥٥ ، ٥٦  
(٥) المصدر السابق : ٥٦  
(٦) مواهب الفتح ضمن شرح التلخيص : ٤/٥

اثبات المقصود (١) . وقد رأينا فيما سبق أنه يجوز أن يكون من بلغ بمعنى وصل وانتهى فيكون أبلغ وصولا في تأدية المعنى المراد .

ولقد جعلها البهاء السبكي من بلغ بالفتح فقال ( قولنا في هذا الفصل كله الكناية والمجاز أبلغ هو بالمعنى اللغوي كقولنا فعيل أبلغ من فاعل ، وليس من البلاغة المصطلح عليها في هذا العلم لأمرين أحدهما : أن تلك لا تكون في المفرد ، ولا شك أن المجاز والكناية يكونان مفردين غالبا . نعم ما ذهب إليه عبد القاهر من أن الأبلغية في الاثبات يمضي معه في تسمية ذلك بلاغة بالاصطلاح . الثاني : أن أبلغ أفضل تفضيل فاذا حملت على المعنى اللغوي كان على باب من التفضيل لأن الحقيقة بالغة للمقصود بكل حال ، فالمجاز أبلغ منها ، فاذا حملناه على الاصطلاح كان من بلغ بالضم وهو دليل على حصول البلاغة بالحقيقة ، وليس كذلك لأن الحقيقة المجردة لا بلاغة فيها ، فلا يكون من بلغ بالضم بل من بلغ بالفتح (٢) .

وانا كانت البلاغة العربية لها اهتمام كبير بالمخاطب ، وايصال المعنى اليه ، وتبليغه اياه . فتلح كثيرا على التقرير والتوكيد ، والاثبات ، فان ذلك يرجح أن تكون " أبلغ " اذا كانت مطلقة مأخوذة من البلاغ ( وهو الاسم من البلاغ والتبليغ . وهما الايصال ، وفي الحديث " كل رافعة رفعت علينا من البلاغ ) (٣) . فلذلك يكون معناها أكد ، وأشد تقريرا ، واثباتا وايصالا للمعنى ، ونفاذا له قال في القاموس ( وأمر الله بلغ أى بالغ نافذ يبلغ أين أريد به ) (٤) . على ذلك جاء القول ( اللهم سمع لا بلغ وسمعا لا بلغا أى نسمع به ولا يتم أو يقوله من سمع خبرا لا يعجبه ) (٣) . ولذلك قال أبو هلال العسكري ( فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى الى قلب السامع فيفهمه ) (٤) . ومن هنا تكون " أبلغ " أفضل تفضيل على ذلك ، ويلاحظ أن معرفة المفاضلة في الايصال ، والاثبات ، والتقرير ، والتوكيد ، ترتبط بالكلام اذا كان مركبا ، وأما اذا كانت المفاضلة بين كلمتين مفردتين مثل قولهم فعيل أبلغ من فاعل فان المفاضلة تنصرف الى الزيادة في المعنى عن طريق بلوغ النهاية فيه ، وتكون هنا اما على بابها بمعنى انتهى أو مأخوذة من " الغ " كما سبق أن أشرنا الى ذلك .

ويبقى علينا بعد ذلك أن نعرف ما الذى يقصده الامام عبد القاهر عندما ناقش أبلغية هذه الأجناس ؟ ولمعرفة ذلك علينا أن نعرض من كلامه ما نعتقد أنه يعطينا تكاملا للقضية التي طرحها ، فهو يقول ( قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من

( ١ ) حاشية الدسوقي على شرح السعد ضمن شروح التلخيص : ٢٧٥ / ٤

( ٢ ) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٢٨١ / ٤

( ٣ ) القاموس المحيط : بلغ وانظر المادة نفسها في لسان العرب وتهذيب اللفظة .

( ٤ ) الصناعتين : ١٢٠

من الإفصاح ، والتمريض أوقع من التصريح ، وأن للاستعارة مزية وفضلا ، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة . إلا أن ذلك وإن كان معلوما على الجملة فإنه لا تظمن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته ، وحتى يفلغل الفكر إلى زواياه وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة ( ١ ) .

فهو هنا كما تلاحظ لا ينفي عنها الألفية وإنما يريد أن يؤكد لذلك ويقسره ، ويدفع كل شبهة تشكك فيه ، ثم يقول ( اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أن ليست المزية التي تشبها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدعي لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره ، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها ) ( ٢ ) . وهنا نراه يجعل من ألفية هذه الأجناس ومزاياها : المبالغة ولكنها لا يجعلها في المثبت بل في طريقة الإثبات يقول في تفسير ذلك ( تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا : " إن الكناية أبلغ من التصريح " أنك لما كنيث عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشد ، فليست المزية في قولهم جُم الرماد ، أنه دل على قرى أكثر ، بل إنك أثبت له القرى الكثير من وجهه هو أبلغ ، وأوجبه إيجابا هو أشد ، وأدعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق .

وكذلك ليست المزية التي تراها لقولك " رأيت أسدا " على قولك " رأيت رجلا " لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجرأته " أنك أفدت في الأول زيادة في مساواته الأسد ، بل أنك أفدت تأكيدا وتثديدا وقوة في إثباتك له هذه المساواة وفي تقريرك لها فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته ، بل في إيجابه والحكم به ( ٣ ) ثم يشرح السبب في كل ذلك فيقول ( وإن قد عرفت مكان هذه المزية والمبالغة التي لا تزال تسمع بها وأنها في الإثبات دون المثبت ، فإن لها في كل واحد من هذه الأجناس سببا وعلة . أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها ، أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجي إليها فتثبتها هكذا شأن جسا غفلا ، وذلك أنك لا تدعى شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط .

وأما الاستعارة فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت رأيت أسدا كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة حتى جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول ، وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوده ، وذلك أنه إذا كان أسدا

( ١ ) دلائل الاعجاز : ٥٤ ، ٥٦ ( ٢ ) المصدر السابق : ٥٧

( ٣ ) المصدر السابق : ٥٦ ، ٥٧

فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة ، وكالمستحيل أو الممتع أن يمرى عنها  
وإذا صرحت بالتشبيه فقلت : رأيت رجلا كالأسد كنت قد أثبتتها إثبات الشيء ، يترجح  
بين أن يكون وبين أن لا يكون ، ولم يكن من حديث الوجوب في شيء .

وحكم التمثيل حكم الاستعارة سواء ، فإنك إذا قلت : أراك تقدم رجلا وتؤخر  
أخرى ، فأوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحير والتردد كان أبلغ لا محالة من أن  
تجرى على الظاهر فتقول : قد جعلت تردد في أمرك فأنت كمن يقول اخرج ولا أخرج ،  
فيقدم رجلا ويؤخر أخرى (١) .

واعترض الخطيب القزويني على عبد القاهر في ذلك فقال ( ولقائل أن يقول قد  
تقدم أن الاستعارة أصلها التشبيه ، وأن الأصل في وجه الشبه أن يكون في المشبه به  
أتم منه في المشبه ، وأظهر فقولنا : رأيت أهدا يفيد للمرء شجاعة أتم مما يفيدها قولنا :  
رأيت رجلا كالأسد لأن الأول يفيد شجاعة الأسد والثاني شجاعة دون شجاعة الأسد )  
وأجاب عن ذلك بقوله ( ويمكن أن يجاب عنه بجمل كلام الشيخ على أن السبب في كل  
صورة ليس هو ذلك لا أن ذلك ليس بسبب في شيء أصلا (٢) . وإذا عرفنا أن الإمام  
عبد القاهر قد أورد هذا الاعتراض وأجاب عليه كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد أبو  
موسى (٣) ، فإن إجابته هي القاطعة في بيان مراده والمغنية لنا عن النظر في إجابات  
الخطيب وشراحه .

قال الإمام عبد القاهر موردا الاعتراض ومجيبا ( واعلم أنه قد يهجم في نفس  
الإنسان شيء يظن من أجله أنه ينبغي أن يكون الحكم في المزية التي تحدث بالاستعارة  
أنها تحدث في المثبت دون الإثبات . وذلك أن تقول : إنا إذا نظرنا إلى الاستعارة  
وجدناها أينما كانت أبلغ من أجل أنها تدل على قوة الشبه ، وأنه قد تنهى إلى أن  
صار المشبه لا يتميز عن المشبه به في المعنى الذي من أجله شبه به ، وإذا كان كذلك  
كانت المزية الحادثة بها حادثة في الشبه ، وإذا كانت حادثة في الشبه كانت في المثبت  
دون الإثبات والجواب عن ذلك أن يقال : أن الاستعارة لعمري تقتضي قوة الشبه ،  
وكونه بحيث لا يتميز المشبه عن المشبه به ، ولكن ليس ذلك سبب المزية ، وذلك لأنه لو  
كان ذلك سبب المزية لكان ينبغي إذا جئت به صريحا فقلت : رأيت رجلا مساويا للأسد  
في الشجاعة ، وبحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسدا . وما شاكل ذلك من ضروب  
المبالغة أن تجد للكلام المزية التي تجدهما لقولك : رأيت أسدا ، وليس يخفى على عاقل  
أن ذلك لا يكون (٤) .

(١) المصدر السابق : ٥٧ ، ٥٨ (٢) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٢٧٧/٤

(٣) انظر التصوير البياني : ٤٣٥-٤٣٧ (٤) دلائل الاعجاز : ٣٤٤

ولإجابة الإمام عبد القاهر هذه لا تنفي المبالغة عن هذه الأجناس ، ولكنها ليست هي السبب الوحيد في أبلغيتها ، وإنما تتعارض مع ما رأى أن هذه الأجناس تحمله من التقرير ، والتوكيد ، والإثبات في تكوين أبلغية كل منها ، وهذا أمر يحمس للإمام عبد القاهر إذ أنه لم يجعل وظيفة هذه الأجناس ومزاياها في المبالغة ، وكسان يجدر بمن تلاه أن يتابع هذه الفكرة ، ويبحث في أسباب أبلغيتها وألا يقتصر فيها على المبالغة أو ما كان الإمام عبد القاهر يرد فيه ، فكما أن الإمام اجتهد ، فعلى من بعده أن يجتهد وليس ضروريا أن يوافق اجتهادنا اجتهاد الإمام عبد القاهر الذي سن لنا فسي كتابية الاجتهاد في اكتناؤه أسرار البلاغة والإعجاز ، وعدم الاكتفاء بمتابعة السابقين .

لقد راعت بلاغة هذه الأساليب الإمام عبد القاهر فرأى أن الأمر فيها لو كان يقتصر على المبالغة لكان ينبغي في أسلوب استعارة ( رأيت أسدا ) مثلا إذا جئت به صريحا فقلت : رأيت رجلا مساويا للأسد في الشجاعة بحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسدا وما شاكل ذلك من ضروب المبالغة أن تجد للكلام المزية التي تجدها لقولك ( رأيت أسدا ) ولقد بين أن ذلك لا يخفى على عاقل لا يكون . وحيث أن عبد القاهر يرى أن كل جنس من هذه الأجناس يصور معنى سابقا عليه ، وأن ليس لللفظ تأثير في المعنى إيجابا ولا زيادة ، أقام هذه الصور مقام البيئات التي لا دور لها إلا تأكيد المعنى وإثباته ، إذ ليس لها كما يقول ( تأثير في ذات المعنى وحقيقته ، بل في إيجاده والحكم به ) (١) . ولقد اعترض عليه البهائم السبكي في جعل هذه الصور مقام البيئات ، وتعليل وجودها بالإثبات والتوكيد فقال ( ما ذكره الشيخ مخالف لتفاهم على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة ، ولو كان كما قال لما كانت الكناية والمجاز أبلغ ، بل كان الأبلغ هو إثبات التشبيه وأما قوله أن التأكيد إنما هو لتأكيد التشبيه ففيه نظر ، لأن تأكيد التشبيه إنما يكون بما يرد على الجملة من أن واللام مثلا ، والتأكيد في الاستعارة إنما وقع في لفظ مفرد والتأكيد يكون لمعناه كما أن المبالغة في قوله رحيم لتحويل صيفته من فاعل إنما كان لزيادة الرحمة لا لتأكيد إثباتها ، وأما قوله إن الكناية ليست أبلغ من التصريح في المعنى فيمكن الذهاب إليه وأن يقال ليس كثير الرماد يدل على كرم لا يدل عليه كثير القرى ثم كثرة القرى ليست المكنى عنه ، بل المكنى عنه الكرم ، وكثرة القرى من جملة الوسائط بين المكنى عنه والمكنى به ، وأما قوله إن التأكيد فيه للتشبيه فممنوع على نحو منع ما قبله ، وأما قوله تأكيد الإثبات في رأيت الأسد ، فكأن مراده إثبات وقوع الرؤية على الأسد ، وإلا فتأكيد الإثبات يكون في إثبات المسند للمسند إليه فكان حقه أن يمثل بجائني أسد وأما تمثيله بقولك زيد والأسد سواء فقد يقال هذا المثال أخص من المدعى فإن زيدا أو الأسد سواء من قبيل التشابه المستدعي لا ستواء الطرفين لا من قبيل التشبيه المستدعي

( رجحان المشبه به فلا يلزم من ثبوت التساوى بين التشابه والاستعارة إن سلمناه ثبوت التساوى بين التشبيه والاستعارة مطلقاً كما ادعاه بل الذى يظهر أن التشابه أبلغ من الاستعارة لأن في الاستعارة أصلاً وفرعاً وليس ذلك في التشابه ، وأما قوله إنـه إثبات الشيء ببيئته فقد يقال إن هذا لا تحقيق له وينبغي أن يقال : ادعاء الشيء ببيئته ، وحينئذ يتضح ، أما قولنا إثبات الشيء ببيئته مع جعلنا التأكيد إنما هو للإثبات ، فليس في إخباره بكثرة الرماد إثبات كثرة الرماد المستلزم للكرم ) ( ١ ) .

وعقب البهاء السبكي على ذلك بقوله ( وبعد أن كتبت هذا الإشكال رأيت الإمام فخر الدين وقع عليه ، فحمدت الله تعالى ، ثم عقبه الإمام فخر الدين باعتراض ثان ، وهو أن الاستدلال بوجود اللازم على الملزوم باطل لأن الحياة لازمة للعلم ، ولا يمكن الاستدلال بوجود الحياة على وجود العلم ، وفيما قاله نظر ، وجوابه أن المراد اللازم المساوى ولا مانع من الاستدلال به بمعنى المعرف ولهذا الشبهة قال المصنف إن الانتقال في الكناية من الملزوم الى اللازم ) ( ٢ ) .

وإذا كان هذا الجدل يضعنا أمام رياح الشك التي كانت تهب على ما جعلوه من بلاغة هذه الأجناس التي آمنوا ببلاغتها ، وجرى الكلام فيها مجرى الأمثال فقالوا : المجاز أبلغ من الحقيقة ، والكناية أبلغ من التصريح ، فأى بلاغة تبقى لها بعد ذلك ؟؟ إن هذه الرياح لم تكن لتهب على ما في هذه الأجناس من بلاغة ، لو وضعنا في مكانها ، ولو أخذوا كلامها منفصلاً عما تصوره المقابل الحرفي له ، إن بلاغة هذه الأجناس كما سبق أن أشرنا يكتن في التركيب اللفظي لكل منها الذى تتفاعل فيه كل لفظة بما تحمل من معانيها الكامنة فيها — التي لا تفتقر لدليل خارجي — مع التركيب الذى يتفاعل مع السياق ليحقق الوجود اللفظي ، الذى يريد مبدع العمل الفني . ولكنهم لأنهم تصوروا أن كل جنس من هذه الأجناس عبارة عن صورة لإخراج معنى سابق عليها ، لذلك كانت كل بلاغة لها عندهم تعتمد على رابط يربطها بذلك المعنى ، كالتوكيد والاثبات ، والتوضيح ، والمبالغة .

وحيث أنهم كانوا يشكون في هذه الأشياء فعلمنا بعدهم أن نتجاوز ما كانوا يدورون فيه . وأن ننظر الى هذه الأجناس في ظل وجودها المستقل عن أى معادل حرفي ~~وغيره~~ خارجي له ، وبذلك نتجاوز فكرة إقامة هذه الأجناس مقام البيئات ( فقول القائل فلان كريم أو شجاع لا يفتقر الى دليل حتى يقال إنه كثير الرماد أو إنـه كالأسد إن ليس المقام مقام إنكار يستدعي البيئات ، وإنما هو مقام تصديق بما يقال بنـاءً على التسليم بحكم اللفظة ، ومن لم يسلم بذلك لا يجدى معه الكلام ، ولو اقترن بألف دليل

( ١ ) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٢٧٨ / ٤ - ٢٨٠

( ٢ ) المصدر السابق : ٢٨٠ / ٤



لأن شأنه شأن الجاهل ، باللغة ومعاني الألفاظ والكلام من حيث أنه عمل انساني لا يصح إلا مع التسليم بالمضامين التي يشتمل عليها لأنها من قيم الثقافة التي لا تستقيم بغيرها اللغة ، ومعنى الألفاظ كما من فيها لا يفتقر إلى دليل من جهة العقل ، ودلالة اللفظ على المعنى ليست دلالة خارجية كدلالة الدخان على النار ، والسحاب على المطر بل هي دلالة داخلية ، يحملها اللفظ في طياته ولا تحتاج إلى بينات من الخارج .  
 (١) ولو أخذت الدلالة من جهة المركبات ، لانتفت الحاجة إلى اللزوم والانتقال .

## الفصل الثاني

## المبالغة في علم المعاني

## ١ - المبالغة في الإطناب

لقد شاع في تراثنا النقد والبلاغي فكرة " صياغة المعنى " تلك الفكرة التي تعترض للمعنى وجودا سابقا على التلفظ به ، وسنتعرض بالدراسة لهذه الفكرة في فصل لاحق من هذا البحث حيث سنتابع تطورها ، وما يترتب عليها ، ونتمسك على دورها الرئيسي في شيوع التعليل بالمبالغة . والذي يعيننا هنا أن فكرة وجود المعنى قبل اللفظ جعلتهم يفترضون أن لهذا المعنى حدا ودا ثم ينظرون بعد ذلك في الألفاظ المعبرة عنه هل جاءت موجزة أو مساوية للمعنى أو أن فيها زيادة عن المعنى المفترض سموها اطنابا أو أنها جاءت قاصرة عن أدائه . ولكن ما هو القياس الذي ساروا عليه في تحديد المعنى المفترض ؟؟

يقول السكاكي ( أما الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيها إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم ، ولا بد من الاعتراف بذلك مقيسا عليه ولنسمه متعارف الأوساط وأنه في باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يذم ، فالإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط والإطناب هو أدائه بأكثر من عباراتهم سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل )<sup>(١)</sup> . ويشرح التفتازاني متعارف الأوساط بأنه متعارف الذين ليسوا في مرتبة البلاغة ولا في غاية الفهاهة أي كلام في مجرى عرفهم في تأدية المعاني عند المعاملات والمحاورات<sup>(٢)</sup> وقريب من هذا شرح ابن يعقوب المصري له إذ يقول ( وهو متعارف ) أي المتعامل به في عرف الأوساط من الناس وهم الذين ليسوا في غاية البلاغة ولا في غاية الفهاهة وهي الصي والعجز في الكلام ويشرح ( مجرى عرفهم في تأدية المعاني ) بقوله ( أي عند جريانهم على عادتهم في تأدية المعاني التي تعرض لهم الحاجة إلى تأديتها في الحوادث اليومية )<sup>(٣)</sup> .

ومتعارف الأوساط هذا يرى خلل القياس عليه السكاكي نفسه وذلك حين يقول

( ثم إن الاختصار لكونه من الأمور النسبية يرجع في بيان دعواه إلى ما سبق تارة وإلى كون المقام خليقا بأبسط مما ذكر تارة أخرى )<sup>(٤)</sup> ويعلق الخطيب على هذا بقوله ( وفيه دليل على

(١) مفتاح العلوم : ١٢٠ (٢) مختصر السعد ضمن شرح التلخيص ١٦٢/٣

(٣) مواهب الفتاح ضمن شرح التلخيص ١٦٢/٣ (٤) مفتاح العلوم : ١٢٤

الشيء نسبيا لا يقتضي أن لا يتيسر الكلام فيه إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفسي ثم البناء على متعارف الأوساط والبسط الذي يكون المقصود جديرا به رد إلى جهالة فكيف يصلح للتعريف والأقرب أن يقال المقبول من طرق التعبير عن الفعنى هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له أو ناقص عنه واف أو زائد عنه لفائدة ( ١ ) .

ولجيبمادل شرح التلخيص حول اعتراض الخطيب هل يرد على السكاكي أو لا ؟؟ ولا يهمننا الآن استعراض ذلك الجدل وإنما الذى يهمننا هو أن المسألة هي رد إلى جهالة من أساسها إذ أنها ليست إلا افتراضا لا وجود له . . . وإلا فما هو المعنى للكلام الذى يؤخذ من أوساط الناس الذين حدد هم الشراح بأنهم هم الذين ليسوا في غاية البلاغة ولا في غاية الفهاهة مع أن الكلام الذى نحن بصدده ليس بكلامهم . ولا يمكن لنا أن نفترض الأصل المراد الذى يقول به الخطيب عندما يقول ( وإنما الأقرب أن يقال : المقبول من طرق التعبير هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له أو ناقص عنه واف أو زائد عنه لفائدة ) لأن المراد ليس هو إلا مدلول كلام القائل برمته . ولكن الأصل المراد الذى افترضوه والمعنى المحدود في أذهانهم هو الذى مؤق أوصال الكلام الذى أخذوا بمصطلحاتهم وتقسيمهم لأجزائه يرومون توصيله وإلحاق بعضه ببعض ، فهذا حشو مفيد وذاك حشو غير مفيد ، وهذا تتميم وذاك تكميل ، وهذا تذييل ، وذاك إهمال ، وهذه زيادة المقصود منها المبالغة وتلك زيادة المقصود منها الإيضاح ، ولقد كان العمل الأدبي في غنى عن هذا التمزيق والترقيق لو أخذوه مأخذ الوحدة المتكاملة التي لا يفنى بعضها عن بعض ، والتي تتفاعل جزئياتها لتخلق مستوى فنيا لا يخضع للتقطيع والتوصيل ولقد كانت المبالغة مشجعا من المشاجب التي علقوا عليها هذه الزيادات التي يرونها في الإطناب ، ولو بحثنا مدلول هذه المادة اللغوى الذى يعرضه لنا الفيروز آبادى فيقول ( وطنبه تطنيبا مد بأطنابه وشده ، والذئب غوى وبالمكان أقام . . . وأطنب الريح اشتدت في غبار ، والإبل : اتبع بعضها بعضا فسي السير والنهر بعد ذهابه والرجل أتى بالبلاغة في الوصف مدحا كان أو نما ) ( ٢ ) لوجدنا أن من مدلولاتها الشد والتثبيت والاندفاع فهي انطلاق لقوة وليست الحاق لها أو تكميل . . . ومن ثم فإنهم لو أخذوا بهذا المدلول اللغوى في الدلالة الاصطلاحية لكان الإطناب انطلاقا لقوة الكلام وامتدادا بها . . . ولكنهم أخذوها بأنها الزيادة على الأصل المراد لفائدة .

وإن كان تعريف المبالغة في أول تحديد اصطلاحى لها يقول ( وهي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لو وقف عليها لأجزاء ذلك في الغرض الذى قصده ، فلا

( ١ ) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ١٦٦/٣ - ١٧٠

( ٢ ) القاموس المحيط : أطنب

يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ في ما قصد (١) . فهو يلتقي مع مفهوم الاطناب الذي عرضناه عند المتأخرين . ومن صور الاطناب التي جاءت عندهم للمبالغة ما يلي :

١ - الإيفال :  
=====

وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاما من غير أن يكون للقافية في ما ذكره صنع ثم يأتي بها لحاجة الشعر فيزيد بمعناه في تجويد ما ذكره من المعنى في البيت كما قال امرؤ القيس :

كأن عيونَ الوحشِ حولِ خبائنا وأرهلنا الجرعَ الذي لم يثقب

فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملا قبل القافية ، وذلك أن عيون

الوحش شبيهة به ثم لما جاء بالقافية بها في الوصف ووكد به وهو قوله " الذي لم يثقب " فإن عيون الوحش غير مثقبة وهي بالجزع الذي لم يثقب أدخل في التشبيه .

وهذا هو تعريف قدامة بن جعفر له وقد أورد رأيا للأصمعي في ذلك عرضه

بقوله : ( وما يدل على أن المعاني قد كانت في نفوس الناس قديما أن أبا

العباس محمد بن يزيد النحوي . قال حدثني التوزي قال قلت للأصمعي : من

أشعر الناس ؟ فقال : من يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا أو

إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا أوتى كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها

أفاد بها معنى ، قال : قلت نحو من ؟ قال : نحو ذى الرمة حيث يقول :

قف العيس في أطلالٍ ميه فاسأل رسوما كأخلاقِ الرداءِ المسلسلِ

فتم كلامه قبل المسلسل ثم قال المسلسل فزاد شيئا ثم قال :

أظن الذي يجدي عليك سؤالها دموعا كتبديد الجمانِ المفصلِ

فتم كلامه ثم احتاج إلى القافية فقال " المفصل " فزاد شيئا ، قال قلت :

ونحو من ؟ قال الأعشى حيث قال :

كناطحِ صخرةٍ يوماً ليقلقها فلم يضرها وأر هي قرنه الوعلِ

فتم مثله إلى قوله " قرنه " ثم احتاج إلى القافية فقال " الوعل " مفضلا على كل ما

ينطح ، قال : كيف ؟ قال : لأنه ينحت من قلة الجبل على قرنه فلا يضره (٢) .

ويستمر مفهوم النقاد للإيفال على هذا الفهم ، إلا أن أبا هلال

المسكزي يعمم التعريف ليشمل النثر فيقول ( وهو أن تستوفي معنى الكلام قبل

البلوغ إلى مقطعه ، ثم تأتي بالمقطع فتزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا

(١) نقد الشعر : ١٤٦ (٢) نقد الشعر : ١٦٨

(٣) نقد الشعر : ١٦٩ ، ١٧٠

وتوكيدا وحسنا ، وأصل الكلمة من قولهم : أوغل في الأمر اذا أبعد الذهب فيه ( ١ ) ، ومثّل على وجوده في النثر بقول بعض الكتاب : ( بنو الطرف ممن الوزير دليل على تغير الحال عنده ، ولا صبر على الجفاء ممن عود الله منه البر ، وقد استدللت بإزالة الوزير إياي عن المحل الذي كان يحلني به لتطوله على ما سوت له ظنا بنفسي ، وما أخاف عتبا لأنني لم أجن زنجها ، فإن رأى الوزير أن يقوم لنفسي ، ويدلني على ما يريد مني فعل ) وعلق على ذلك بقوله ( فتم كلامه عند قوله يقومني ) ثم جاء بالمقطع وهو قوله " لنفسني " فزاد معنى ( ٢ ) . وبعد أن يورد عددا من الأمثلة يقول : ( ويدخل أكثر هذا الباب في التتبع وإنما يسمى أيضا إذا وقع في الفواصل والمقاطع ) وعلى هذا يسير الإمام الحلبي عندما يعرفه بقوله ( وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن الإتيان في مقطع البيت وعجزه أو في الفقرة الواحدة ينعت لما قبله مفيد للتأكيد والزيادة فيه ) ( ٤ ) .

ويسير فهم الإيفال عند البلاغيين المتأخرين على هذا النحو فالخطيب يعرفه بقوله ( وأما بالإيفال - أي الزيادة في الإطناب - واختلف في معناه فقيل هو ختم البيت بما يفيد نكته يتم المعنى بدونها كزيادة المبالغة في قول الخنساء :

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمَّ الْهَدَاةُ بِهِ      كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَوَّارٌ

وكتحقيق التشبيه في قول امرئ القيس :

كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خَبَائِنَا      وَأَرْحَلِنَا الْجَزَعُ الَّذِي لَمْ يُثَقِّبْ ( ٥ )

وتحقيق التشبيه شرحه ابن يعقوب المغربي بما يفيد أنه زيادة في تحقيق التساوي على المبالغة المفهومة من التشبيه حيث يقول ( وأما تحقيق التشبيه فيرجع الى زيادة ما يحقق التساوي بين المشبه والمشبه به حتى كأنهما شيء واحد لظهور الوجه فيهما بتمامه بسبب ذلك المزيد فصار من ظهوره فيهما كأنه حقيقتهما بما سواه عوارس من غير اشعار بكون المشبه به غاية في الوجه لعدم قصد تعظيم الوجه في المشبه به ليجر ذلك إلى عظمته في المشبه ) ( ٦ ) وعن عدم اختصاصه بالنظم يقول الخطيب وقيل لا يختص بالنظم ومثّل بقوله تعالى ( اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ) ( ٧ ) ( ٨ ) ووافقه الشراح على ذلك .

- ( ١ ) الصناعتين : ٣٩٥ ( ٢ ) المصدر السابق : ٣٩٥ ، ٣٩٦  
( ٣ ) المصدر السابق : ٣٩٦ ( ٤ ) الطراز : ١٣٠/٣  
( ٥ ) الايضاح ضمن شروح التلخيص ٢٢٠/٣-٢٢٢  
( ٦ ) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ٢٢٢/٣ ( ٧ ) سورة يس : ٢١  
( ٨ ) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٢٢٤/٣

وممن حصره في الشعر ابن رشيق حيث يقول ( وهو ضرب من المبالغة . . . إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها ، والحاشي وأصحابه يسمونه التبليغ ، وهو تفصيل من بلوغ الغاية ، وذلك يشهد بصحة ما قلته ويدل على ما رتبته ) (١) .

ولقد كان مدلول الكلام الذي تحمله هذه الجزئيات مع غيرها في السياة شبحا يخيف هؤلاء الممزقين لأوصال الكلام ، فهم يخشون أن يفهم منها معنى لا يمكنهم الحكم بزيادته فتراهم يوردون ما يتوقعون أن يرد عليهم ، ويجيبون عليه بحجج أقل ما يقال فيها أنها اعفاء لبعض جزئيات الكلام من دلالتها الفعلية ، وإلحاقها بالجزء الذي يظنون أن الكلام تم عنده ، فمن ذلك الاعتراض الذي أورده ابن يعقوب المفهري على كون الإيغال من الإطناب وذلك حيث يقول ( وههنا أمران لا يد من التنبه عليهما أحدهما أن زيادة قوله ( الذي لم يتق ) وقوله ( في رأسه نار ) لإفادة معنى كل منهما على أنه وصف لما قبله كسائر النصوص التي تزداد معانيها ، وليس معنى كل منهما مستفادا ما قبله ، فإن كان الإتيان بالنعت عند الحاجة إليه مساواة فهذا من منه وإلا لزم كون النعت إطنابا إن كان لفائدة أو تطويلا إن لم يكن بل ويلزم كون سائر الفضلات كذلك . والآخرة على تقدير كونها ليس من المساواة فعاد هما ينهني أن يبين وجه كونه من المعاني لا البديع فإن تحقيق التشبيه مثلا إنما يتبادر منه زيادة الحسن في معنى الكلام وطرافته فهو بالبديع أجدر ويقال مثله في المبالغة في التشبيه ) (٢) ويجب عن الاعتراض الأول بقوله ( إن النعت وشبهه من سائر الفضلات أن أتى للمعنى الذي وضع له فقط ويكون مدرجا للأوساط من الناس كان مساواة وأن أتى به لمعنى دقيق يناسب المقام لا يدركه إلا الخواص ولا يستشمره إلا أهل الرعاية لمقتضيات الأحوال كالمبالغة في التشبيه المناسبة في قوله في رأسه نار كان إطنابا ولا نسلم أن ما أتى به للإطناب يجب أن يكون مستفادا ما قبله بل إذا أتى بالشيء لمعناه وفيه دقة لمقام مناسبة لا يأتي به لأجلها الأوساط من الناس وإنما يتفطن له البلغاء أهل الفطنة وقصد الإتيان به لذلك كان إطنابا ولو أوجبنا في الإطناب أن يكون معناه مدلولا لما قبله خرج كثير مما أوردوه في هذا الباب عن معنى الإطناب ) (٣) . والإتيان بالشيء بمعناه وفيه دقة لمقام مناسبة لا يتنبه لها إلا البلغاء وأهل القطنة وقصد الإتيان بها ينافي معنى الإيغال الذي لا يأتي إلا لنكتة يتم المعنى بدونها .

ورد على الاعتراض الثاني بقوله ( والجواب عن الثاني أن مناسبة المبالغة

(١) العدد : ٥٧/٢ (٢) مواهب الفتح ضمن شروح التلخيص / ٣  
 (٣) المصدر السابق : ٢٢٤/٣ ٢٢٤ ، ٢٢٣

للمقام ظاهرة لأنها زيادة في مدح المرثى ، وذلك مناسبة لراثه وزيادة التوجع عليه ، وأما تحقيق التشبيه فحسن الكلام به وظرافته يناسب مقام المفاخرة والإرباب على الأتراب في الشعر والنثر ويناسب مقام إمالة النفوس لمدح الشاعر أو الناشر على شعره ونثره . فمن هذا الوجه وما يشبهه يكون من المعاني وبه يعلم أن البديعيات إذا قصد بها مناسبة الأحوال التي أوردت لأجلها عادات معانسي والمعاني إذا نهى عن تلك المناسبات فيها وأتى بها لظرافتها فقط كانت بديعيات ( ١ ) .

وما دام يصر على إلحاقها بالمعاني وفصلها عن البديع الذي جرده المتأخرون من الدلالة الذاتية وجعلوه هلية وزينة كما هو واضح في هذا الاعتراض والرد عليه مثلا . فمن أين تأتي له الحكم بزيادة هذا المعنى ؟؟ ذلك الحكم الذي توقف عنه البهاء السبكي في الحكم به على بيت الخنساء وبيت امرئ القيس وذلك حيث يقول عن الأول ( قلت وفيه نظر لأن الإطناب تأدية المراد بزيادة لفظ والمراد من التشبيه يعلم فوجه نار غير المراد من التشبيه بالعلم فقط فلم يحصل بقولها فوجه نار إطناب ولو كان هذا إطنابا لكان ذكر الصفة المخرجة في قولك أكرم رجلا عالما إطنابا إلا أن يقال لم يرد إلا مطلق الهداية وفيه بعد ٢٠٠ ) ( ٢ ) ويقول عن الثاني : ( قلت وفيه النظر السابق فإن المعنى لا يتم بدونه لأن الذي لم يثقب لم يتم المعنى بدونها لأنها مقصودة في التشبيه أو يقال أريد بقوله الجزع غير المثقب فيكون قسما من الإيضاح بعد الإبهام لا قسيما ثم نقول ليس أيضا بعد إبهام لأن الإيضاح بعد الإبهام أن يقصد الإبهام أولا يقصد ثم يقصد الإيضاح لغرض الإبراز في صورتين وهذا أريد بالجزع فيه غير المثقب ثم اقتصر عليه فكان إيجازا فلما قال لم يثقب صار مساواة ( ٣ ) وما جد لهم في ذلك إلا لأن القياس الذي قاسوا عليه هذه الحدود الثلاثة المساواة والإيجاز والإطناب غير واضح وغير محدد ؟ ثم إن دلالات الكلام التي تشع من جميع جزئيات السياق تأتي أن تنحصر في جزئية وتكون البقية الباقية إلحاقا لها . فتارة يجذبهم هذا الإشعاع إلى نفي الإفعال أو الإطناب وتارة يجذبهم تحديد هم المساواة بأنها (متعارف أوساط الناس الذين لا يطلب منهم رعاية مقتضيات الأحوال من اللطائف والاعتبارات ) ( ٤ ) إلى الحكم في الكلام الذي آمنوا بأعجازه بأن فيه إطنابا وإيفالا ففي قوله تعالى ( وجاء من أقصا المدينة رجل يسمى قال يا قوم اتبعوا

- ( ١ ) المصدر السابق : ٢٢٤ / ٣ ( ٢ ) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٢٢١ / ٣  
 ( ٣ ) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٢٢٣ / ٣ ، ٢٢٤  
 ( ٤ ) شروح التلخيص : ١٦٢ / ٤

المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون (١) قالوا ( المقصود حث السامعين على الاتباع ففي وصفهم بالثاني زيادة مبالغة على اتباع الناس لهم من ذكر كونهم مرسلين ) ويقول ابن يعقوب المفرجي فيها (٢) فقوله " وهم مهتدون " ما يتم المعنى بدونه للعلم والقطع بأن الرسل المأمور باتباعهم مهتدون ولكن فيه زيادة حنك على الاتباع وزيادة ترغيب في الرسل من جهة التصريح بوصف هداهم فان التصريح بالوصف المقتضى للاتباع فيه مريد التأثير على ذكره ضمنا وزيادة الحث على الاتباع لا تخفى مناسبتة بل نقول إن قوله اتبعوا من لا يسألكم أجرا من هذا المعنى للعلم بأن الرسول لا يسأل أجرا فيكون إطنابا لنكتة الحث المذكور ( فيالها من معرفة بأسرار لغة وإعجاز القرآن الكريم تفصل قوله تعالى ( وهم مهتدون ) عن سياق الآية ، بل تفصل الآية بكاملها وتجعل قوله تعالى ( اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ) من قبيل الإطناب ؟؟

وإذا كان السبكي قد أخرج بيت الخنساء من الإيفال كما سبق أن رأينا ، فإن دلالات الكلام قد أبت عليه إلا أن يؤمن بها ، وحقا ما قال فإن " فوقه نار " تعطى للكلام دلالة أقل ما يقال فيها إيحائها بدلالة الخير والكرم التي لا تتفك الخنساء عن وصف أخيها بها ، ومعروفة عادات العرب في الكرم حيث يشبون النار في الأماكن المرتفعة ليراها السائرون ويأتون لمواطن القرى . . . فالنار مرتبطة بالكرم . . . ثم إن المتأمل لشعر الخنساء يرى فيه الإلحاح على وصف أخيها بالإشراق والضيء . . . ولربما كان ذلك لقداسة النور عند العرب الذي ينبعث من معظم مقدساتهم التي كانوا يقدسونها ( النار - الشمس - القمر ) فهي تقول فيه :

جَمَّهُمُ المَحِيماً تَضِيءُ اللَيْلَ صَوْرَتُهُ      آبَاؤُهُ مِنْ طَوَالِ السَّمَكِ أَحْرَارُ (٣)  
وتقول أيضا :

جَمَّ فَوَاضِلُهُ ، تَنْدَى أَنَاطِلُهُ      كَالْبَدْرِ يَجْلُو وَلَا يَخْفَى عَلَى السَّارِي (٤)

ومما يدل على ربطها وجه أخيها بالشمس لما يرون فيها من قداسة

قولها :

أَبْيَسُ أْبْلَجٍ وَجْهُهُ      كَالشَّمْسِ فِي خَيْرِ البَشَرِ (٥)

ثم إن صخرها أصبح عندها رمزا للفضائل التي أشرقت بها الدنيا في

(١) سورة يس : ٢٠ ، ٢١ (٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٢٢٤/٣  
(٣) ديوان الخنساء : ٥٠ (٤) المصدر السابق : ٧٥  
(٥) المصدر السابق : ٦٣



حياته ثم لما مات عادت الدنيا عندها ظلامية مظلمة :  
 واذكره إذا ما الأرض أمسّت هجولا لم تلمع بالوميض  
 وبعد هذا يحق لنا أن نقول: إنَّ صخرا لا يستمد من العَلم وضوحه فقط بل يستمد أيضا علوه . . . وقد استه . . . وخيره . . . وإذا كان الأمر كذلك كانت ( فوق رأسه نار ) ، ذات دلالة عميقة في البيت يفترض فيها أن تعرج بالناقد على البحث عن دلالة النار عند العرب ، وارتباطها بالضياء . . . والبحث عن السرفي وصف العظام بالإشراق وربطهم بالكواكب والشمس والقمر بدلا من أن نعني الكلمة من دلالتها ونقول : إن المعنى تم بدونها أو أن المعنى الذي اضافته لا يقصد به إلا المبالغة في إيضاح القصد من التشبيه فهم يعترضون تشبيهه بالعلم يكفي لوضوح العلم والاهتداء إليه ثم جاءت " فوق رأسه نار " فبالفت في ذلك أشد مبالغة . ولكن القوم كان يحجمهم عن البحث في مدلول الكلام فكرة المعنى المقصود ، أو المعنى الأصلي المفترض، فإذا تم ما افترضوه كان باقي الكلام إطنابا ، وانساق القوم وراء هذا الافتراض ، ومزقوا أوصال الكلام ووضعوا مصطلحات لتسميتها حسب درجاتها في إفادة المعنى المقصود . . . . وليتهم اقتصروا في هذا التمزيق على كلام البشر ، ولم يتجاوزوا ذلك إلى الكتاب الكريم . . . . إن افتراضهم للمعنى جعلهم يؤمنون بصحة تقسيماتهم ولم يبالوا بتطبيقها على الآيات ، بل هم يجدون ذلك فخرا للقرآن لأن ذلك موجود في كلام العرب ، والقرآن نزل بلغة العرب وعليه فإن تلك التسميات توجد في القرآن . فمن ذلك حكم بعضهم على قوله تعالى " وهم مهتدون " في قوله تعالى ( وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى ، قال يا قوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون )<sup>(١)</sup> إلا يقال إن بعضهم جعل الآية الثانية بكاملها وهي قوله تعالى ( اتبعوا من لم يسألكم أجرا وهم مهتدون ) من قبيل الإطناب وهو لا يكفينا في الرد عليهم خمس عشرة آية في كتاب الله تنفي عن الرسل سؤالهم الأجر من أحد إلا من الله سبحانه وتعالى مثلها قوله تعالى ( قل لا أسألكم عليه أجرا إلا الهدية في القربى ) . وقوله تعالى ( أم تسألهم أجرا فهم من مفرم مثقلون ) وقوله تعالى على لسان رسل عدة في سورة الشعراء ( وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين )<sup>(٢)</sup> ، أما قوله تعالى ( وهم مهتدون ) الذي عده بعضهم كما أسلفنا من قبيل الإيغال ، فإننا نقول لهم :

(١) سورة يس : ٢٩ ، ٢١ (٢) سورة الشورى : ٢٣

(٣) سورة الطور : ٤٠

(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠

: من أين لكم الحكم بتعام المعنى قبل هذه الفقرة من الآية ٢٢ وهل كنتم على علم بأن المعنى يقتصر على جزئيات من الآية تتم دون هذه الفقرة ٢٢ ومهما كانت الإجابة فإنها لا تعدو أن تكون قائمة على فرض لا يمكن أن يوجد الدليل على صحته .

وإذا كانت الآية قد وصفت الرسل بالاهتداء فإن الهداية هي محور رسالة الرسل قال تعالى ( هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ) وقال تعالى ( شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبيانات من الهدى والفرقان ) . وقال تعالى ( ألم ، الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ) . ولقد كان الصراع بين الحق والباطل في بعض مظاهره صراع حول الطريق الذي يظن أنه الهداية قال تعالى ( فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ) وقال تعالى ( ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيش له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ) ، لذلك جاءت الآيات تبين اختصاصه سبحانه وتعالى للهداية التي سمي دلالة الرسل وأوليائه عليهم واختصبت وتبينهم طريقها هداية فمع أنه سبحانه وتعالى يقول ( إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ) . ويقول أيضاً ( من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً ) . يقول عن رسوله صلى الله عليه وسلم ( وإنك لا تهدي إلى صراط مستقيم ) ويقول ( ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ) وجاءت الآيات أيضاً تنفي الهدى عن الضالين الذين يحسبون أنهم مهتدون قال تعالى ( أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ) . وقال جل وعز ( قد خسروا الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ) . وقال سبحانه ( ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين ) . وجاءت كذلك تصف لرسوله وعباده وأوليائه بالهداية والذين ظن الكافرون والذين في قلوبهم مرض أنهم ضالون

- |       |                               |        |                    |
|-------|-------------------------------|--------|--------------------|
| ( ١ ) | سورة الفتح ٢٨ وسورة والصف : ٩ | ( ٢ )  | سورة البقرة : ١٨٥  |
| ( ٣ ) | سورة آل عمران : ١ - ٤         | ( ٤ )  | سورة الاعراف : ٣٠  |
| ( ٥ ) | سورة الزخرف : ٣٦ ، ٣٧         | ( ٦ )  | سورة القصص : ٥٦    |
| ( ٧ ) | سورة الكهف : ١٧               | ( ٨ )  | سورة الشورى : ٥٢   |
| ( ٩ ) | سورة البقرة : ١٦              | ( ١٠ ) | سورة الأنعام : ١٢٠ |

ومن هذه الآيات قوله تعالى ( الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون )<sup>(١)</sup> . وقوله تعالى ( أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون )<sup>(٢)</sup> ومثل هذه الآية التي نحن بصدورها والتي جاءت في موقف جدل بين رجل مؤمن وقوم مكذبين معاندين . . . رجل اعتقد أن الرسل مهتدون فأتبعهم وحاج قومه بذلك ، أولئك القوم الذين كذبوا الرسل وتطيروا بهم .

### التمييز :

- ٢

وهو صورة من صور الزيادات التي تصورها على المعنى المراد ، ولعلك تلاحظ في هذه التسمية الدلالة على اقتطاع الجزئية التي ينطبق عليها هذا المصطلح عندهم ، ثم إلحاقها بعد إيجاد شرعية لها في الكلام باسم التتميم . . . ولقد كان التتميم عند بعضهم يهدف إلى المبالغة في الكلام في بعض الأحيان . . . وسبب ذلك إلا أنه في نظرهم صلة ملحقه بالكلام تصورا انفصالة عن معنى الكلام ولذلك أخذوا بوجودون الشرعية لوجوده تلك الشرعية التي تتخذ مجرا من المبالغة . . . أو الاحتراس . . . أو الصيانة عن الخطأ كما سنرى .

وقد كانت بداية الدلالة الاصطلاحية له عند قدامة بن جعفر الذي عرفه بقوله ( وهو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل معها جودته شيئا إلا أتى به )<sup>(٣)</sup> . وذكر له عدة أمثلة تختلط بالحشو والتكميل عند بعضهم .

وأما أبو هلال العسكري فقد ذكره مع التتميم وعرفهما تعريفا واحدا بقوله ( وهو أن توفي المعنى حظه من الجودة ، وتعطيه نصيبه من الصحة ، ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورد له أو لفظا يكون فيه توكيده إلا تذكره )<sup>(٤)</sup> .

أما ابن رشيق فقد قال عنه ( وهو التمام أيضا ، وبعضهم يسمى ضربا منه احتراسا واحتياطا ، ومعنى التتميم : أن يحاول الشاعر معنى ، فلا يدع شيئا يتم به حسنه إلا أورد له وأتى به )<sup>(٥)</sup> . ثم ذكر أسباب الإتيان به وأنه يأتي ( إما مبالغة وإما احتياطا أو احتراسا من التقصير وذكر من التتميم الذي جاء للمبالغة قول زهير :

(٢) سورة النبوه : ١٥٧

(٤) الصناعتين : ٤٠٤

(١) سورة الأنعام : ٨٢

(٣) نقد الشعر : ١٤٤

(٥) العمدة : ٥٠/٢

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمًا يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا

وعلق عليه بقوله ( — على علاته — مبالغة وتتميم عجيب ) .

ثم قال والأصل في هذا قول الله عز وجل ( وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَبَيْتًا وَأَسِيرًا )<sup>(١)</sup> قوله ( على حبه ) هو التتميم والمبالغة في قول من قال إن الهاء ضمير الطعام ، وإن كان كناية عن الله تعالى خرج المعنى عن هذا الباب<sup>(٢)</sup> .

أما الإمام العلوي فيقول عنه ( وهو تفعيل من قولهم : تقمه إذا أكمله ، وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن تقييد بفضلة لقصد المبالغة ، أو للصيانة عن احتمال الخطأ أو لتقويم الوزن فهذا تقرير معناه في مراد علماء البلاغة ، ثم يرد على أوجه ثلاثة إما للمبالغة ، وإما للصيانة ، وإما لاقامة الزنه على حد ما ذكرناه في شرح ماهيته ويقول عن القصد الأول ( أن يكون واردا على جهة المبالغة بأن تكون الفائدة في تلك الفضلة أينما هي المبالغة لا غير ومثاله قول زهير :

من يلق يومًا على علاته هَرَمًا يلق السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا

فقوله ( على علاته ) تتميم للمبالغة ، فوقعت في غاية الحسن والرشاقة كما ترى ، والمراد بقوله — على علاته — أى على حالاته وقوله يمدح هَرَمًا أيضًا :  
• ان الكريم على علاته هَرَمًا .

فهذه اللفظ حصل من أجلها مبالغة في المدح لا تخفى<sup>(٣)</sup> ، وقد فرق بينه وبين التكميل الذى عرفه بقوله ( وهو افعال ، من أكمل الشيء إذا — حصله على حالة لا زيادة عليها في تمامه ، وهو في مصطلح علماء البيان مقبول على أن تذكر شيئًا من أفانين الكلام ، فترى في إفادته المدح كأنه ناقص لكونه موهما بصيب من جهة دلالة مفهومه فتأتي بجملة فتكلمه بها تكون رافعة لذلك العيب المتوهم )<sup>(٤)</sup> . وضرب له أمثلة منها قول كعب بن سعد الغنصوى :

حليم إذا ما الحلم زين أهلـه مع الحلم في عيين المدوم مهيـبٌ

وقال عن التفرقة بينه وبين التتميم : ( والتفرقة بين الإكمال والتتميم ظاهرة مع كونهما مشتركين في أنهما إنما زيدا من أجل رفع الوهم عن تخيل ما يحط من المدح ويسقطه ، وحاصلها من جهة اللفظ ومن جهة المعنى : أما من جهة اللفظ فهو أن التتميم إنما يقال في شيء ناقص ثم تم بغيره ، بخلاف

(١) سورة الانسان : ٨ (٢) العمدة : ٥٠/٢ ، ٥١  
(٣) الطراز : ١٠٤/٣ (٤) المصدر السابق : ١٠٨/٣ ، ١٠٩

الإكمال ، فانه تام لا ينقص منه شيء ، خلا أنه أكمل بغيره ، فصار الأول بالزيادة تاما وصار الثاني بالزيادة كاملا ، وأما من جهة المعنى فهو أن التتميم إنما يذكر من أجل رفع احتمال متوهم ، فلهذا افترقا ، فالإتمام يرفع الخطأ مما ليس ذما ، والإكمال يرفع الذم المتوهم إذا لم يذكر ، فهذا تقرير ما يمكن من التفرقة بينهما (١) .

أما القزويني فقد فرق بين التتميم والتكميل وعرف التتميم بقوله : ( وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله متفيد نكتة كالمبالغة في قوله تعالى " ويطعمون الطعام على حبه " (٢) ، والضمير للطعام أى مع اشتهاؤه والحاجة إليه ونحوه " وآتى المال على حبه " (٣) وكذا " لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون " (٤) وعن الفضيل بن عياض على حب الله فلا يكون ما نحن فيه وفي قول الشاعر :

إني على ما تريين من كـبـري  
أعـرف من أين توكل الكـتـف

وفي قول زهير :

( ٥ )

من يلق يوما على علاته هـرما

يلق السماحة منه والندی خـلـقا (

وقال عن التكميل ( ويسمى بالاحتراس أيضا ، وهو أن يؤتى في كلام

يوهم خلاف المقصود بما يدفعه ومثل له بقول طرفه :

صوب الربيع وديمة تهمسى

فسقى ديار غير مفسد لها

وقول الآخر :

في الحسن عند موفق لقضى لها

لو أن عزة خاصمت شمس الضهى

وقول ابن المعتز :

فطارث بها أين يسراع وأرجل

صبنا عليها ظالمين سياطنا

ويقوله تعالى " فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على

( ٦ ، ٧ )

الكافرين " .

ولا يهمننا الآن هذا التفريق بينهما وكون الأمثلة يتناولها الوصفان

في مسيرة تراثنا النقدي والبلاغي وإنما الذي يهمننا الآن هل ما ارتأوه من تمام

أصل المعنى دون هذه الزيادة التي تسمى بالتكميل حيننا وبالتتميم حيننا آخر .

أمر مسلم لهم ؟؟

ولننظر الآن لغرى كيف ناقش القوم القضية ، وهل كان لهم رأى استقروا

( ١ ) المصدر السابق : ٣ / ١١٠ ، ١١١ ( ٢ ) سورة الانسان : ٨

( ٣ ) سورة البقرة : ١٧٧ ( ٤ ) سورة آل عمران : ٩٣

( ٥ ) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٣ / ٢٣٥ ، ٢٣٦

( ٦ ، ٧ ) سورة المائدة : ٤٥ ، الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٢٣١ ، ٢٣٣

عليه (١)

والمأمل لنقاشهم واعتراضاتهم يرى فصلهم بين شيئين يجب أن يكونا شيئا واحدا إن فصلوا بين قصد المتكلم ومراده من الكلام ، ونلاحظ ذلك في المناقشات التي دارت حول قول الخطيب السابق ، فالفضلة يبين لنا ابن يعقوب المغربي أن المقصود بها هنا الفضلة النحوية التي لا تكون ركنا في الكلام وذلك حيث يقول شارحا لها ( وهو ما ليس أحد المسندين من الفضلات المعلومة كالمفعول والحال والمجرور والتمييز ، وليس المراد ما يتم أصل المعنى بدونه حتى تدخل الجملة الزائدة على أصل المراد كما قيل <sup>(١)</sup> ) ويعمل بأن ذلك ليس المراد لسببين أحدهما : أن كون الشيء ما يتم أصل المعنى بدونه ونعني متعارف الأوساط لا يختص اشتراطه بالانتميم فمتى كان هو المراد بالفضلة كانت مستدركة لأن كلام الإطناب كله أتى فيه بغضله بهذا الاعتبار <sup>(٢)</sup> . وأما السبب الثاني فقد جاء توجيهها وتبريرا لصنيع الخطيب لأنه جعل من التتميم قوله تعالى ( لن تتألوا البر حتى تنفقوا ما تحبون ) إذ يقول دفاعا عنه ( فقوله ما تحبون ليس فضلة بهذا الاعتبار . لأن الإنفاق ما يحبون الذي هو المقصود بالحصص لا يتم أصل المراد بدونه إذ لا يصح أن يقال حيث أريد هذا المعنى حتى تنفقوا فقط دون ما تحبون فتعين أن مراده بالفضلة بعض هذه الفضلات ولا شك أن ما تحبون بعضها لأنه مجرور <sup>(٣)</sup> ) ولقد شعر ابن يعقوب بالمأزق الذي وقع فيه وذلك لأنه إذا كان موافقا كما أسلفنا على أن التتميم هو من ضمن ما يتم أصل المعنى بدونه كبقية أقسام الإطناب فكيف تكون هذه الآية منه بعد أن بين لنا أن ( ما تحبون ) لا يتم أصل المراد بدونه ؟؟ ولذلك قال ( ولكن هذا الوجه لا يخلو عن بحث لأنه إذا لم يجعل ما تحبون ما يتم أصل المعنى بدونه لم يكن إطنابا أصلا فيكون التمثيل به فاسدا من أصله فلا يستشهد به <sup>(٤)</sup> ) .

ولكن صاحبنا عز عليه أن يخطف صاحبه ، ويزعزع ثقته في أقسام الكلام التي افترضوها وهي الإيجاز ، والإطناب ، والمساواة ، فهو إذ يبين أن الإطناب لا يصح في هذه الآية إلا عن طريق الإدعاء بأن أصل المعنى حتى تنفقوا كما يتضح من قوله ( فيجب حيث جعل اطنابا أن يدعى أن أصل المعنى تنفقوا أي يقع منكم اتفاق <sup>(٥)</sup> . فهو مع هذا يتلمس وجها تصح معه زيادة " ما تحبون " غير مبال بمقصود الكلام واحتياجه إليها حيث يقول ( وزيادة ما تحبون ولو كان باعتبار القصد محتاجا إليه لا تكون من المساواة لأن ما زيد لأجله من النكتة

(١) مواهب الفتاح : ٢٣٥/٣ (٢) المصدر السابق : ٢٣٥/٣

(٣) المصدر السابق : ٢٣٥/٣ (٤) المصدر السابق : ٢٣٥/٣

(٥) المصدر السابق : ٢٣٥/٣

لا يدركها الأوساط وقد تقدم أن ذلك هو مناط الإطناب ، وإنما قلنا إن المقصود به أمر لا يدركه ويراعيه إلا البلفاء لأن فيه الإشارة إلى أن نيل البر لا يكـون إلا بغلبة النفس ، وتحميلها المشاق بالإنفاق من المحبوب المشتبهى بخلاف مطلق الإنفاق ولو كان فيه أجر لا يبلغ لهذا المعنى <sup>(١)</sup> وبعد ذلك يقرر هذه الحقيقة القائمة على فصل المعنى الأصلي عن مقصود الكلام ومراد المتكلم حيث يقول : ( وبه يعلم أن كون الشيء مقصودا في الكلام بحيث لا يتم المراد من حيث أنه مراد للمتكلم به لا ينافي كونه اطنابا ) <sup>(٢)</sup> ولقد كان الفصل بينهما أمرا واضحا في مسألة الاطناب وذلك حيث تبين لنا أن عندهم في الاطناب مستويين للكلام . المستوى الأول هو المعنى الأصلي وهو متعارف الأوساط أو المقصود الذي يرومونه هم من الكلام . والمستوى الثاني وهو النكتة التي جاء الاطناب لأجلها وهي الأمر الذي لا يدركه ولا يراعيه إلا البلفاء .

ولم يكن البهاء السبكي بأسمد حظا من ابن يعقوب المفري في حل هذا الاشكال القائم على تقسيم الكلام البليغ وتمزيقه بل إن هذا الأخير يظهر لديه عدم استقرار هذه المصطلحات والتسميات فيبعد أن شرح قول الخطيب بقوله ( التتميم أن يؤتى في كلام لا يوهم غير المراد بفضله تفيد نكتة كالمبالغة في نحو قوله سبحانه وتعالى " ويظعمون الطعام على حبه " في وجه أي مع حبه والظمير للطعام أي مع اشتهاه وكذلك " وأتى المال على حبه " وقيل المراد على حب الله فلا يكون ما نحن فيه لأن الإطعام على حب الله ليس أبلغ من الإطعام لا بهذا القيد <sup>(٣)</sup> ثم يضيف قائلا ( قلت فيه نظر إن أحدهما أن يقال إن على حبه يفيد فائدة زائدة وهي الإطعام مع الحب فإما أن يقال ليس هذا مبالغة بل تضمن فائدة جديدة لأن مطلق الإطعام له يفده بهذا القيد إلا أن يجاب بأن إفادته إفادة جديدة لا ينافي أنه اطناب لما قبله . وأما أن يقال مطلق الإطعام يحتمل أن يكون مع حبه أولا فهو يوهم أن لا يكون مع الحب وهذا احتمال مساو والوهم يحصل بالمساوى بل بالمرجوح وحينئذ فيكون من قسم التكميل وليت شعري أي فرق في اللغة بين التكميل والتتميم . والثاني أن هذا قريب من الإيفال أو هو جوعلو أنه يمكن أن يقال فرق بين التكميل والتتميم لغة فالتكميل استيعاب الأجزاء التي لا توجد الماهية المركبة إلا بها ، والتتميم قد يكون بما وراء الأجزاء من زيادات يتأكد بها ذلك الشيء الكامل ويستأنس لذلك بقوله

(١) المصدر السابق : ٢٣٥/٣ ، ٢٣٦

(٢) المصدر السابق : ٢٣٦/٣

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٢٣٥/٣ ، ٢٣٦

تعالى " تلك عشرة كاملة" (١) أى لم تنقص اجزاؤها وقوله " وأتموا الحج والعمرة لله (٢) روى إتمامها أن تحرم من دويرة أهلك وهو وصف فيه زيادة على الأجزاء

فإن ما هبتي الحج والعمرة توجدان دونه وقد جمع بينهما في قوله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي (٣) لما كانت أركان الدين وجد منها الجزء الأخير إن ذلك استعمل فيه لفظ الكمال ، ولما كانت نعم الله حاصلة للمؤمنين قبل ذلك اليوم غير ناقصة استعمل فيها الإتمام لأنه زيادة على نعم الله التي كانت قبل ذلك كاملة فإن تم هذا ظهر وجه تسمية الأول بالتكميل لأنه يدفع إيهام غير المراد وذلك كالجزء من المراد لأن الكلام إذا أوهم خلاف المراد كان كالذى دلالة ناقصة بخلاف التتميم (٤) . وهذان النظران يجلوان ويؤكدان أموراً عدة :

الأول : أن هناك مفهوما للمبالغة يجعلها غير أصيلة ، وفائدتها زائدة ولا دخل لها في الأصل المراد ، ويدل على ذلك أيضا اتفاقهم على أن " على حبه " ليس فيه مبالغة إذا كان الضمير يعود الى لفظ الجلالة " الله " الثاني : أن هناك فصلا بين جزئيات الكلام فهناك فائدة للجزئية الأولى " ويطعمون الطعام " وهناك فائدة أخرى للجزئية الثانية " على حبه " وقد كانوا في غنى عن هذا النقاش لو أخذوا هذه الآية في سياق الآيات بل في سياق الآية نفسها على الأقل .

الثالث : الشك في مصطلحاتهم ، وإيراد الاعتراضات عليها ما يبين لنا زعزعة تلك المصطلحات التي ناقشوها ، ذلك الأمر الذى نأخذ منه أن علينا أن نناقش أيضا ونخالف فيما بدا لنا أنه وجه الحق .

ولقد انساق القوم وراء مصطلحاتهم التي فرضوها بناء على أن لكل كلام معنى أصليا بغض النظر عن دلالة منطوقه لأن هذه الدلالة قد تقل عن المعنى فتسمى إيجازاً أو تساوه فتكون مساواة أو تزيد عنه فتكون إطناً وتطويلاً . . . وما أسهل الفرض وما أصعب تحقيقه ، وعندما جاءوا عند التحقيق في مناقشة وتطبيق هذه المصطلحات الفرعية على الكلام اضطرب لهم ذلك إلى المحاورة ومحاولة سد الثغرات كما سبق أن رأينا بكل ما يملكون من قوة في الجدل . ولم يبال بعضهم في سبيل الانسباق وراء هذا الافتراض أن يحدد في كلام الله تعالى الكلام الأصلي الذى يكفي في نظره بناء على فرضه فهذا الدسوقي يقول فسي

(١) سورة البقرة : ١٩٦ (٢) سورة المائدة : ٣

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٢٣٦/٣ ، ٢٣٧



في قوله تعالى ( ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا )<sup>(١)</sup> والحاصل أن القصد من الآية مجرد مدح الأبرار بالسخاء والكرم ولا شك أن هذا يكفي فيه مجرد الإخبار عنهم لأنهم يطعمون الطعام سواء كانوا يحبونه أولا ولا يتوقف ذلك على بيان كون الطعام محبوبا لهم وحينئذ فقوله (على حبه) إطناب نكتته إفادة المبالغة في المدح<sup>(٢)</sup> . وأبسط ما نقوله هنا إن حصر الآية في هذا - القصد دعوى تدل الآية على كذبها إذ أن القصد من الآية يجب أن تأخذه من عمومها كما سنبين ذلك ان شاء الله . ثم إن هذا القصد الذي حدده والكفاية التي رأى أنها كافية نقضها بقوله في شرح ما إذا كان الضمير لله ( أى لأجل حب الله لا لرياء ولا سمعة وإن كان حبهم للطعام حاصلًا على ذلك الوجه لأن الشأن حبه لكنه غير ملحوظ )<sup>(٣)</sup> إذ وافقهم على أن الجار والمجرور على هذا الوجه لتأدية الأدل المراد وهو هنا عند الدسوقي ( مدحهم بالسخاء والكرم لأن الإنسان لا يندح شرعا إلا على فعل لأجل الله ، وإذا كان الجار والمجرور على هذا الوجه لتأدية أصل المراد كان مساواة )<sup>(٤)</sup> وإذا كان المعنى الأصلي عنده علي كلا الوجهين واحد لم يتغير . فلماذا يعتبر الجار والمجرور في الوجه الثاني من الأصل المراد ؟؟ ولقد أحسن الدسوقي بهذا الإشكال فحرض لنا رأيا يقول: ( وقد يقال هذا يقتضي أن إطعام الطعام إذا لم يقصد به وجه الله بأن كان حيلة وغفل عن قصد الرياء وقصد وجه الله لا يكون مدحا شرعا مع أنه مدوح شرعا لأنه يثاب على ذلك لأن نية التقرب لا تشترط في حصول الثواب إلا في التبرع لا في الفعل وحينئذ فما قال الشارح لا يتم )<sup>(٥)</sup> أى ما قاله السعد من أنه إن جعل الضمير لله أى يطعمونه على حب الله فهو لتأدية أصل المراد<sup>(٦)</sup> ، وإلى مثل هذا أشار ابن يعقوب المفرحي بقوله ( هذا إذا روعي المدح الكائن بالنظر إلى أهل الدنيا بل يقال فيه نكتة مطلقا لأن إطعامه حيث وجدت الغفلة بأن لم يقصد الرياء ولا محبة الله تعالى مما يمدح به شرعا من أن الكرم الطبيعي مما يترتب عليه الثواب ولو بلا نية فتأمل )<sup>(٧)</sup> . فانظر إلى أى حد طفئ الجدال القائم على فكرة المعنى الأصلي في تجريد الكلام من دلالاته . ولقد كان ابن أبي الأصبغ المصري على حق عندما أبرز لهذه الفضلة مكانها في المعنى وأن المعنى لا يتم بدونها وذلك عند ما قال معرفا للتميم

- |     |                       |     |                                   |
|-----|-----------------------|-----|-----------------------------------|
| (١) | سورة الانسان : ٨      | (٢) | حاشية الدسوقي على شرح السعد ٢٣٧/٣ |
| (٣) | المصدر السابق : ٢٣٧/٣ | (٤) | المصدر السابق : ٢٣٨/٣             |
| (٥) | المصدر السابق : ٢٣٧/٣ | (٥) | مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ٣/٣٧ |
| (٧) | مواعظ الفتاح : ٢٣٧/٣  |     |                                   |

بأنه ( أن تأتي في الكلام كلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه في ذاته ، أو في صفاته ، ولفظه تام ، وإن كان في الموزون نقص وزنه مع نقص معناه ، فيكون الإتيان بها لتتيمم الوزن والمعنى معاً )<sup>(١)</sup> ولكنه جعل نقص المعنى دون التتيمم في مقابلة تمام المعنى بغير التكميل فقال ( ولا يخلو إما أن يرد على معنى تام في ذاته أو في صفاته أولاً ، فإن كان الأول فهو التكميل ، وإن كان الثاني فهو التتيمم . ثم قال ( وقد غلط أكثر المؤلفين في هذا الموضع ولم يفرقوا بين التتيمم والتكميل فمثال قوله تعالى " من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة " فقوله من " ذكر أو أنثى " فتتيمم ؛ وقوله تعالى ( وهو مؤمن ) تتيمم ثان . وبهذين التتيممين تم معنى الكلام ، وجرى على الصحة ، وإلا فهو بد ونهما ناقص )<sup>(٢)</sup> والتتيمم عنده ثلاثة أقسام هي : تتيمم النقص ، وتتيمم الاحتياط وتتيمم المبالغة . وعموم التتيمم عنده للنقص ، ولكنه كما ترى جعل منه قسماً لتتيمم النقص ، والذي يغلب على الظن أنه يريد بذلك القسم مالا تظهر فيه وظيفة التتيمم في الاحتياط أو المبالغة ، لأنه عرف التتيمم كما سبق أن ذكرنا بأنه الكلمة التي إذا طرحت نقص معناه في ذاته أو في صفاته وجعل هذا النقص فرقا بينه وبين التكميل . وذكر أيضاً قسم المبالغة وجعله متمماً للنقص وذلك حيث يقول في قوله تعالى " له من كل الثمرات " من قوله تعالى ( أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعقاب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاً فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت )<sup>(٤)</sup> ) . . . ثم علم عز وجل أن الجنة لو جمعت إلى النخيل والأعقاب كل الثمرات كان وصفها أتم ، ونفعها أعظم . والأسف على فسادها أشد ؛ فقال متمماً هذا النقص تتيمم مبالغة " له فيها من كل الثمرات " وأما قوله تعالى " ويطعمون الطعام على حبه " فلقد آثر أن يسير فيه على طريق الخطيب في تتيمم المعنى بدون الجار والمجرور فيما إذا كان الضمير للطعام ، ولذلك جعلها من باب التكميل الذي يرد على المعنى التام في ذاته وصفاته . . . وأخرجها من باب التتيمم لأن التتيمم عنده إذا سقط لم يتم المعنى . . . فبذلك وافقه على تمام المعنى في الآية دون الجار والمجرور ووافق نفسه بالمخالفة في الاصطلاح فجعل الآية من باب التكميل . ولقد كانت نظرتي إلى التتيمم بأنه من تمام المعنى داعية له إلى أن يجعل الجار والمجرور فيما إذا كان الضمير لله سبحانه وتعالى من

( ١ ) بديع القرآن : ٤٥ ، ٤٦ ( ٢ ) سورة النحل : ٩٧

( ٣ ) بديع القرآن : ٤٦ ( ٤ ) سورة البقرة : ٢٦٦

التتيم فيوافق بذلك الخطيب الذي أخرجه في هذه الحالة من هذا الباب لأن التتيم عند الخطيب هو ما يتم المعنى بدونه كما سبق بيانه .

يقول ابن أبي الأصبع ( ومن التكميل من هذا الباب قوله تعالى " ويطمعون الطعام على حبه " فان قوله سبحانه " على حبه " تكميل لحسن هذا المعنى إن كان الضمير فيه " حبه " عائدا على الطعام ، وإن كان عائدا على الله سبحانه فهو تتيم احتياط ) (١) .

وبعد استعراض هذا الجدل الذي يقسم الكلام الى جزئيات نقول : إنه يجب أن تؤخذ الآية بعموم ألفاظها ، وأن يكون المعنى هو مدلول ألفاظها جميعا لا معنى مفترى تؤديه بعض الألفاظ ويخرج باقيها إلى أبواب مصطلحاتهم التي يضطربون حولها ، وحول إدخال الكلام في هذا المصطلح أو ذاك .

وقبل أن نناقش أصالة " على حبه " نرجح أن يكون الضمير راجعا إلى الطعام وقد قال بذلك ابن عباس وسجاهد واختاره أبو حيان وعمر بن لُحيا (٢) الألويسي رأيا يرجح ذلك على رأي الفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني اللذين يريان أن الضمير لله حيث قال ( وزينه بعضهم وقال الأول هو الوجه ويجاوبه القرآن على أن في قوله تعالى لوجه الله بعد غيبة عن قوله سبحانه لوجه الله ، وفيه نظربل لعله الأنسب بذاك ) (٣) .

ثم إن هذا الوجه المختار يرجحه من القرآن الكريم في قوله تعالى ( لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ) (٤) وقوله تعالى ( ... ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ) (٥) وقوله تعالى : " إن الإنسان لربّه كَنُودٌ ، وإنّه على ذلك لشهيد وإنّه لحبّ الخير لشديد " (٦) .  
وأما أصالة هذه الفضلة النحوية ( الجار والمجرور ) فهو أمر يحتمه علينا أمور عدة :

١ - لا دليل على تمام المعنى من غير الجار والمجرور لأن هذه الآية يذكر لنا الله سبحانه وتعالى فيها صفة للأبرار هي صفة البذل والعطاء والإنفاق ولقد جاءت هذه الصفة في هذه الآية موافقة لشرط بلوغ البر في هذه الصفة الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى " لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون " (٤) وقوله تعالى ( ... ولكن البر من

- |     |                       |     |                        |
|-----|-----------------------|-----|------------------------|
| (١) | بديع القرآن : ٤٨      | (٢) | البحر المحيط : ٣٩٥/٨   |
| (٣) | روح المعاني : ١٥٥/٢٩  | (٤) | سورة آل عمران : آية ٩٢ |
| (٥) | سورة البقرة : آية ١٧٧ | (٦) | سورة العاديات : ٦ - ٨  |

آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه  
ذوی القربى والیتامی والمساکین وابن السبیل والسائلین وفي الرقاب، (١)  
آن سياق الآیة فی السورة یبین لنا أمالة هذا الجار والمجرور فالآیات  
من بدايتها تتحدث عن خلق الانسان واختياره لسبیل الشکر أو الکفر  
ولیس اختیار الشکر بالطریق السهل بل هو معاناة ومجاهدة للابتلاء  
الذی هو غاية خلق الموت والحیة ( الذی خلق الموت والحیة لیبیلوکم  
أیکم أحسن عملاً ) (١) ولقد کان المال مظهرًا من مظاهر هذا الابتلاء  
قال تعالی ( لَتَبْلُونَ فی أموالکم وأنفسکم ولتسمعنَّ من الذین أوتوا الكتاب  
من قبلکم ومن الذین أشركوا أذی کثیرًا وإن تصبروا وتتقوا فإنَّ ذلک من  
عزم الأهور ) (٢) وقال سبحانه ( ولو شاء الله لجمکم أمة واحدة ولكن لیبلوکم  
فیما آتاکم فاستبقوا الخیرات إلی الله مرجعکم جمیعًا فینبئکم بما کنتم فیہ  
تختلفون ) (٣) وقال جل ذکره ( وهو الذی جمکم خلایف الأرض ورفح  
بعضکم فوق بعضی درجات لیبلوکم فیما آتاکم إن ربک سریع العقاب وإنَّه  
لغفور رحیم ) (٤) . وإذا كانت السورة تحدث عن خلق الإنسان ثم ربطت  
ذلک بالابتلاء ( إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتلیه فجعلناه  
سمیعًا بصیرًا ) (٥) . والابتلاء فی الانفاق یکمن فی مغالبة النفس المبهولة  
على حب الخیر ویجتلی ذلک فی مد الطعام الی المحتاجین مع أن  
المطعم بحاجة إلیه .

شکهم فی الحکم بعدم الزیادة وذلك یتظهر فی اعتبارهم الجار والمجرور  
المراد فیما إذا کان الضمیر لله ، مع أنه على قیاسهم الذی ساروا علیه فی النظر  
الی جزئیات الآیة یتساوى فیہ الاحتمالان ومن أحسن بذلک ابن یعقوب المفریسی  
والدسوقي إذ ذکرا أن هناك وجهة نظر بالزیادة حتی ولو کان الضمیر لله كما  
سبق بیانہ .

وما دنا لم ننسق مع البلاغیین والشریح وأبقینا " على حبه " أصیلة فسی  
معنی النص القرآنی الکریم ومراده شأنها فی ذلک شأن کل کلمة وكل حرف فی کتاب  
الله . . . وتأملنا إشارة هذه الفضلة النحویة الی مکابدة الإنسان ومعاناته وجهاده  
لرغباته وشهواته وصراعه العنیف معها ذلک الصراع الذی یقوى فیہ وینتصر من غمر  
قلبه للإیمان فضحی برغباته وشهواته وتطهر من صفاته الغالبة علیه کالهلوع وحب

(٢) سورة آل عمران : ١٨٦

(٤) سورة الأنعام : ١٦٥

(١) سورة المائد : آیة ٢

(٣) سورة المائدة : ٤٨

(٥) سورة الانسان : ٢

والعجلة . . . ما دام الأمر كذلك فإن ما حكموا عليه بالتتميم في كلام المـسـرب  
أمر غير مسلم لهم أيضا وأن لهذه الجزئيات أصالتها سواء كان ذلك في سياقها  
داخل البيت الواحد أم في سياق النص كله فمن ذلك بيت زهير بن أبي سلمى  
الذي يقول فيه :

إن تلق يوما على علاته هـرمًا      تلق السماحـة منه والندی خـلقـا

حيث ذكروا أن " على علاته " تتميم للمبالغة ، ومعنى ذلك أنه عندهم  
ليست من المعنى الأصلي . وليس الأمر كذلك " على علاته " تبين جهاد الإنسان  
المثال وتعالیه على دواعي الحاجات والضعف وتلك حقيقة الإنسان إن أنه  
لا يبلغ درجة الحمد ولا ينال صفات الخير إلا بهذه المكابدة والمعاناة  
والتغلب على النوازع والشهوات وقد قررها القرآن الكريم في الآيات التي تعرضنا  
لها وفي غيرها أيضا ، ولكنه جعل وسيلة ذلك التغلب في الإيمان والقيام  
بأركان الاسلام والتحلي بأدابه قال تعالى ( إن الإنسان خـلق هـلوعا إذا مسه  
الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون )  
ولقد لمس زهير تلك الحقيقة وأشارت إليها هذه الفـضـلة " على علاته "

في هذا البيت ولقد كان سياق القصيدة مفصحا عنها ومعقبا لها بالرمز تارة  
وبالإفصاح تارة أخرى لقد كان ذلك البيت من قصيدة يقول في جزء منها :

بل أنكرن خير قيس كلها حسبا	وخيرها نائلا وخيرها خلقا
القائد الخيل منكوبا دوابرها	قد أحكمت حكمت العبد والأبقا (٣)
غزت سمانا فأبت ضمرا خدجا	من بعد ما جنبوها بد ناعقا (٤)
حتى يودب بها عوجا معظلة	تشكو الدوابر والنساء والصفقا (٥)
يطلب شأو أمرأين قدما حسنا	نالا الطوك وهذا هذه السواقا (٦)
هو الجواد فإن يلحق بشلواها	على تكاليفه فمظته لـحـقـا

(١) سورة المعارج : ١٩ - ٢٣

(٢) شعر زهير بن أبي سلمى صنعته الأعم الششمري ٧٢ - ٧٧

(٣) " الدوابر " وأواخر الحوافر . ومعنى أحكمت جعل له حكمت . والحكمة التي تكون  
فن الأنف من المرسن . و " القد " : ما قطع من الجلد و " الأبق " شبه الكتان  
. . . . وأراد حكمت القد وحكمت الأبق . . . دليل المعنى : أحكمت هذه الخيل  
في الصنعة وشدة الخلق كما أحكمت هذه الحكمت من القد والأبق .

(٤) " الخدج " التي تلقى أولادها لغير تمام . " البدن " جمع بادن وهي الضخمة  
السمينة و " المعق " جمع عقوق . وهي التي استبان حملها . ( المصدر السابق  
٧٣ ) .

(٥) " المعظلة " التي لا أرسان لها ، لأنها لا تحتاج إليها لشدة جهدها وأعبائها  
و " العوج " جمع أعوج وهو جأ . وهي التي هزلت فاعوجت و " الأنساء " جمع  
نساء وهو عرق في الفخذ . - " الصفق " : جمع صفاق البطن وهو جلد دون الجلد  
الأعلى ( المصدر السابق : ٧٣ ، ٧٤ ) .

(٦) " الشأو " الطلق من الجرى ، والشأو أيضا : الغاية ( المصدر السابق ٧٤ )

- أو يسبقا على ما كان من مهل  
أغز أبين فياض يفكك عن  
وذاك أحزمهم رأيا إذا نبأ  
فضل الجياد على الخيل البطاء فلا  
إن تلق يوما على علاته هرما  
وليس مانع ذي قرى وذى رحم  
ليت بعثر يصطاد الرجال إذا  
يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعموا  
هذا وليس كمن يميا بخطته  
لونا لحي من الدنيا بمنزلة  
إن زهيرا يريد أن يقيم لمدوحه وجودا شعريا مثاليا وهو يعرف أن بلوغ  
هذه الدرجة لا يتم إلا بالتعالي على عناصر الضعف في الإنسان ومقاومتها  
والتغلب عليها حتى يتعالي على من حوله وينتسب الى من وصلوا الى هذه  
الدرجة .

- (١) " المهل " التقدم يقال : أخذ فلان المهلة والمهل على فلان إذا تقدمه (المصدر السابق ٧٥) .
- (٢) " العناة " جمع عان وهو الأسير وأصل العنو : الذل و " الربق " : جمع ربقه وهو حبل طويل فيه حلق تجعل فيه رؤوس البهم لئلا ترضع امهاتها فاستعاروها ههنا للأغلال ( المصدر السابق ٧٥ ) .
- (٣) " الممنون " المقطوع هو " النزق " الذي يبطن بعد الجرى ، والذي يعطي ما عنده ثم يكف ، يقول : هو في الناس بمنزلة الجواد من الخيل الذي يعطيك ما عنده من الجرى دون أن يقطع أو يبطن بعد السرعة . . . ويكون الممنون أيضا من المن أي بما يكون منه فيكدره ( المصدر السابق ٧٥ ، ٧٦ ) .
- (٤) وقوله " على علاته " يقول : ان نلقه على قلة مال أو عدم ، تجده سمحا كريما ، فكيف به وهو على غير تلك الحال . ( المصدر السابق ٧٦ ) .
- (٥) الخابط : طالب المعروف ، والورق ههنا : المعروف وهذا مثل وأصله أن الرجل يضرب الشجر ليحت ورقه فيملفه الماشية فسمى كل من طلب بغير يد ولا معروف خابطا ( المصدر السابق ٧٦ ، ٧٧ ) .
- (٦) بعثر : اسم موضع ( المصدر السابق : ٧٧ ) .

لقد بدأ قبل هذا البيت في إقامة هذا الوجود المثالي الذي ينال  
أعزما في القوم من أخلاق وذلك إذ يقول :

وانكرن خير قيس كلها حسبا وخيرها نائلا وخيرها خلقا

ثم ذكر لنا عنصرين عناصر المجد عند العرب ذلك هو الفروسية  
فقال عنه " القائد الخيل " ثم انساق في وصف هذه الخيل انسياق الشاعر المبدع  
الذي تتساق الأشياء عنده في جو القصيدة في أفق شعري موحد فخيله كما ترى  
ليست شيئا منفصلا عن وجود الممدوح ، بل هي ليست شيئا منفصلا عن ذات -  
الشاعر . . . لقد كانت الخيل رمزا للإنسان الذي يجاهد ويعاني ويكابد . . .  
لقد كانت خيلا تحيط بها المصائب والنكبات تتجلى مظاهرها في الدواب المنكوبة  
وحكمات القدّ والجهل . . . والنقصان بعد السمن . . . تفزوسمانا عققا فتووب  
ضرا قد ألت حطها شاكية نكبة حوافرها وزجرها وظمأها وآثار الصق . . . لقد  
كانت رمزا أفرغ الشاعر في تجسيد معاناتها ومجاهدتها ما يلاقيه المجاهد في  
سبيل المثال وما يحيط به من مصائب ونكبات يكون محكمه وقيمته في التغلب عليها  
وتجاوزها إنها العلات تتجسد أمامنا في هذا الرمز الذي سينتقل منه إلى  
الإنسان ذلك الإنسان البطل الذي :

يطلب ثلوا مرأين قدما حسنا نالا الطوك وبذا هذه السوقا

ولقد أفصح زهير عن رمزية الخيل للإنسان بقوله :

هو الجواد فإن يلحق بثلوها على تكاليفه فمثله لحقنا

الوصول إلى المثال جهاد ومغالبة ومكابدة والخيل رمز الجهاد والقوة  
ولقد أرانا الشاعر معاناتها ومكابدتها ومدحه يريد الوصول أو يريد له الوصول  
إلى المثال . . . وبعد أن أصبحت الخيل رمزا أصبح الممدوح الانسان فردا من  
أفراد ذلك الرمز ولذلك يقول " هو الجواد " ، ثم تأتي لفظة " على تكاليفه " .  
لتكثف المعاناة والمجاهدة التي جسدها لنا الشاعر قبل ذلك من خلال رمز  
الخيل . . . ومن هنا تبدو أصالتها وأدائها للحقيقة التي ذكرناها حقيقة  
المعاناة والمكابدة في نيل الفضل والشرف تلك الحقيقة التي يحجبها القول  
بالتتميم الذي تتحجب معه هذه الكلمة جانبا عن المعنى الأصلي الموهوم .

ثم يعرض بعد ذلك صفات الإنسان الخيرة التي بلغ بها الخير والسي  
يقاوم بها ما في نفسه وما في الآخرين من شهوات وهاجات وعلل " فهو " أغر " .  
" أبيض " وإذا كانت تلك الصفتين من الصفات مشتركة بين الانسان والخيل فالأمر  
قائم على رمزية الخيل وارتفاعها بفعل الوجود الشعري إلى أن يكتسب الإنسان  
صفاتها وتكتسب هي صفاته ، وعلى ذلك فلا غرو في إشارة هاتين الصفتين إلى

أصالتها في الفرس لأن الإنسان أضحى يستمد من الرمز صفاته الخلقية والخلقية يستمد منها الصفات الباهرة بين السواد والتي يزداد وضوحها كلما اشتد لون السواد حولها وذلك لأن هذه صفات خلقية تنبعث وتشرق من خلال سواد وتلك صفات خلقية تنبعث من خلال تكاليف ومواجهة صعب وعلات أضحى بطل زهير لا يقاومها في نفسه فقط بل في ذوات من يحتاجون ويعيون عن المواجهة . .

أعز أبيض فيأبى يفكك عن أيدي العناية وعن أعناقها الربقا  
ويظل مالكا للرأى الصواب الهازم مهما تزاومت العلل وغادت الناس :  
وذاك أحزمهم لا أيا اذا نبأ من الحوادث غادى الناس أو طرقا  
ثم يعود إلى الإفصاح عن رمزية الخيل لمكابدة الإنسان ومعاناته  
ومواجهة الصواب بقوله :

فضل الجياد على الخيل البطأ فلا يعطى بذلك ممنونا ولا نزقا  
وذلك لأن الوجود الشمري لهما يتجه نحو غاية واحدة أضحى كلاهما  
يتحرك في أفقه . وأضحى بطل زهير هو الصخرة التي تتحطم عليها مصاعب  
الآخرين وعللهم وآلامهم :

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا  
ثم نأتى الآن إلى بيت القصيد في هذا التحليل وهو قوله :

ان تلق يوما على علته هرما تلق السماحة منه والندى خلقا  
إننا لم نأت إلى هذا المكان إلا وقد عرفنا دور العلات في النص ،  
عرفناها تحيط بالخيل رمز " الإنسان " من كل جانب عرفناها في الخيل تمنيتها  
وتشكوها . . ثم عرفناها بعد ذلك في التكاليف المحيطة بالإنسان الذي يريد  
أن يبلغ شأؤك الأمراء اللذين جعلهما زهير نموذجاً له يجهت به . وعرفناها  
أيضا قلنا نفسيا في الإنسان بعد أن يصل إلى ذلك الشأو هل هو السابق أولا  
أو يسبقه على ما كان من مهمل فمثل ما قدما من صالح سابقا  
إن العلات هنا كائن لغوى شمري قد استوى نعوه وعرفنا جذوره وأن

لا غل للسياق عنه ، فمتجاوز العلات تُبلغ الغاية ، ويقهر العلات ومقاومتها والتغلب  
عليها يبلغ الإنسان درجة الخير والفضل والشرف لأن ذلك هو وجه الإنسان  
وأبراز قيمته كإنسان ومجال ابتلائه واختبار صبره . . لقد أصبح تجاوز العلات  
هو مناط وجود السماحة والندى . . وبعد أن عرفنا حقيقة هذه العلات ورمزيتها  
لكل ما يحيط بالإنسان من مضاعب وشهوات وحاجات في سبيل بلوغه درجات



تحي يرسب بس هـ . . . . . تشركك بأجرها . . . . .  
 الفضل والشرف والسمعة الحسنة ، تلك الحقيقة التي لمسها زهير ، وقررها  
 القرآن الكريم ، وأكد عليها كما سبق فعرّف أيضا أصالة كل جملة اعتراضية  
 تشير إلى هذه الحقيقة في حياة الإنسان . وأن الإشارة إلى هذه المعاناة  
 والمكابدة في سبيل بلوغ غايات الخير " أمر أصيل " يستمد أصالته من هذه الحقيقة  
 الكبرى في حياة الإنسان ، فمن هنا نحكم بأصالة " على علاته " في قول زهير  
 الآخر :

إِنّ البخيل ملومٌ ميث كان ولكنّ      الجوان على علته هــرم  
 و " على ما ترين من كبرى " الذي يشير إلى إحدى هذه العلات في قول الآخر :  
 إني على ما ترين من كـبرى      أعرف من أين توكل الكـفُّ

## ٢ - المبالغة في القصر

ومن أساليب المعاني التي قيل فيها بالمبالغة أسلوب القصر في معظم أقسامه وذلك لأن القصر ينقسم الى قسمين : قصر صفة على موصوف مثل " لا إله إلا الله " وقصر موصوف على صفة مثل قوله تعالى ( وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ) (١)

ولقد كان بحشهم للقصر قائما على مقارنة مدلول الألفاظ بحقيقة الأمر في الواقع الخارجي ولذلك قسّم القصر الى نوعين : حقيقي وإضافي . والقصر الحقيقي عندهم هو ما صح فيه قصر الصفة على الموصوف أو الموصوف على الصفة في الواقع الخارجي ويمبرون عن ذلك بتخصيص الشيء بالشيء بحسب الحقيقة وفي نفس الأمر بأن لا يتجاوزوه الى غيره . ويمثلون له في قصر الصفة على الموصوف ب ( لا إله إلا الله ) وب ( ما نبي خاتم إلا محمد صلى الله عليه وسلم ) وهذا سلموا بحقيقته لأنه حقيقة مطلقة . ولكنهم جاءوا الى الفرع الثاني من الحقيقي وهو قصر الموصوف على الصفة ومثلوا له ب : ما زيد إلا كاتب وشرطوا صدقه على الحقيقة الخارجية بإرادة أنه لا يتصف بصفة غير الكتابة ولما وجدوا أن الخارج لا يسعفهم في إثبات صدق ذلك حكموا بندرته واستحالته فقال الخطيب في الإيضاح ( وهذا لا يكاد يوجد في الكلام لأنه ما من متصور إلا وتكون له صفات تتعذر الإحاطة بها أو تتعسر ) (٢) وقال في التلخيص ( وهو لا يكاد يوجد لتعذر الإحاطة بصفات الشيء ) (٣) وعلق السعد على ذلك بقوله ( حتى يمكن إثبات شيء منها وفي ما عداها بالكليّة بل هذا محال لأن للصفة الدنفة نقيضا وهو من الصفات التي لا يمكن نفيها ضرورة ارتفاع النقيضين ) (٤) ويقول ابن يعقوب المفري : ( فإذا تعذر في المادة إحاطة المخلوق بصفات الشيء لم يتأتى للمحترز عن نقيضة الكذب أن يأتي به قاصدا لمعناه الحقيقي وإنما تعذرت الإحاطة بالأوصاف لما علم أن العاقل لا يحيط بأوصاف نفسه لا سيما الباطنية والاعتبارية فكذلك بأوصاف غيره ) (٥)

وأما القصر الإضافي عندهم فهو ما يكون فيه القصر ( بحسب الإضافة الى شيء آخر بأن لا يتجاوزوه الى ذلك الشيء وإن أمكن أن يتجاوزوه الى شيء آخر ) (٦) ومثاله في

- (١) سورة آل عمران : ١٠٤ (٢) مختصر السعد على تلخيص المفتاح ١٦٧/٢  
 (٣) الإيضاح ضمن شروح التلخيص : ١٧٢/٢ (٤) شروح التلخيص : ١٧٢/٢  
 (٥) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص : ١٧٢/٢ ، ١٧٣  
 (٦) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ١٧٢/٤  
 (٧) مختصر السعد : ١١٧/٢

قصر الصفة على الموصوف ( ما في الدار إلا زيد ) إذا اعتقد المخاطب أن في الدار زيداً وعمراً وأردت أن تحصر الوجود في زيد دون عمرو ولو كان فيها غير عمرو أيضاً . وفي قصر الموصوف على الصفة ( ما زيد إلا كاتب ) إذا أردت أن تحصر الكتابة بالنسبة إلى الشعر دون باقي الصفات الموجودة فيه .

وتدخل المبالغة في معظم هذه الأقسام فقد قال الخطيب ( وقد يقصد به المبالغة لعدم الاعتداد بغير المذكور فينزل منزلة المعدوم )<sup>(١)</sup> وأرجع السعد الضمير إلى الثاني وهو قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً وشرح ذلك بقوله ( كما يقصد بقولنا ما في ( الدار إلا زيد ) أن جميع من في الدار من عدا زيداً في حكم العدم فيكون قصراً حقيقياً ادعائياً وأما في القصر الغير حقيقي فلا يجعل غير المذكور بمنزلة العدم بل يكون المراد أن الحصول في الدار مقصور على زيد بمعنى أنه ليس حاصلًا لعمرو وإن كان حاصلًا لبكر وخالد )<sup>(٢)</sup> . ويشرح ابن يعقوب المغربي ذلك بقوله ( وقد يقصد به " أي بالثاني وهو قصر الصفة على الموصوف ( المبالغة ) في كمال الصفة في ذلك الموصوف فتتفي عن غيره على العموم وتثبت له فقط دون ذلك الغير ولو كانت في نفس الأمر للغير أيضاً وإنما يفعل ذلك ( لعدم الاعتداد ) في تلك الصفة ( بغير المذكور ) أي بغير ذلك المذكور لتلك الصفة وهذا كما إذا وجد علماء في البلد وأريد المبالغة في كمال صفة العلم في زيد فينزل غير زيد بمنزلة من انتفت عنه صفة العلم لعدم كمالها فيه فيقال ( لا عالم في البلد إلا زيد ) حصراً للعلم فيه ونفياً له عن غيره لعدم الاعتداد بالعلم في ذلك الغير ويسمى هذا قصراً حقيقياً بالإدعاء وذلك لأن نفي العلم عن غير زيد الذي تضمنه هذا الحصر ليس كذلك في نفس الأمر وإنما نسب ذلك النفي إلى الغير لكونه بمنزلة المتصف بالنفي لضعف الإثبات فيه ونسبة الشيء لغير من هو له مجاز تركيبية ) وقد ذكر أيضاً ( أن القصر الإدعائي بالمبالغة لا يختص بقصر الصفة على الموصوف ولا بالحقيقي بل يجري في قصر الموصوف على الصفة وفي الإضافي مطلقاً فإذا كانت صفات في شخص وكان مشهوراً بوحدة كمالها وأريد أن يبين أن غير تلك الصفة في ذلك الموصوف ضعيف بالنسبة إليها حتى كأنه لم يتصف إلا بتلك الصفة حصر الموصوف فيها فيقال مثلاً : ( ما حاتم إلا جواد ) أي لا ينصف بغير الجود من الصفات بمبالغة في كمال الجود فيه فكأن غيره فيه عدم وتقول مثلاً عن قصر الصفة على الموصوف الإضافي بمبالغة ( ما عالم إلا زيد ) أي لا عمرو ولو كان عمرو عالماً أيضاً ولكن تنزل علمه كعدم بالنسبة لعلم زيد وفي أقصر الموصوف الإضافي بمبالغة ( ما زيد إلا كاتب ) أي لا شاعر ولو كان شاعراً وكاتباً معاً تنزيراً لشعره بمنزلة العدم بالنظر لكتابته )<sup>(٣)</sup> .

(١) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ١٧٤ / ٢

(٢) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص : ١٧٤ / ٢

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ١٧٤ / ٢ ، ١٧٥

ولما كانت هذه التقسيمات تستمد تنوعها من الواقع الخارجي ومن إرادة المتكلم مغللة حقيقة الوجود اللغوي وإثبات ونفي اللفظة ذاتها المستمد من النص والسياق وجدت أسلوب القصر يوصف به الإدعاء الذي وضعوه كما ترى هنا مرادفا للمبالغة . . . ولو اقتصرنا في المبالغة في كمال الصفة لكان الأمر . ولقبلناها لأن الدلالة على التناهي ولبسوغ الغاية في كمال الوصف مفهوم صحيح للمبالغة ، ولكنهم قرنوا ذلك بحصر المخصص في المخصص له ونفيه عما عداه تنزيلا لما عداه منزلة العدم ، ولما لم يصدق ذلك على الواقع الخارجي الذي افترضوا أن اللفظة مرآة له قرنوا هذه المبالغة بالإدعاء وبهذا النظر كان الحقيقي من القصر عندهم أحد أمرين :

- ١ - ما كان فيه حصر الصفة في الموصوف ونفيها عما عداه من الحقائق المطلقة المسلمة : مثل : لا اله إلا الله - ما خاتم الأنبياء إلا محمد صلى الله عليه وسلم .
  - ٢ - ما ثبت في الواقع الخارجي حقيقته وكيونته المحصورة وذلك كقولك ( ما في الدار إلا زيد ) وحتى هذا المثال الذي يحكي حقيقة خارجية واقعة وذلك حيث لم يكن في الدار إلا زيد لم يسلم من إمكانية ادخاله عند في باب الإدعاء يقول المغربي في ذلك ( فان لفظ الدار إذا أريد بدار معينة صح أن تحصر هذه الصفة وهو الكون فيها في زيد بحيث لا يكون فيها غيره أصلا وإنما قلنا معينة لأنه لو أريد مطلق الدار لم يتأت عادة حصر الكون في مطلق الدار في زيد إذ لا بد من كون غير زيد في دار ما . وورد على هذا المثال أن الكون في الدار المعينة ينحصر في زيد لأن الهواء الذي لا يخلو منه فراغ عادة كائن في الدار فان أريد نفي الكون عن نوع زيد بأن يكون التقدير ما في الدار إنسان أو أحد إلا زيدا ليقع الاستثناء متصلا قرب الجنس لزم صحة هذا في قصر الموصوف على الصفة الذي جعل متعذرا أو محالا إذ يصح قولك ما هذا الثوب إلا أبيض بتقدير أنه لا يتصف بشي من الألوان غير البياض فالأول التمثيل بنحو ما تقدم وهو قولنا ( ما خاتم الأنبياء إلا محمد صلى الله عليه وسلم ) (١) .
- وحتى عند عبد القاهر الجرجاني أيضا كانت إفادة طريقي الحصر "انما" و "التصريف" للمبالغة - وهما الطريقتان اللذان نصل على افادتهما المبالغة كما سبق أن أشرنا - عن طريق الادعاء فإنما تفيد المبالغة إذا ادعى في القصر أمر ظاهر معلوم للجميع كقول الشاعر :
- انما مصعب شهاب من اللـ  
 - تجلّت عن وجهه الظلماء (٢)

(١) مواهب المفتاح ضمن شروح التلخيص : ١٧٣/١ ، ١٧٤

(٢) دلائل الاعجاز : ٢٥٥

(١٧٦)

والتعريف يفيد المبالغة عنده إذا قصرت جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك  
المبالغة وذلك كقولك : زيد هو الجواد ، وعمرو هو الشجاع : تريد أنه الكامل إلا أنك  
تخرج الكلام في صورة توهم أن الجواد أو الشجاع لم توجد إلا فيه ، وذلك لأنك لم  
تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال (١) .

## الفصل الثالث

## المبالغة في علم البديع

## ١ - مبحث المبالغة والبديع عند المتأخرين

ان استعراض نشأت البديع ، وتطور مصطلحه ، وتقسيماته أمر لا يعني هذا البحث الذي انحصر في تناول المبالغة ، وتاريخها ، وطوفانها فيما حكم عليه بها من الألوان الأسلوبية للكلام ، ولقد كفانا مؤونة ذلك بعض الأبحاث التي تنبعت في نشأته وتطوره<sup>(١)</sup> . والذي يعيننا هنا أن نشير إلى النظرة التي استقرت في البلاغة العربية إزاء البديع ، تلك النظرة التي جعلته يأتي في مرحلة تالية للوفاء بالمعنى بالمراد والتي تتضح من خلال تعريف الخطيب القزويني له إذ عرفه بقوله ( وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة )<sup>(٢)</sup> ، وجعل البديع في هذه الدرجة المرحلية ، وقصر وظيفته على التحلية والتحسين أمر فيه الكثير من العيب بطاقات الكلام وإشعاعاته ، ذلك العيب النظري الذي طاف بالبلاغة العربية التي حصرت معنى الكلام في معنى موهوم تصوروا أنه هو المعنى الأصلي وقصروا الوظيفة الأساسية للكلام في الإشارة إليه ، وما يأتي بعد ذلك ما هو إلا توكيد أو تقرير أو توضيح أو مبالغة أو تحسين وتحلية . ولقد لفت ذلك نظر الدكتور أحمد موسى فقال بعد أن عرض للبديع وأساليبه ( وبما عرضناه عليك من أساليب البديع يتجلى لك أن هذا الكلام كله نظري لا يستند على دعائم عملية تكفنه وتوازره ، فالمقسم ، أو المزاج ، أو المطابق ، أو المعطل أو المبالغ مثلا لم يلاحظ قبلية أو بعدية كما لم يلاحظ المؤكد أو الموجهز أو المطنّب أنه راعي ذلك بعد رعاية ما يقتضيه علم الإعراب . وإن كان لا بد من صحة التراكيب - وإنما يرمي إلى عرض كما يرمي الذي فصل أو وصل ، ويقصد إلى هدف كما يصنع الذي شبه أو تجوزه أو كنى ، دون هذه المراعاة الاعتبارية النظرية التي خبوا في بيانها ووضعوا فلم يأتوا بشيء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا )<sup>(٣)</sup> ولقد أشاد بالبهاء السبكي عندما أنكسر هذه المرحلية النظرية فقال ( والحق الذي لا ينزع فيه منصف أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال . ومن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين ، وأول برهان على ذلك

(١) ممن تناول ذلك : د . أحمد موسى في كتابه : الصبغ البديعي في اللغة العربية د . رجاء عيد في كتابيه : المذهب البديعي في نقد الشعر ، وفلسفة البلاغة بين التقنية والتطور .

(٢) الايضاح ضمن شروح التلخيص : ٢٨٢/٤ ، ٢٨٣ - (٣) الصبغ البديعي ٥٠١

أنك لا تجد هم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان احتمال شيء منها على التطبيق ولا تجد هم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفا للكلام الأكثرين (١) .

وهذا هو ما دعا الدكتور علي العماري أن يقول ( وإذا كان بعض الباحثين يرى أن المحسنات البديعية ليست أمورا عرضية في الكلام كما جرى عليه الأوائل ، بل هي أمور ذاتية ، فإن أحق الألوان البديعية أن يلحق بعلم البيان هو هذا النوع لما فيه من جمال التعبير ، وروعة المعنى .

ولا يعمرك علينا أن تعريف علم البيان - كما درجت عليه البلاغة السكاكية - لا يشملها ، فمن اليسير أن نستأذن سدنة هذه البلاغة أن يسمحوا للمبالغة ، ولغيرها من الألوان البديعية التي تكون أصلا في بلاغة الكلام أن يسمحوا لها بالانتساب إلى علم البيان (٢) ولا شك أن هذا شعور بالحيف الذي لقيه البديع في البلاغة العربية ، ولكن هل الحاقه بالبيان على أساس أن البيان ما هو إلا طرق مختلفة في وضوح الدلالة لإيراد المعنى الواحد يخرج من هذا الحيف ١٢٩ !

ولقد استقرت المبالغة في تأليف المتأخرين من علماء البلاغة عنوانا عاما على ما رأوا من ألوانها عند المتقدمين ، وأدرجت تحتها ألقاب تجمع كل الأوصاف التي وردت على أسنة المتقدمين ، وجعلت المبالغة مبحثا من مباحث علم البديع ، وإن كان بعض ألوانها ذكر في علم البيان وبعضها ذكر في علم المعاني (٣) .

وقد قسموا المبالغة إلى درجات مراعين في ذلك تحقق الوجود اللغوي في الواقع الخارجي تحقيقا يمكنهم من أخذ الواقع الخارجي معيارا يحتكمون إليه في الحكم على العمل الأدبي . إما بالصحة أو الكذب وإما بالامكان أو التمذر . . . ولذلك قسموا المبالغة إلى درجات في ضوء هذا المعيار هي :

- ١ - إن كان المدعي ممكنا عتلا وعادة فتبليغ كقوله :  
فعادى عدا بين ثور وعجوة  
وراكاً فلم ينضج بما فيفسل
- ٢ - وإن كان ممكنا عقلا لعادة فأغراق كقوله :  
ونكرم جارنا ما دام فينـا  
ونتبعه الكرامة حيث مالا
- ٣ - وبعد هذين القسمين يبنى قسم واحد فقط ، وإن كانت القسمة العقلية تقتضي رابعا ولكنه ممتنع ولذلك قال سعد الدين التفتازاني ( وإن لم يكن ممكنا لا عقلا

(١) عروس الأفرح ضمن شروح التلخيص : ٢٨٤/٤ والصيغ البديعي : ٥٠١ ، ٥٠٢  
(٢) المعاني بين القصد والإفراط - مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي : ٢٢٩  
(٣) المرجع السابق : ٢٢٨

ولا عادة لا متناع أن يكون ممكنا عادة متمعا عقلا إذ كل ممكن عادة ممكن عقلا  
ولا ينعكس فـضـلو كقولـه :

وأخفت أهل الشرك حتى إنـه (١) لتخافك النطف التي لم تخلق ( )

وعلق البهاء السبكي على البيتين الواردين في القسمين الأول والثاني فقال عن  
الأول : ( وفيه نظراً أن هذا إخبار عن الواقع بغير مبالفة ) (٢) وقال عن الثاني  
: ( وفيه نظراً لـمـكان حمل ذلك على تزويده بما يصاحبه في كل جهة يميل إليها  
كما هي عادة الكرام ) (٣) .

وهذا المعيار ليس معياراً صادقاً للغة العمل الأدبي لأننا بهـسـدا  
المعيار ندين معظم ما جاء بهذه اللغة التي تقوم على إعادة تشكيل الواقع  
الخارجي وإقامة الأشياء في وجود لفوي آخر تتجدد فيه العلاقات بينها . . .  
من واقع منظور المبدع الذاتي وبكل ما يصاحبه من مشاعر وأحاسيس ورغبة ملحمة  
من الإنسان في اقتناصه حقائق الأشياء بنفسه . وتسجيل ذلك الفكر السبيل  
المتدفق بكلمات اللغة التي تبقى بعد ذلك حاملة لتدفق ذلك الفكر ، ومتيحة  
لقارئها وسامعها بواسطة نشاطها أن يطوف معها في أجواء فكر الإنسان  
في حدود تقديره للكلمة ودورها ، وإيمانه بفاعليتها ونشاطها ، فإن كان مقدراً  
لذلك ومؤمناً به استطاعت الكلمة أن تحمله إلى قريب جداً من ذلك الأفق السدي  
ولدت فيه ، وإن كان الواقع هو حكمه ومعياره فقد ابتعد عن ذلك الأفق ورماه  
دبراً أنه وحمله على التجوز والتزويد والمبالفة والكذب كما هو واضح في تراثنا  
النقدي والبلاغي .

ومن منطلق الواقع الخارجي ومعياريته في الحكم على اللغة حكموا  
بوجود " الفلو " الذي اعتبروه أبعد أنواع المبالفة درجة عن حقيقة الواقع  
عقلا وعادة في القرآن الكريم . . وقد قبلوه لاقتراحه في نظرهم بما يقربه إلى  
الصحة نحو لفظة يكاد في قوله تعالى ( يكاد زيتها يضيء ولولم تمسه نار ،  
نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ) (٤) .

ولقد شعر ابن يعقوب المغربي بالحرص في القول بالتقريب إلى الصحة  
فقال معلقاً على قول صاحب التلخيص ( وينبغي لما مثل بالآية أن يقول - بدل  
قوله يقربه إلى الصحة - لا يظهر معه الامتناع تأدياً وهو كذلك ثم إن ما ذكر  
من كون اضاءة الزيت محالاً عقلاً غير ظاهر لصحة اتصاف كل جسم بما اتصف به

(١) شروح التلخيص : ٣٥٩/٤ - ٣٦١ (٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٣٦٠/٤

(٣) المصدر السابق : ٣٦١/٤ )

(٤) الآية : ٣٥ من سورة النور وانظر شروح التلخيص : ٣٦٢/٤ .



الآخر اللهم إلا أن يراد بالاستحالة العقلية الاستحالة في عقول العامة أو يراد بالزيت الزيت بقيد كونه غير مضيء كما هو المشاهد وفي كل ذلك تمحل باعتبار إطلاقهم التفصيل لأن الظاهر من الاستحالة الحقيقية المتقررة على الإطلاق وإلا فإكرام الجار نائياً أبداً باعتبار عقول العامة محال، وكذا يقيد كونه غير مكرم كما هو في العرف والشهود (١) .

وأما البهاء السبكي فقد أنكر عليهم وسيلة التقريب هذه فقال ( ولك أن تقول المستحيل كيف يقرب من الصحة بكاد ) (٢) وعلق على أمثلة الغلو بهذه الآية ويقول الشاعر وهو ابن حميد الصقلي :

ويكاد يخرج سرعة عن ظله  
لو كان يرغب في فراق رفيق  
ويقول أبي الطيب المتبي :

عقدت سنايكها عليها عثيراً  
لو تبتني عنقا عليه لأمكننا

بقوله ( وفي جميع هذه الأمثلة وكونها من المستحيل عقلاً نظر إن العقل لا يمنع أن يضيء الزيت وأن يخرج الفرس عن ظله ، وأن تعقد حوافر الخيل غباراً ويتكاثف حتى يمكن السير عليه ) (٣) .

وحول هذا المفهوم العقلي المحدود بحدود الواقع الخارجي للآية نقول : إن لغة القرآن الكريم هي كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . . وقد جاءت تموج بحياة الكثير من الكائنات . . . وتتجاوز تصورات البشر الذين يسمعون لاهثين لإدراك الحقيقة بوسائلهم المحدودة وجاء القرآن الكريم يوضحها لهم ويعرضها عليهم عرض العليم بخفايا كل شيء . . . في لغة لا يمكن لنا أن نحد فهمها بحدود مدركات الذهن البشري المحسوسة والمشاهدة . . . ولذلك كان لزاماً علينا ألا نجعل التحقيق في الواقع الخارجي لحقائق القرآن الكريم هو وسيلتنا في الفهم والاستبصار ، بل يجب علينا أن نسموا إلى أفق لغة القرآن ، وأن ننظر إلى الأشياء فيها في ظل وجودها وسياقها اللغوي الذي عرضه القرآن الكريم .

والذي يضرب الله سبحانه وتعالى له المثل في هذه الآية هو نوره عز وجل . وتفسير هذا النور بأنه الحق (٤) ، أمر فيه اختصار لحقيقة النور الإلهي ، لأن الحق جزء من النور قال تعالى ( الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى

- ( ١ ) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص : ٣٦٢/٤ ، ٣٦٣ ( ٢ )  
( ٣ ) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص : ٣٦٢/٤ ، ٣٦٤  
( ٤ ) انظر تفسير ابن كثير ٢٨٩/٤ وتفسير الكشاف ٦٧/٣

الظلمات ) . وقال جل وعلا ( يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ) <sup>(١)</sup> . وقال جل ذكره ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ) <sup>(٢)</sup> .

والنور الالهي نور شامل غمر الكون كله كما في هذه الآية ( الله نور السموات والأرض ) وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة كما في قوله صلى الله عليه وسلم ( أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ) وأشرقت به الأرض يوم القيامة ( وأشرقت الأرض بنور ربها ) <sup>(٣)</sup> فهو نور تنفّس به الظلمات ، وتشرق به الأرض . . . ولكن هل يمكن لنا نحن البشر إدراك حقيقة هذا النور الإلهي ؟! إننا وسألنا المحدودة لا ندرك حقيقة هذا النور ولكننا يجب علينا الإيمان به كما جاء به الكتاب ، وكما جاء في السنة المطهرة . . . وما جاء في هذه الآية هو ضرب مثل لذلك النور . . . ذلك المثل الذي يرتفع بنا من الواقع المحسوس الى آفاق السماء والغيب فيبدأ بالمحسوس المشاهد ( مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ) ثم يسمو بنا الى آفاق السماء ، ويتجاوز بنا الواقع فيشبه الزجاجة بالكوكب الدرّي ، ويكون الإيقاد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ) ويعقب سبحانه في ختام المثل بقوله ( ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ) فمهما بلفت قوانا الإدراكية فعلم الله سبحانه وتعالى هو المحيط بكل شيء . . . ومداركنا لا تدرك إلا ما يمن الله عليها بإدراكه . . . وعلينا أن نؤمن بما وراء ذلك كما جاء به الكتاب الكريم ، وكما أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم .

وطالما أن هذا المثل المضروب لهذا النور الذي لا يمكن لنا إدراكه بالمشاهدة المحسوسة فقط . . . والذي كما نلاحظ في نصه يتجاوز بنا الواقع المشاهد المحسوس الى آفاق السماء . . . وعالم آخر تتجاوز فيه الشجرة الزيتونة المباركة حدود المكان والزمان . . . ما دام أن الأمر كذلك فلا مجال للحكم بأن قوله تعالى " يكاد زيتها يضيء " من باب الغلو المقرب الى الصحة بـ " كاد " . ولقد كان سيد قطب رحمه الله تعالى موقفا في الظلال التي استوحاها من سياق هذا المثل عندما قال ( وهو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود . . . وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يمجز عن تتبع مداه عن ولفاقه المترامية وراء الإدراك البشري .

(٢) سورة النساء : ١٧٤

(١) سورة الصف : ٨

(٣) سورة الزمر : ٦٩

ومن عرض السموات والأرض إلى المشكاة ، وهي الكوة الصغيرة في الجدار غير النافذة يوضع فيها المصباح ، فتحصر نوره وتجمعه ، فيبد وقوبا متألقا :  
 " كمشكاة فيها مصباح " . . . " المصباح في زجاجة " . . . تقيه الريح ، وتصفي نوره ، فيتألق ويزداد . . . " الزجاج كإنها كوكب درى " فهي بذاتها شفافة راتقة سنية منيرة هنا يصل بين المثل والحقيقة . . . حين يرتقي من الزجاج الصغيرة الصغيرة الى الكوكب الكبير ، كي لا ينحصر التأمل في النموذج الصغير الذى ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير ، وبعد هذه اللفتة يعود الى النموذج الذى المصباح : " يوقد من شجرة مباركة زيتونة ) ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون . ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل ، إنما هو كذلك الظلال المقدسة التي تلقيها الشجرة المباركة . ظلال الوادى المقدس في الطور وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة الصرب . وفي القرآن إشارة وظلال حولها  
 " وشجرة تخرج من طور سيناء تثبت بالدهن وصبغ للالكليين <sup>(١)</sup> . وهي شجرة معمرة وكل ما فيها مما ينفع الناس . زيتها وخشبها وورقها وثمرها . . . ومرة أغسرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكر بالأصل الكبير . فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها وليست متعيزة الى مكان أو جهة . . . " لا شرقية ولا غربية " وزيتها ليس زيتا من هذا المشهود المحدود ، إنما هو زيت آخر عجيب " يكاد زيتها يضيء ولولم تمسه نار " فهو من الشفافية بذاته ، ومن الإشراق بذاته ، حتى ليكاد يضيء بغير احتراق " ولولم تمسه نار " " نور على نور " وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق في نهاية المطاف .

إنه نور الله الذى أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض ، النور الذى لا تدركه كنهه ولا مداه ، إنما هي محاولة لوصول القلوب به ، والتطلع الى رؤياه " يهدى الله لتوره من يشاء " . . . ممن يفتحون قلوبهم للنور فتراه . . .  
 إنما المثل الذى ضربه الله بنوره ، وسيلة تقريبية الى المدارك ، وهو  
 (٢)  
 المعلم بطاقة الهشور .

(١) سورة المؤمنون : ٢٠

(٢) في ظلال القرآن : ٢٥١٩/٤ ، ٢٥٢٠

## ٢ - المبالغة في حسن التعليل

لقد تناول النقد والبلاغة العربية هذا الباب ، ومن أفاض في الحديث عنه الإمام عبد القاهر الجرجاني . وربطه بالتخييل والإدعاء ( وجملة الحديث أن السذى أريده بالتخييل ههنا . ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى لا طريق الى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويربها ما لا ترى (١) وهذا القسم التخيلي عنده والذي وضعه مقابلا للعقل ( فهو الذي لا يمكن إنه صدق ، وإن ما أثبتته ثابت ، وما نفاه منفي ، وهو مفتن المذاهب ، كثير المسالك ، لا يكاد يحصر إلا تقريبا ولا يحاط به تفسيرا وتبويبا . . ثم إنه يجيء طبقات ويأتي على درجات .  
فمنه ما يجيء مصنوعا قد تطف فيه واستمعين عليه بالرفق والحدق ، حتى أعطي شهبها من الحق ، وغشى رونقا من الصدق ، باحتجاج بخيل ، وقياس يصنع فيه ويعمل ، ومثاله قول أبي تمام :

لا تتكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالسي

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة في قدره وكان الغنى كالغيث في حاجة الخلق إليه وعظم نفعه ، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم نزول ذلك السيل عن الطور العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام ، لا تحصيل وإحكام فالعلة في أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية ، أن الماء سيال ، لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب ، وتمنعه عن الانسياب ، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال (٢) .

ويظهر في هذا القسم حسن التعليل في أنواع متعددة مرتبطة بالتخييل يقول عبد القاهر ( ومن هذا النمط في أنه تخييل شبيه بالحقيقة لا اعتدال أمره وإن ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى قوله :

ليس الجليل بمقص عنك لي أملا إن السماء ترجى حين تحتجب

فاستتار السماء بالغيث . هو سبب رجاء الغيث الذي يمد في مجرى العادة جودا منها ونعمة صادرة عنها (٣) ويضيف معددا هذه الأنواع :

( وهذا نوع آخر وهو دعواهم في الوصف هو خلقه في الشيء وطبيعة ، أو واجب على الجمالية من حيث هو - أن ذلك الوصف حصل له من المدح ، ومنه استفاد ، وأصل هذا التشبيه ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد ، ولهم فيه عبارات منها قولهم : إن الشمس تستعير منه النور وتستفيد ، أو تتعلم منه الإشراق وتكتسب منه الإضاءة ، وألطف من

(١) أسرار البلاغة : ١٣٦/٢ (٢) المصدر السابق : ١٢٨/٢ ، ١٢٩

(٣) المصدر السابق : ١٣٨/٢



لا ارتباطها بها ، فقد عقد في هذا الفصل مناظرة بين قبولها ورفضها ، وأملى عليه موقفه من لغة العمل الأدبي التي وضع الواقع الخارجي معيارا لصحة علاقاتها ، وهذا لأبيه أن يجعلها كالقضية المنطقية وأن يطبق عليها معايير الصحة والكذب في المنطق ، ثم يحار بين هذا التطبيق ، وبين رفض لغة العمل الأدبي لهذا المنطق ، فيميل إلى رفضها نظريا حيث يقول ( والعقل بعدد على تفضيل القبيل الأول — من المعنى العقلي — وتقديمه ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره والتحقيق شاهده ، فهـ العزيز جانبه ، المنيع مناكبه ، وقد قيل : الباطل مخصوم وإن قضى له ، والحق مفلح وإن قضى عليه ، هذا ومن سلم أن المعاني المفرقة في الصدق ، المستخرجة من معدن الحق في حكم الجامد الذي لا ينمى ، والمحصور الذي لا يزيد ؟

وان أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر الى قول أبي فراس :

وكنا كالسهم إذا أصابت مراهيبها فراميتها أصابا

أست تراه عقليا في نسبه ، معترفا بقوة سببه ، وهو على ذلك من فرائد أبي

فراس التي هو أبو عذرها والسابق إلى إثارة سرها ( ١ ) .

ثم يجيء بعد ذلك في شرح أبيات من القبيل الثاني فيشيد بها ويشـ سر استحسنها ، ومن هنا كانت المبالغة التي يذكرها في هذا البيت تفوح منها رائحة الكذب والإدعاء ، حيث حاول جاهدا أن يحتج لها ، ويدافع عنها . . . وأنى يتم له ذلك وهو يأخذ الشعر مأخذ القضايا المنطقية ، وإذا سلمنا أن الشعر ليس قضايا منطقية وأن لفته لا تتقل الواقع الخارجي نقلا حرفيا ، وجدنا أن الحكم بالإدعاء والمبالغة أمر لا أساس له وأنه جاء نتيجة لعدم صدق المعيار الذي حوكت به .

ولقد سلك الخطيب القزويني في ربط هذا الباب بالإدعاء والمبالغة الطريق نفسه إذ عرفه بقوله ( وهو أن يدعي لوصف علة مناسبة باعتبار لطيف غير حقيقي ) ( ٢ ) . ولقد شرح السعد هذا التعريف وجاء في شرحه قوله ( أى لا يكون ما اعتبر علة لهذا الوصف علة له في الواقع كما إذا قلت قتل فلان أعاديه لدفع ضررهم ، فإنه ليس في شيء من حسن التعليل ، وما قيل من أن هذا الوصف أعني غير حقيقي ليس بمفيد ههنا لأن الاعتبار لا يكون إلا غير حقيق فغلط ، ومنشؤه ما سمع أن أرباب المعقول يطلقون الاعتبارى على ما يقابل الحقيقي ، ولو كان الأمر كما توهم لوجب أن يكون جميع اعتبارات العقل غير مطابق للواقع ) ( ٣ ) فهو هنا يسير معهما في الحكم بعدم مطابقته للواقع وكونه غير حقيقي وقد حصر الخطيب أقسامه في أربعة أقسام فقال ( وهو أربعة أقسام لأن الوصف ، اما ثابت قصد

( ١ ) اسرار البلاغة : ١٣٤ / ٢ ، ١٣٥ ( ٢ ) الايضاح ضمن سروح التلخيص : ٣٧٣ / ٤

( ٣ ) مختصر السعد ضمن سروح التلخيص : ٣٧٣ / ٤

بيان علته أو غير ثابت أريد إثباته ، والأول إما أن يظهر له في العادة علة أو يظهر له  
علة غير المذكورة ، والثاني إما ممكن أو غير ممكن أما الأول فكقول أبي الطيب :

لم يحك نائلك السحاب وإنما همت به فصببها الرحضاً

فإن نزول المطر لا يظهر له في العادة قلة : وكقول أبي تمام :

لا تتكرى عطل الكرم من الفنى فالسيل حرب للمكان العالي

وأما الثاني فكقول أبي الطيب :

ما به قتل أعدائه ولكن يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

فإن قتل الطوك أعداءهم في العادة لإرادة هلاكهم ، وأن يدفعوا مضارهم

عن أنفسهم حتى يصفولهم ملكهم من منازعتهم ، لا لما ادعاه من أن طبيعة الكرم قد

غلبت عليه ومحبه أن يصدق رجاء الراجين بعثته على قتل أعدائه ، لما علم أنه لما غدا

للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق من قتلاهم ، وهذا مبالغة في وصفه

بالجود ويتضمن من المبالغة في وصفه بالشجاعة على وجه تخيلي . أى تناهي فنى

الشجاعة حتى ظهر ذلك للحيوانات المعجم فإذا غدا للحرب رجيت الذئاب أن تنال

من لحوم أعدائه ، وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة

للخيظ والحقق .

وأما الرابع فكمعنى بيت فارسي ترجمته :

لولا تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليه عقد منتطق

فان نية الجوزاء خدمته ممتعة ( ١ ) +

ومعنى هذا التقسيم والحكم بالإدعاء هو تحقق ما يقوله الشاعر في الواقع الخارجي

والعرف المعتبر ، وإذا عرفنا أن عمل الشاعر يقوم على وجود لغوى قد لا يتفق مع وجود

الواقع الخارجي والعرف المعتبر فيجي\* مفاير له في التشكيل والترتيب ، بل قد يدمره

الشاعر ويقيم على أنقاضه وجود آخر قوامه اللفظة وحياة الكلمات في سياقها ، إذا عرفنا

ذلك كان على النقد أن يتعالى مع اللفظة في هذا الأفق ، وأن ينأى عن هذا الحكم

البسيط بالحقيقة أو عدمها ، وأن تصرف المبالغة فيه عن التزيد والإدعاء الى وصف

وتفسير جهد الشاعر في بلوغ ما يبلغ به الغاية في تحقيق ذلك الوجود الشعري ، ومع أن

عبد القاهر قد سار في تحكيم الواقع والمتعارف عليه في العادة والطباع في اللفظة الشعرية

كما سبقت الإشارة الى ذلك لم يكتف بذلك بل أخذ يبين دور هذه المخالفة والمفايرة في

العمل الفني فمن ذلك شرحه لبيت أبي الطيب السابق حيث قال فيه ( الذى يتعارفه

الناس أن الرجل اذا قتل أعاد به فلإرادته هلاكهم . وأن يدفع مضارهم عن نفسه ، وليسلم ملكه ، ويصفو من منازعتهم ، وقد ادعى المتنبى كما ترى أن العلة في قتل هذا المدح لأعدائه غير ذلك .

واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون في استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالمدح ، أو يكون لها تأثير في الذم كقصد المتنبى ههنا في أن يبلغ في وصفه بالسخاء والجود ، وأن طريقة الكرم قد غلبت عليه ومحبتة أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة في آمالهم قد بلغت به هذا الحد ، فلما علم أنه اذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ، ويخصب لها الوقت من قتل عداه كره أن يخلفها ، وأن يخيب رجاءها ولا يسمعها ، وفيه نوع آخر من المدح ، وهو أنه يهزم العدا ويكسرهم كسرا لا يطمعون بعده في المعاودة ، فيستغني بذلك عن قتلهم وإراقة دماهم ، وأنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة للفيظ والحنق ولا يعفو اذا قدر وما يشبه هذه الأوصاف الحميدة ناعرفه (١) .

وأخذ البيت في سياق النص الذي جاء فيه يعطي لهذا التعليل الذي أتى به الشاعر مكانا طبيعيا يتحرك فيه داخل حركة النص ، ويلقى فكرة التحسين التي تخلق على التعليل نتيجة لتثبيت الكلمات وحصر تحركها في صورة مطابقة لما يجري في المصروف والواقع الخارجي . فالبيت قد ورد في قصيدة لأبي الطيب المتنبى في مدح بدر بن عمار يقول فيها :

إنما بدر بن عمار سحاب	هطل فيه ثواب وعقاب
إنما بدر رزايا وعطايا	ومنايا وطمان وضراب
ما يحيل الطرف إلا حمدته	جهدها الأيدي ودمته الرقاب
ما به قتل أعاديه ولكن	يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب
فله هية من لا يترجى	وله جود مرجى لا يهاب (٢)

ومن أول بيت تلاحظ أن الشاعر يقيم لمدوحه وجودا شعريا لوقارناه بالواقع الخارجي والمصروف المعتاد لكان ميتا وكذبا وافتراء ، ولكنه عمل الشاعر في الوجود الشعري عن طريق اللفظة الذي يعيد فيه تشكيل الواقع الخارجي ، ويعقد فيها بين أجزاءه علاقات تقيمها الكلمات بما تحويه من نبض وإشعاع .

لقد رفع الشاعر مدوحه الإنسان الذي ذكر لنا اسمه واسم أبيه من حديد الإنسانية إلى أفق شعري يتعالى فيه على من حوله ، ويجعلهم في علاقة منوتة معه ،

(١) أسرار البلاغة : ١٥٨ / ٢

(٢) التبيان في شرح الديوان : ١٣٣ / ١ ، ١٣٤



يرجون خيره ويخافون عقابه ، ويجعله المسك بقطبي هذه الضديه في كل رمز من الرموز التي جعلها مثله له ، فهو سحاب هطل فيه الثوب والعقاب ، وهو الرزايا والعطايا ، وهو أيضا المنايا والطعان والضراب ، وكأن الشاعر يدعونا بادى ندى بدء ألا نفكر في ممدوحه كنموذج إنساني فحسب ، بل علينا أن نعايش الشاعر هذا الوجود المتعالي الذي أقامه لممدوحه ، . . . وذلك كما يتضح من خلال أسلوب القصر ، إنما بدر بن عمار سحاب ، ومن خلال تكريره في البيت الثاني : إنما بدر رزايا وعطايا . . . ونمضي مع الشاعر في هذا الوجود ، الذي أصبح ما أن تحيل الأعين فيه الطرف الا وتحمد الأيدي لعطاياه ، وتذمه الرقاب خوفا من العصف بها ، حتى إذا أتينا إلى هذا البيت الذي نحن بصدده . وجدنا أن نفي العداوة وإرادة الحاق الضرر بأعدائه عند قتلهم كانت طبيعية ، وتتحرك في مكانها داخل هذا الوجود الشعري فتعالى الممدوح إلى هذه الرموز التي قدمها الشاعر رفعتة من إنسانيته . . . في الوقت الذي أطاحت بأعدائه من إنسانيتهم ، وجعلتهم لا قيمة لهم في وجود الممدوح الشعري ومن ثم فلا مجال لأن تكون علاقته معهم علاقة إنسانية فيقتلهم لإحاق الضرر بهم والتخلص من شرهم كما هو معتاد وبرز مكانهم مجموعة من الحيوانات المتوحشة " الذئاب " التي تأتي على الإنسان بعد انتهاء إنسانيته وتدميرها تنهش وتأكل حطامه الجسدى وبمثل هذا التحليل نستطيع أن نثمين طبيعية التعليل في قول أبي الطيب المتبني :

لم تحك نائلك السحاب وانما حمته فصببها الرخصاء<sup>(١)</sup>

لأن هذا التعليل يسير في مكان طبيعي ، يتحرك فيه ضمن حركة الأشياء

داخل هذا الوجود الشعري الذي أقامه الشاعر لممدوحه ، والذي تتم فيه الأشياء نموا عضويا . ففي هذه القصيدة يقول أبو الطيب<sup>(٢)</sup> x

شم الجبال ، ومثلهن رجاء	بينني وبين أبي عليّ مثليه
وهو الشتاء وصيفهن شتاء	وعقاب لبنان ، وكيف بقطعها
فكانها ببياضها سوداء	لبس الثلوج بها عليّ مسالكه
سال النضار بها وقام الماء <sup>(٣)</sup>	وكذا الكريم اذا أقام ببلدة
بهتت فلم تنبجس الأنواء <sup>(٤)</sup>	جمد القطار ولوراته كما ترى

وهو كما ترى يقيم مسافة بينه وبين الممدوح في العلو والوقار كالمسافة التي

بينها في المكان ، ثم ينساق في شرح مشقة الطريق إليه ، هذه المشقة التي لم تصد

نتيجة لظروف طبيعية فحسب ، بل أصبح وجود الممدوح الشعري يلعب فيها دورا بارزا

( ١ ) الرخصاء : عرق الحمى ( التبيان في شرح الديوان : ٣٠ / ١ )

( ٢ ) التبيان في شرح الديوان ١٨ / ١ ، ١٩

( ٣ ) النضار : الذهب ( التبيان في شرح الديوان ١٩ / ١ )

( ٤ ) تنبجس : تتفتح ( المصدر السابق : ١٩ / ١ )

فهو الذي يجمد الماء ويكوّن الثلوج ، وأصبح المدوح في صراع مع الطبيعة ينافسها ويجول بعطائه دون عطاءها فيجمد ماءها ، ويسيل ذهبه ، ويمضي بنا النصحة نجد أن المدوح قد بلغ درجة أصبح فيها اسمه هارون غالباً في المنافسة في الحصول على الالتصاق بهذا المدوح :

لم تسم يا حمارون لا بعدما اقترعت وتازعت اسمك الأسماء  
فغدوت واسمك فيك غير مشارك (١)  
ثم يبلغ وجوده الشمري درجة يصبح فيها مركز العطاء الذي ينطلق فيملاً  
المدن ، ويتجاوز بها الثناء ، بل يتبرأ المجد من أن يزداد المدوح فيه درجة بعد  
ذلك لأنه وصل الى الدرجة التي تنتهي عندها حدود المجد ، حيث برز وحده في  
الميدان ، فلا عطاء الا عطاؤه ، ولا جود الا جوده ، وبدأ إعطاء الطبيعة معلولاً  
فالما قد تجمد بل قد امتدت العلة الى وسيلة الإشادة بالمدوح وشكره ، فاصبح  
معلولاً ، وأصبح الفكر منكوباً ، وأصبح المجد في درجة يخاف معها أن يزيد الممدوح  
فيتهرباً منه لأنه قد أصبح فوق طاقته .

لعمت حتى المدن منك ملاً  
فالفخر عن تقصيره بك ناكب (٢)  
ولفت حتى ذا الثناء لغاء  
والمجد من أن تستزاد برأ (٢)  
ومد ذلك أخذ يهرزه في المقام المستغنى فيه عن كل شكر وثناء ، والمترفع  
عن كل ما يضيره كفني هذا شأنه ، وبعداً عنه كل ما يظن أنه يسلبه هذا الوجود  
الذي أقامه الشاعر له :

فاذا سئلت فلا لأنك محوج  
وإذا مدحت فلا لتكسب رفعة  
وإذا كتبت وشت بك الآلاء  
للمشاكرين على الآله ثناء (٣)  
ثم يعود الى ما يظهر من عطاء الطبيعة الذي سبق أن أبرز لنا الصراع بين  
المدوح وبينها وأقامه في درجة مرتفعة عنها ، ونفى أن يكون ذلك لحاجته إليه :  
وإذا مطرت فلا لأنك مجذب  
يسقى الخصب وتمطر الدماء (٤)  
ثم يعود في هذا البيت الذي نحن بصدده :  
لم تحك نائلك السحاب وإنما  
حمت به فصبيها الرحضاً (٥)  
ويظهر عطاء الطبيعة معلولاً أمام عطاء المدوح كما سبق أن رأينا تلك العلة

- 
- (١) المصدر السابق : ٢٨/١  
(٢) المصدر السابق : ٢٩/١ وفيه : اللفاء : الحقير الخسيس ، وقيل : هو الذي دون الحق .  
(٣) المصدر السابق : ٣٠/١ (٤) المصدر السابق : ٣٠/١  
(٥) المصدر السابق : ٣٠/١

في الماء الذي قام أمام سيل نضاره ، وفي القطار الذي جمد ، وفي الأنواء التي  
بهتت فلم تتفتح ، وهنا لم تكن السحب مقلدة لعطائه بل كانت معلولة منها وكانت  
تلك العلة هي داعيها إلى أن تعطر ، ولذلك كان هذا التعليل طبيعيا ضمن حركة  
النص الذي أقام للمدوح وجودا يتعالى فيه على ما حوله .

## ٣ - تجاهل المعارف

ومن الأساليب التي قالوا فيها بالمبالغة على مفهوم صحيح لها ، لا يخرج  
 عنها عن الحد ، ولا يزيد عن الأصل . بل فسروا مجيئها فيها ببلوغ الغاية في غرض  
 المتكلم ومقصوده ، هذا الأسلوب الذي سماه ابن المعتز بـ ( تجاهل المعارف ) ومثل  
 ما يقول زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري      أقوم آل حصن أم نساء<sup>(١)</sup>  
 وقول ابن أبي أمية :

فد يتك لم تشب ولم ترو من هجري      أتستحسن الهجران أكثر من شهر  
 أراني سأسلوعك إن دام ما ترى      بلا ثقة لكن أظن ولا أدري<sup>(٢)</sup>

وسماه أبو هلال بـ ( تجاهل المعارف ومزج الشك باليقين ) وعرفه بقوله :

” هو اخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً “<sup>(٣)</sup>  
 وسماه ابن رشيقي بالتشكك ، وأشار إلى أن فائدته هي ( الدلالة على قرب  
 الحق من الباطل ) لا يفرق بينهما ، ولا يميز أحدهما من الآخر ( ومثل له بقول زهير

سابق ، ويقول ذي الرمة :

أيا ظبية الوعاء بين جلاجل      وبين النقا أنت أم أم سالم  
 ويقول القائل الذي نسبه للمرجي<sup>(٤)</sup> :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا      ليلاي منكن أم ليلى من البشر<sup>(٥)</sup>  
 وسماه السكاكي بـ ( سوق ) المملوم مساق غيره ) ولم يحب تسميته بالتجاهل  
 وأشار الخطيب إلى تسميته بالتجاهل ، وتسمية السكاكي له ، وذكر عددا من

أضاه التي تفيد المبالغة فيما يقصد إليه المتكلم فذكر منها :

المبالغة في المدح كما في قول البحترى :

ألمع برق سرى أم ضم صباح      أم ابتسامتها بالمنظر الضاحي  
 أو في      في أحب كما في قول الحسين بن عبد الله الخريبي

البديع : ٦٢ ، ٣ ، ( ٢ ) الصناعتين : ٤١٢

قال محقق العمدة الشيخ محمد مهدي الديه عبد الحميد : ( اضطرب العلماء  
 في نسبة هذا البيت ، فزعم قوم أنه لمجنون ليلى وكأنهم اغتروا بذكر ليلى فيه ،  
 وقد بحث جميع ديبان فلم أجده ، وقد نسبه المصيني كالمؤلف إلى المرجي ،  
 ونسبه العباس لأعرابي ولم يسمه ، ونسبه الباخريزي لبدوى سماه كاهلا الثقفي  
 ونسبه قوم للحسين بن بد الله : حاشية الحمد ٦١/٢ .

العمدة : ٦٦/٢ ( ٥ ) مفتاح العلوم : ١٨٠



٤ - تأكيد المدح بما يشبه الذم .

وهذا الأسلوب من الأساليب التي تظهر فيها المبالغة في بلوغ الفايضة  
والنهاية فيما يقصد إليه القائل به ، وقد سماه بعضهم بهذه التسمية كابن المعتز  
والسكاكي ، (٢) وشرح التلخيص ، (٣) وبعضهم سماه ب ( الاستثناء ) كأبي هلال ، (٤) وابن  
رشيق الذي قال ( وليس هذا الاستثناء على ما رتبته النحويون فتطلبه بحروف الاستثناء  
المعروفة ، وإنما سمي اصطلاحاً وتقريباً ، سماه هؤلاء المحدثون نحو الحاتمي وأصحابه  
ولم يسم حقيقة . . . ) (٥) ومن أمثله المشهورة قول النابغة (٦) :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم      بهن فلول من قراع الكتائب  
وقول النابغة الجعدي :      (٧)

فتى كملت أخلاقه غير أنه      جواد فط يبق على المال باقياً  
فتى كان فيه ما يصر صديقه      على أن فيه ما يسوء الأعادي  
وقد جعل بعضهم منه قوله صلى الله عليه وسلم ( أنا أفصح العرب بيد أني  
من قريش ) (٨) .

والذي أقوله هنا هو هل القول بتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وأن ذلك  
جاء للمبالغة في المدح يفسر هذا الأسلوب ؟

- ز-----
- (١) البديع : ٦٢ (٢) مفتاح العلوم : ١٨٠  
(٣) شروح التلخيص : ٣٨٦/٤ (٤)  
(٥) العمدة : ٤٨/٢  
(٦) مثل به لذلك في البديع : ٦٢ ، والصناعتين : ٤٢٤ ، والعمدة : ٢٤٨  
وشروح التلخيص : ٣٨٧/٤ .  
(٧) مثل بالبيت الأول منها في البديع : ٦٢ ، وشروح التلخيص : ٣٩٣/٤ ،  
وكليهما في الصناعتين : ٤٢٤ ، والعمدة : ٤٨/٢  
(٨) شروح التلخيص : ٣٩٠/١ ، ٣٩١
- قال الدكتور علي أعمارى : " وقد اشتهر بين الناس حديث منسوب إلى الرسول  
صلى الله عليه وسلم هو ( أنا أفصح العرب بيد أني من قريش واسترضعت في  
بني سعد بن بكر ) . كثيراً ما يستشهد به المؤلفون وبخاصة المحدثين منهم ،  
ولكن المحققين من العلماء يؤكدون أنه حديث موضوع .  
قال الشهاب الخفاجي في شرحه لكتاب ( الشفا ) للقاضي عياض ( إن الحفاظ  
اجتمعوا على أنه حديث موضوع ) والرواية في ( الشفا ) : ( أنا فصح من  
نطق بالضاد بيد أني من قريش ) .  
قلت : ومع أنه حديث موضوع معناه صحيح " ( بلاغة الرسول : ٨ ) .

أظن أن ذلك ليس إلا وصفا للأسلوب ، ويبقى بعد ذلك في النفس تساؤلاً وهو لماذا استثنى من صفة المدح هذه ما يشبه الذم ؟  
 وإذا كان لكل سياق حركته المستقلة ، التي يوجد لها الأسلوب بطريقة تركيبه فيه ، فإن هذا التفسير خاضع بطبيعة الحال لتلك الحركة التابعة من سياق الكلام فمثلاً في قول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم      بهن فلول من قراع الكناشب  
 نجد أن التطهر من كل عيب ، لم يصل إليه هولاً إلا بالجهاد والمعاناة  
 ورمز ذلك هو " سيوفهم " التي لم تسلم من العيب ، وفي ذلك شرفها وشرفهم ، لأن  
 ذلك يدل على مجاهدتهم ، وبذلهم كل غال وكل وسيلة ممكنة في الوصول إلى هذه  
 المرحلة الخالية من كل عيب ، التي يستهينون في سبيل الوصول إليها بكل ما خسروه  
 من نفوس ، وما بذلوه من أموال للجهاد في سبيلها ، ولقد كان " فلول السيوف " التي  
 كان العرب يحرصون على صيانتها رمزاً لهذا الجهاد وهذه المعاناة ، ولقد كان  
 في ذلك تحقيق لمعادلة صعبة ، فالطهر لا تصل إليه إلا بالتطهر وفي التطهر  
 مفاصلة ومجاهدة ، حرص الشاعر على رصد حركتها ، وتسجيلها لتبرز الطهر القائم  
 على التطهر والتطهير .

وأما قول النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه      جواد فما يبقى من المال باقياً  
 فتى كان فيه ما يسر صديقه      على أن فيه ما يسو الأعداء  
 فلقد حمل البيت الأول لفاتاة صفة هي أقصى غاية في الشرف والفضل فهو  
 " فتى كملت أخلاقه " وإذا كان كمال الأخلاق غاية شريفة ، فإن نبيل هذه المرتبة  
 لا يتصور الوصول إليه ، دون جهد ومعاناة ، ومن هنا كان المستثنى " غير أنه  
 جواد فما يبقى من المال باقياً ) رمزاً لهذه المعاناة ، وهذا الجهد ، إنها التضحية  
 بما جبلت النفس على حبه ، وعلى الاستكثار منه ، حتى ولو وصل ذلك إلى درجة العيب  
 وهي درجة الإسراف والتبذير . ولقد حملت العربية إلينا هذا العيب الذي يسو  
 إليه الكرم ، فقال ابن منظور في اللسان ( وتخرق الكرم اتسع ، والخرق بالكسر الكريم  
 المتخرق في الكرم ، وقيل هو الفتى الكريم الخليفة . . . ويقال هو يتخرق في السخاء  
 إذا توسع فيه ، وأنشد ابن بربى للأبيورد اليربوعي :

فتى إن هو استغنى تخرق في الغنى      وإن عرض دهر لم يضع منته الفقر ( ١ )

فقد اتخذ الاتساع في الكرم دلالة عليه من هذه المادة التي تحمل فسي معانيها الحق وعدم إحسان الرجل العمل والتصرف في الأمور حيث قيل أن الأخرق هو (الأحمق أو من لا يحسن الصنعة) <sup>(١)</sup> . . . ولذلك جاء القرآن الكريم مادحا وموجهها إلى ضبط النفس في التوسط بين هذين الأمرين ، والشح والسفه فقال تعالى ( ولا تجعل يدك مفلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ) <sup>(٢)</sup> . وقال سبحانه ذاكرة صفة عباد الرحمن في ذلك ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقترؤا وكان بين ذلك قواما ) <sup>(٣)</sup> .

وتضحية هذا الفتى بالمال ، ليلوغ كمال الخلق يصاحبه التضحية بالنفس ، ومقارعة الأعداء ، ومقاومتهم وتعقيبهم حتى بلفت تلك التضحية سرور الأعداء وإساءة الأصدقاء ، فهو فتى فيه الصفتان المتناقضتان ، والتي اتخذت من احداها وسيلة لبلوغ النهاية في الأخرى ، فلم يبلغ سرور أصدقائه ، إلا بإساءة أعدائه ، ولذلك كان فتى فيه الشرف والعيب ، ولكنه العيب الذي يقاوم العيب فيزيله عن طريقه إلى الشرف والفضل .

---

(١) لسان العرب : خرق

(٢) سورة الاسراء : ٢٩

(٣) سورة الفرقان : ٦٧



## الباب الثالث

مكانة المبالغة في البلاغة العربيّة

الفصل الأول :

شروع التمليل بالمبالغة وأسبابه

الفصل الثاني :

المبالغة بين القبول والرفض

الفصل الأول  
شروع التعليل بالمبالغة وأسبابه

لقد شاع التعليل بالمبالغة في تراثنا النقدي والبلاغي شيوعاً ضم الكثير من الصور البيانية من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية ، والكثير من تنوع الأساليب من تقديم وأمر ، ونهي ، ونداء ، واستثناء ، والكثير من صور التوكيد وشمل كثيراً من أبواب البلاغ كما ذكرنا سابقاً . وكانت هذه الكثرة التي تضمنها المبالغة شاهداً من شواهد قبولها حيث يقول ابن رشيق ( ولو بطلت المبالغة كلها وعييت لبطل التشبيه وعييت الاستعارة إلى كثير من محاسن الكلام . . . ) (١) .

وسنحاول في هذا الباب الوقوف عند الأسباب والعوامل التي أدت إلى شيوع هذا التفسير الذي حجب وراءه الكثير من قيم الكلام ، وكفى النقاد مؤونة البحث عن قيمها داخل العمل الأدبي ، وعلاقتها بقائلها الذي لا يمكن أن انفصله عن قوله ، وأن نزوى إبداعه وتفرد ، ونعيره في قوانين كلية يسير بها النقد العمل الأدبي .

١ - فكرة صياغة المعنى :

وهذه الفكرة تفترض للمعنى وجوداً سابقاً على التلفظ به ، أي أن المعاني توجد أولاً ثم تصاغ في الألفاظ ، أو تأتي الألفاظ لصياغتها ، وتظهر هذه الفكرة بوضوح عند الجاحظ الذي قال ( والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها الصجمالي والعربي ، والقروي والبدوي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخسير اللفظ وسهولة المنهج وصحة الطبع ، وكثرة الماء وجودة السبك وإنما الشمر صياغة وضرب من التصوير ) (٢) .

ولقد ظلت أمداً هذه الفكرة تردد في البلاغة والنقد العربيين من بعده . وقامت على هذا الافتراض أفكار أخرى فيهما كتخير اللفظ الشريف للمعنى الشريف ، أو ما يسمى الموازنة بين الألفاظ والمعاني ، وقام عليها أيضاً تعريف علم البلاغة بأنه أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة ، ومسألة مجاز والإطناب والمساواة ، وحتى الإمام عبد القاهر الذي حاول بعض الباحثين أن يرى في كلامه ضداً لهذه الفكرة وقضاء على ثنائية اللفظ والمعنى في النقد العربي - كان يسير في الطريق نفسه ، مضيفاً أهمية ترتيب الكلام ولو بسوء البلاغة النحوية بين أجزاءه في أحداث خصوصية

في دلالة الصياغة بين ترتيب ، وترتيب وليست نظرية النظم عنده ( إلا أن -  
تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف  
مناهجه فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها . . . )<sup>(١)</sup>  
فهذا هو السبيل ( فلست بواجب شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطوه إن  
كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلا وهو معنى من معاني  
النحو قد أصيب به موضحه في حقه )<sup>(٢)</sup> . فلا زال الترتيب ترتيبا لمعان سابقة  
على التلفظ بها ويوضح ذلك قوله ( فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس ،  
وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق ، أو ان تحتاج بمعد  
ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها فباطل من  
الظن ووهم يتخيل إلى من لا يوفى النظر حقه ، وكيف تكون مفكرا في نظم  
الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافا وأحوالا إلا إذا عرفت أن حقها أن تنظم  
على وجه كذا )<sup>(٣)</sup> ويؤكد قوله هذا بقوله ( واعلم أن من سبيلك أن تهتد هذا  
الفصل حدا ، وتجمل النكت التي ذكرتها فيه على ذكر منك أبدا . . . ولا  
سيما ما ذكرت من أنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه  
ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبيا ونظما ، وإنك تتوخى  
الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك ، فإذا تم لك ذلك أتبعتمها الألفاظ  
وقوت بها آثارها ، وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى  
أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خادمة  
للمعاني وتابعة لها ولا حقة بها ، وإن العلم بمواقع المعاني في النفس علم  
بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق )<sup>(٤)</sup> وهنا يتبين وهم الدكتور محمد زكي  
المشطاوي الذي استنتج من هذا انتهاء عبد القاهر ( إلى أنه لا انفصال  
بين عنصرى اللفظ والمعنى في عملية الخلق الأدبي فهما يولدان معا في نفس  
اللحظة ، وكذلك لا انفصال بينهما في عملية النقد الأدبي . . . )<sup>(٥)</sup> ووهم  
من رددوا قوله هذا<sup>(٦)</sup> متناسين قول عبد القاهر الصريح في ذلك ( فإن

- 
- (١) دلائل الاعجاز : ٦٤ (٢) المصدر السابق : ٦٥  
(٣) دلائل الاعجاز : ٤٣ (٤) المصدر السابق : ٤٤  
(٥) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث : ٣١٨  
(٦) النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني : ١٢ ، التصوير البياني : ٤٣٣  
. ٤٣٤

الاعتبار ينفي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له ، والواجب أن ينظر الى حال المعاني معه لا مع السامع ، وإذا نظرنا علما ضرورة أنه محال أن يكون الترتيب فيها لترتيب الألفاظ ومكتسبا عنه ، لأن ذلك يقتضي أن تكون الألفاظ سابقة للمعاني وأن تقع في نفس الانسان أولا ثم تقع المعاني من بعدها وتالية لها بالمعكس مما يعلمه كل عاقل اذا هولم يؤخذ عن نفسه ولم يضرب حجاب بينه وبين عقله ، وليت شعري هل كانت الألفاظ الا من أجل المعاني ؟ وهل هي الا حزم لها ؟ وموهرفة على حكمها ؟ أو ليست هي سمات لها ، وأوضاعا قد ووصفت لتدل عليها ؟ فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس ؟ ان جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء وقبل أن كانت ، وما أدري ما أقول في شيء يجرد الذاهبين اليه أشباه هذا من فنون المحال وردى (الأحوال) <sup>(١)</sup> وقوله الآخر الذي جاء وكأنه توضيح لقول الجاحظ السابق الذي جعل الشأن فيه لصياغة المعنى وتصويره إذ يقول عما ينفي أن يعلم من شأن المعاني : ( . . . أن يعلم أن سبيل المعاني سبيل اشكال الحلبي كالخاتم والشنف والسوار فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غفلا ساذجا لم يعمل صانعه فيه شيئا اكثر من أن يأتي بط يقع عليه اسم الخاتم . . . وأن يكون مصنوعا يدعى قد أغرب صانعه فيه ، كذلك سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غفلا ساذجا عاميا موجودا في كلام الناس كلهم ثم تراه نفسه وقد عمد اليه البصير بشأن البلاغة واحداث الصور في المعاني فيصنع فيه ما يصنع الحادق حتى يعرب في الصيغة ويدق في العمل . . . وشواهد ذلك حاضرة لك كيف شئت . . . . . تنظر الى قول الناس . الطبع لا يتغير ولست تستطيع أن تخرج الانسان عما جبل عليه فترى معنى غفلا عاميا معروفا في كل حيل وأمة ، ثم تنظر اليه في قول المتنبى :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطماع على الناقل <sup>(٢)</sup>

( فالمعنى القفل الساذج هنا ، هو المعنى المطروح هناك ، وكلاهما يمثل المعنى عاريا قبل أن يصير بناء لغويا ) <sup>(٣)</sup>

وفكرة المعنى السابق المقابل للتشكيل الفني كما يرى الدكتور عبدالفتاح عثمان مستمدة من تصور الشعر صناعة قولية لا بد فيها من وجود المادة والصورة

(١) دلائل الاعجاز : ٣٢٠ (٢) المصدر السابق : ٣٢٤

(٣) نظرية الشعر في النقد العربي القديم : ١٤٦

معا ، بل إنها مستمدة من طبيعة التفكير في القرون الوسطى ، والذي يرى الكون مكونا من المادة والصورة ، وأن الشمر صنعه كيفية الصناعات الأخرى ( ١ )  
 وإذا كنا نجد جذور فكرة التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة عند عبد القاهر حيث يقول ( وأن قد عرفت ذلك فإن المقلاء إلى هذا قصدوا حين قالوا إنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ثم يكون أحدهما فصيحاً والآخر غير فصيح : كأنهم قالوا إنه يصح أن تكون هاهنا عبارتان أصل المعنى فيها واحد ثم يكون لإحدهما في تحسين ذلك المعنى وتزيينه وإحداث الاختصاص فيه تأثير لا يكون للأخرى ) فكيف نجد عنده قضاءً على ثنائية اللفظ والمعنى ، أو القول بعدم أسبقية المعنى كما توهم هؤلاء الباحثون .  
 والآن ما هو دور هذه الفكرة في القول بالمبالغة ؟

إن هذه الفكرة التي تفترض للمعنى وجوداً سابقاً على إخراجها افتترضت أيضاً أن هناك حداً وسطاً للمعنى فما زاد عن هذا الحد سمي إفراطاً أو مبالغة وما سواه سمي صدقاً واقتصاداً ، وما قصر عنه سمي تفريطاً ، ويتضح ذلك في كثير من أحكام النقد العربي فمن ذلك حكم الجاحظ بالإسراف والإفراط على بعض الأبيات والحكم بالاقتصاد والصدق على البعض الآخر حيث يقول :  
 ( وأن قد ذكرنا شيئاً من الشعر في صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من إسراف من أسرف ، فأما من أفرط فقول مهلهل :  
 فلولاً الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور ( ٢ )  
 وما أدخله تحت هذا الحكم قول أبي قيس بن الأسلت :

قد حصت البيضة رأسي فما  
 أطعم غنخاً غير نهجاع  
 وقول عنتره :

رعينا هم والخيل تردى بالغنا  
 وأنا المعنية في المواطن كلها  
 ويكمل أبيض صارم وصال ( ٣ )  
 والطعن من سابق الآجال

ثم أورد بعد ذلك أشعار المقتصد بن ويصفها بالصدق فيقول ( ومن أشعار المقتصد بن في الشعر أنشدني قطرب :

تركبت الركاب لأربابها  
 جعلت يدي وشاحاً له  
 فأجهدت نفسي على ابن الصق  
 وبعض الفوارس لا يعتتق

ومن صدق على نفسه عمرو بن الإطنابه حيث يقول :

( ١ ) المرجع السابق : ١٤٦ ، ١٤٧ ( ٢ ) الحيوان : ١١٨ / ٦

( ٣ ) المصدر السابق : ٤١٩ / ٦ ، ٤٢٠

واقدا سي على المكروه نفس  
وقولسي كلما جشأت وجاشت  
وضربي هامة البطل المشيح  
مكانك تحمدى أو تستريحى (١)

وأورد من ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

ولما رأيت الخيل زورا كأنها  
فجاشت على النفس أول مرة  
جداول زرع أرسلت فاسبطرت  
فردت على مكروها فاستقرت (٢)

ويظهر هذا الافتراض بوضوح عند قدامة بن جعفر الذى يقول  
( . . . ) اني رأيت الناس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر وهما :  
الغلوفي المعنى اذا شرع فيه ، والاقتصاد على الحد الأوسط (٣) ويوضح  
ابن الأثير معاني هذه الحدود ( الإفراط - الاقتصاد ، التفريط ) على ضوء  
هذا الافتراض في علم البيان فيقول ( أما الاقتصاد فهو : أن يكون المعنى  
المضمر في العبارة على حسب ما يقتضيه المبرعنه في منزلته ، وأما التفريط  
والإفراط فهما ضدان : أحدهما : أن يكون المعنى المضمر في العبارة  
دون ما تقتضيه منزلة المبرعنه ، والآخر أن يكون المعنى فوق منزلته (٤) .

وسهل هذا الافتراض تحديد الألفاظ الدالة على حدود المعنى ،  
وكان الحكم بالتفريط أو الاعتدال أو الإفراط نتيجة للمقارنة بين الألفاظ  
والمعنى مع أن المقارنة بينهما تعسفية ومحض تحكم لا وجه له لأن الألفاظ  
خاصة في الأعمال الأدبية هي التي توجد المعنى وليست مجرد أدوات -  
للتعبير عنه ، والمعنى الحقيقي هو ما نجم عن الألفاظ بكامل حروفها فضلا  
عن كلماتها بل تعقل المعاني قلما ينفك عن تخيل الألفاظ ، وكأن المفكر في  
المعاني يناجي نفسه بألفاظ مخيلة ، ولو أراد تجريد ما عنه أشكل عليه الأمر (٥)  
ولقد كانت كثير من الأحكام بالمبالغة ناتجة عن تلك النظرة التي

بيننا خطئها . ويوضح هذا تعريف قدامة بن جعفر للمبالغة حيث يقول ( وهي  
أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعره لو وقف عليها لأجزأ ذلك في الغرض  
الذى قصد (٦) فكان المعنى معروف لدى الشاعر مسبقا ثم يعبر عنه بالألفاظ  
التي تدل عليه ثم يزيد عليه ليكون أبلغ وأوفى في غرضه ، ومن هذا المنطلق  
كان " وتبعه الكرامة حيث سارا " في قول عمير بن الأيهم التغلبي . . (٧)

ونكرم جارنا ما دام فينا  
وتبعه الكرامة حيث سارا

- |     |  |     |                       |
|-----|--|-----|-----------------------|
| (١) | المصدر السابق : ٤٢٥/٦  | (٢) | المصدر السابق : ٤٢٥/٦ |
| (٣) | نقد الشعر : ٩١   | (٤) | المثل السائر : ٣١٦    |
| (٥) | انظر التركيب اللغوى للأدب : ٤٦   | (٦) | نقد الشعر : ١٤٦       |
| (٧) | بعض المصادر تذكره باسم عمير كقند الشعر والصناعتين وبعضها تذكره باسم عمرو كالموشح والعمدة . |     |                       |

زيادة على المعنى . وقول الحكم الخضرى " وهو غرثان أعجف " في قوله وأقبح من قرد وأبخل بالقرى من الكلب أسى وهو غرثان أعجف زيادة ، إذ أنه كان يجرى في الدم كما يقول قدامة بن جعفر " أن يكون هذا المهجواً بخل من الكلب ، ومن المبالغة في هجائه وهو غرثان أعجف <sup>(١)</sup> وكذلك القول في بقية الأبيات التي أوردها قدامة بن جعفر تحت هذا الباب . والتي نقلها عنه أبو هلال العسكري وأضاف إليها ما رآه يجرى على هذا المقياس من القرآن الكريم والنثر الفنى فتراه يحكم من هذا المنطلق على مرضعه في قوله تعالى ( يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وتسىر الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ) <sup>(٢)</sup> حيث يقول ( ولو قال تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بياناً حسناً وبلاغة كاملة ، وإنما خص المرضعة للمبالغة ، لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتها بحاجته إليها وأشفق به لقرهه منها ولزومه لها لا يفارقها ليلاً ولا نهاراً . وعلى حسب تكون المحبة والالف <sup>(٣)</sup> والمبالغة ليست سيئة إذا أخذت في التراكيب كما هي في المفردات على أساس أنها شيء أصيل في المعنى لا يتم إلا به . ولكنها سيئة إذا أخذت على أساس أنها إضافة تأتي بعد تمام المعنى كما رأينا عند قدامة بن جعفر وأبي هلال في بعض تفسيراته لها أو أن المعنى يتم بدونها كما هو موقف أبي هلال من هذه الآية . ذلك لأن هذا التعليل بالمبالغة عنده يدل على أن المعنى يتم بدونها كما صرح هو وأن فائدة ذكر المرضعة تكاد تنحصر في تقرير المعنى وتوكيده مع أن لفظ المرضعة بكامل حروفه بجا في ذلك حرف التاء الذى بين المفسرون دلالة والذى يدل على أنها ( تدش عنه في حال إرضاعها له ولهذا قال : كل مرضعة ولم يقل كل مرضع ) <sup>(٤)</sup> يظهر للمتأمل خلال السياق القرآني للكلام بعداً آخر يختلف عن هذا البعد إذ يبرز لنا الانقطاع عن الحياة الدنيا في هذا اليوم بقطع أسبابها فوراً فالحامل تضع حملها والمرضع تدش عن رضيعها الذى ترضعه ذلك لأن الأم أصبحت أمر حياة أخرى لا عدة فيها للإنسان إلا عمله ولا مجال فيها لأى بناء أو رابطة دنيوية ( يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه وصاحبته ونفسه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ) <sup>(٥)</sup> .

- 
- (١) المصدر السابق : ١٤٦ (٢) سورة الحج : ١ ، ٢  
(٣) الصناعتين : ٣٧٨ (٤) تفسير ابن كثير : ٢٠٥ / ٣  
(٥) سورة عبس : آية ٢٣ - ٢٧



وفكرة وجود المعنى قبل إخراجها ، وأن اللفظ يأتي لصياغته وإخراجه هي التي جعلت النظر إلى المجاز والاستعارة والكناية على أنها وسائل لتوكيد المعنى ، وتقريره ، والمبالغة فيه أو شرحه وتوضيحه يقول ابن جني (١) وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي : الاتساع ، والتوكيد والتشبيه ، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة (١) ويفسر التوكيد عند ابن جني بالمبالغة فيقول ( ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالاة في إبراز المعنى الموهوم إلى الصورة المشاهدة فعبر عن ذلك بالتوكيد ولا مشاحة له في تعبيره ، وإذا أراد به ذلك فهو والتشبيه سواء على ما ذكره ، ولا حاجة إلى ذكر التوكيد مع التشبيه (٢) ودلالة التوكيد على المبالغة عند ابن جني أمر أشرنا إليه سابقاً ونقلنا من أقواله ما يدل عليه هناك .

وعلى هذا كانت الاستعارة في البلاغة العربية وسيلة إضافية تأتي لبيان المعنى أو توضيحه أو توكيده والمبالغة به ، والمعنى الذي تخرجه الاستعارة هو المعنى الأصلي ( الحقيقة ) وهو كما افترضوه معنى حرفي يشبه اللفظة العلمية تماماً ، وكانت العيزة التي تتميز بها الاستعارة هي ما يظهر من فرق بين المعنى الأصلي المفترض وبين المعنى بعد أن دخلت الاستعارة وسأ أحدثته من خصوصية فيه وبيان ذلك أنك تجد الرماني مثلاً يعرف الاستعارة بقوله ( الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وقيمت له في أصل اللفظة على جهة النقل للإبانة (٣) ويصرفها أبو هلال العسكري بقوله ( الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللفظة إلى غيره لفرض ، ذلك الفرض إما أن يكون شرح المعنى ، وفضل الإبانة عنه ، أو توكيده والمبالغة فيه أو بالإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعروض الذي يبرز فيه (٤) .

ويقول الرماني ( وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة وهي أصل الدلالة على المعنى في اللفظة كقول امرئ القيس في صفة الفرس ( قيد الأوبد ) والحقيقة " مانع الأوبد " وكقولك " ميزان القياس " وحقيقته " تعديل القياس " (٥) .

ويذهب أبو هلال المذهب نفسه فيقول ( ولا بد لكل استعارة ومجاز

من حقيقة وهي أصل الدلالة على المعنى في اللفظة كقول امرئ القيس :

وقد اغتدى والظير في وكناتها بمنجرد قيد الأوبد هيكل

( ١ ) الشل السائر : ٣٦٤ / ١ ( ٢ ) المصدر السابق : ٣٦٧ / ١

( ٣ ) النكت في اعجاز القرآن : ٨٥ ( ٤ ) الصناعتين : ٢٧٤

( ٥ ) النكت : ٨٦

والحقيقة مانع الأبد من الذهاب والإفلات ، والاستعارة أبلغ لأن  
القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف لأنك تشاهد ما في القيد من المنع ،  
فلمست تشك فيه ، كذلك قولهم : هذا ميزان القياس حقيقته تعديل القياس (١)  
وكان التبرير بالمبالغة أمر غالباً على الاستعارة نلاحظه في بعض  
الآيات التي وقف عندها كل من الرماني والمسكوي مبيين دور الاستعارة في  
المبالغة فمن ذلك قول <sup>الرماني</sup> في قوله تعالى ( انا لما طفا الماء حطناكم نسي  
الجارية ) (٢) حيث يقول <sup>الرماني</sup> ( حقيقته علا والاستعارة أبلغ ، لأن طفس  
علا قاهرا ، وهو مبالغة في عظم الحال ) (٣) وقوله في قوله تعالى ( سنفرغ  
لكم أيها الثقلان ) (٤) والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا  
أبلغ في الوعيد وحقيقته ~~سننمدا~~ إلا أنه لما كان الذي يعمد إلى شيء قد  
يقصر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارق له هو البالغ في الغالب بما يجرى  
به التعارف ، دلنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما  
كانت بهذه <sup>الجزء</sup> ، ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة  
والخاصة موقع الحكمة (٥) . ويقول المسكوي في قوله تعالى ( ذرني ومن  
خلقت وحيدا ) (٦) : ( وحقيقته ذر بأسي وعذابي إلا أن الأول أبلغ نسي  
التهدد كما تقول اذا أردت المبالغة والإبصار : ذرني وإياه ، ولو قال :  
ذر ضربني له وإنكارى عليه لم يسد ذلك المسد ولعله لم يكن حسنا مقبولاً ) (٧)  
ويقول في قوله غمز اسمه ( ان أرسلنا عليهم الريح المعقيم ) (٨) وفضل  
الاستعارة على الحقيقة في هذا أن حال المعقيم في هذا أظهر قبحا من  
حال الريح التي لا تأتي بمطر ، لأن المعقيم كانت عند العرب أكره وأشنع  
من ريح لا تأتي بمطر لأن العادة في أكثر الرياح ألا تأتي بمطر ، وليست  
العادة في النساء أن يكون أكثرهن عقبا (٩) وكذلك كانت الاستعارة عند  
عبد القاهر تغيد التشبيه لفرض المبالغة كما أفصنا في ذلك سابقا .

ومهررات وجود الاستعارة التي تظهر في ( الفارق بين الاستعارة  
ومقابلها الحرفي أو الحقيقي فارق في الدرجة ليس غير . إذ تؤدي الاستعارة  
نفس المعنى الذي تؤديه العبارة الحرفية وليس ثمة فارق إلا في طريقة التقديم  
أو أوجه الدلالة . وتلك أمور عرضية لا تغير من جوهر المعنى المقدم في العبارة

- |     |                            |     |                    |
|-----|----------------------------|-----|--------------------|
| (١) | الصناعتين : ٢٧٦ ، ٢٧٧      | (٢) | سورة الحاقة : ١١   |
| (٣) | النكت في اعجاز القرآن : ٨٧ | (٤) | سورة الرحمن : ٣١   |
| (٥) | النكت في اعجاز القرآن : ٨٨ | (٦) | سورة المدثر : ١١   |
| (٧) | الصناعتين : ٣٧٨            | (٨) | سورة الذاريات : ٤١ |
| (٩) | الصناعتين : ٢٧٩            |     |                    |

الحرفيه . . . وعلى ذلك تصبح الاستعارة نوعاً من الترجمة الجيدة أو المعرض الحسن دون أن يكون لها فاعليتها الخاصة في خلق المعنى وإيجاده والتعبير عما لا يمكن أن يعبر عنه دونها<sup>(١)</sup> مع أننا في الحقيقة ( لسنا ازاء معنى حقيقي ومعنى مجازي هو ترجمة للأول - بل نحن . . . ازاء معنى جديد نابع من تفاعل السياقات القديمة لكل طرف من طرفي الاستعارة داخل السياق الجديد الذي وضعت فيه ، وهذا الفهم لا تصبح الاستعارة ممن قبيل النقل أو التعليق أو الإدعاء وإنما تصبح - لو أخذنا أبسط أشكالها فيما يقول ريتشاردز - " عبارة عن فكرتين لشئيين مختلفين تعملان معا خلال كلمة أو عبارة واحدة تدعم كلتا الفكرتين ، ويكون معناها أي الاستعارة - محصلة لتفاعلها " <sup>(٢)</sup> .

والنظر الى الاستعارة بهذا الفهم يعطي النصوص مقاصدها الحقيقية ويبقى على صورتها المنطلقة الى غايات أوسع وأرحب من زيادة ومبالغة في أصل افترض تقيد به النصوص وتوول اليه (الفرق لاكتناهما الإيذان بالعلم أن الألفاظ العربية وضعت أولاً لمعان ثم بعد ذلك استعملت فيها فيكون لها وضع متقدم على الاستعمال . وهذا إنما يصح على قول من يجعل اللغات اصطلاحية فيدعى أن قوماً من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا وهذا بكذا ويجعل هذا عاماً في جميع اللغات<sup>(٣)</sup> ولكن ( لا يمكن أحد أن ينقل عن العرب ، بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضموا هذه الأسماء الموجودة في اللفظة ثم استعملوها بعد الوضع ، وإنما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعاني<sup>(٤)</sup> وحتى من قال بالوضع عن طريق التوقيف فهو قول كما يقول ابن تيمية ( غير معلوم وجوده بل الإلهام كاف في النطق باللفات من غير مواضمة متقدمة ، وإذا سمي هذا توقيفاً فليس توقيفاً ، وحينئذ فمن ادعى وضماً متقدماً على استعمال جميع الأجناس فقد قال ما لا علم له به ، وإنما المعلوم بلا ريب هو الاستعمال<sup>(٥)</sup> ) ولقد كان الانصراف عن هذا الى محاولة تقعيد لفهم اللفظة استناداً الى الوضع - الذي لم يثبت - ورد كل خروج عن ذلك الوضع اليه . وإيجاد التبريرات للخروج عن ذلك الوضع الأصلي سبباً في وجود بعض التبريرات بالمبالغة التي كانت مع

(١) الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي : ٢٤٣ (٢) المرجع السابق ٢٧٢ ، ٢٧٣

(٣) الإيذان : ٨٦ (٤) المصدر السابق : ٨٧

(٥) المصدر السابق : ٩١ ، ٩٢

غيرها من التهريرات حافظة للعلاقة بين ذلك المعنى الأصلي المفترض وسين  
المعنى الذي جاء به اللفظ فمن ذلك تفسيرهم اسناد الطفيان الى الماء في  
قوله تعالى (إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية) <sup>(١)</sup> بالمبالغة <sup>(٢)</sup> . مع أننا  
لو تأملنا الآية . وجعلنا ذلك الاستعمال الذي جعلوه المعنى الأصلي  
استعمالاً يعيننا على فهم الآية دون أن يكون هو المحور للفهم كان في ذلك  
شراً في فهمنا للآية لا تؤد به تلك المبالغة . ويبان ذلك أن المتأمل للآية  
يجد طفيان الماء أمرًا يحتمه السياق القرآني ، وعلاقة الإنسان بالكون ذلك  
الإنسان الذي أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كثير من آياته عن تسخير الكون  
له ، وأن لا قدرة له في هذه الحياة إلا إذا كان هذا الكون مسخرًا له ، . . .  
ولكن في بعض الأحيان ينسى الإنسان ضعفه نتيجة لهذا التسخير فيطغى  
ويتكبر ويتمالي عن أمره . . . ويكون الجزاء كما قص علينا سبحانه وتعالى  
في كثير من آياته بانطلاق قوة هذا الكون ضده ، فكها من عقاب التسخير  
لعذابه ، وفي هذه الآية التي تشير إلى غرق قوم نوح كان الماء طاغياً ، كما  
كانت الصيحة التي أهلكت ثمودا ومضى خبرها قبل هذه الآية طاغية . وطفيان  
الماء هنا أمر يحلو على التفسير بالمبالغة ، فالأمر أرقوة أخرج الله طاقتهم  
المسخرة بأمره إلى قوة عاتية ، لا نجاة فيها إلا لمن كتب الله له النجاة  
بحمله فوق تلك القوة الطاغية ، والماء أصبح في الآية بإذن الله مسيطراً على  
الإنسان يهلك من أمره يا هلاكه وينجي البقية المؤمنة الصالحة التي امتن  
الله علينا سبحانه وتعالى بنجاتها التي كان فيها حياتنا . . . فكان الماء  
وسيلة الموت والحياة معا . . . وقوة الماء أمر لفت أنظارنا إليه القرآن كثيراً  
فهو عنصر الحياة ( وجعلنا من الماء كل شيء حي ) <sup>(٣)</sup> ( وهو الذي أنزل من  
السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ) <sup>(٤)</sup> وسيلة الطهارة ( وأنزلنا من السماء  
ماء طهوراً ) <sup>(٥)</sup> ( وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ) <sup>(٦)</sup> وقوة من قسوى  
العذاب ( ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء  
على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجري بأعيننا جزاء لمن كان  
كفيراً ) <sup>(٧)</sup> ( وأن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه )

(١)	سورة المائدة : ١١	(٢)	النكت : ٨٧ وأنظر الصناعتين ٢٧٧
(٣)	الأنبياء : ٣٠	(٤)	سورة الأنعام : ٩٩
(٥)	سورة الفرقان : ٤٨	(٦)	سورة الأنفال : ١١
(٧)	سورة القمر : آية ١١ - ١٤	(٨)	سورة الكهف : آية : ٢٩
(٩)	سورة الحاقة : ١١		

والآيات التي تحدث عن تسخير البحر ومناقمه وأهواله متعددة .  
ولقد عبد الإنسان هذه القوة وتقرب اليها عندما نظر اليها مستقلة عن  
موجودها سبحانه وتعالى عما يشركون .

## تحكيم العقل والواقع الخارجي في الأداء اللغوي :

لقد كان هذا التحكيم منطلقا قويا من منطلقات القول بالمبالغة ، وهو يقوم على أمرين يتداخلان فيما بينهما تداخلا لا نستطيع معه أن نفرص بينهما ذلك لأن حكم العقل في الأداء اللغوي يستند إلى الواقع الخارجي الذي يحدده العقل ، إما بمشاهدة حسية ، أو حقيقة علمية أو عرفية أو استنتاج عقلي ( ذهني ) . ودعم هذا التحكيم مسلمة الموضوع اللغوي التي تعتبر أن اللفظ له معنى محدد وضع له ويختص به . . . . ومن ثم كان اللفظ مجرد علامة أو سمة تدل على مدلولها ، لآلة آلية كدلالة الدخان على النار والسحاب على المطر يقول الإمام عبد القاهر ( وما يجب ضبطه في هذا الباب أن كل حكم يجب في العقل وجوبا حتى لا يجوز خلافه فإضافته إلى دلالة اللفظة ، وجعله شروطا فيها محال ، لأن اللفظة تجري مجرى العلامات والسمات (١) ) . وكانت دراسة الجملة في العربية قائمة على فكرة الإسناد على نحو ما تشهد به المباحث النحوية ، وكان الأمر يقوم في النحو على ضبط الكلمة الاعرابي على أساس دورها الإسنادي في الجملة ، ولما نظرت المباحث البلاغية إلى الجملة ركزت على هذا الجانب ولكن من زاوية أخرى وهي مدى إمكانية قيام المسند بما أسند إليه هل يجوز ذلك أو لا يجوز ، فإن كان ذلك جائزا يحكم العقل والواقع الخارجي كان الكلام حقيقة وإن كان غير جائز كان له في التجوز سببا وفي المبالغة منحي . . . لأن فعل اللفظة محدود بحسود والمعنى الوضحي للفظ ويحدود الواقع الخارجي يقول عبد القاهر ( لأن اللفظة لم تأت لتحكم بحكم أو لتثبت وتنفي وتنقض وتبرم فالحكم بأن الضرب فعل لزيد أو ليس بفعل له وإن المرض صفة له أو ليس بصفة له شيء ~~بضمه~~ المتكلم ودعوى يدعيها ، وما يعترض على هذه الدعوى من تصديق أو تكذيب أو اعتراف أو إنكار وتصحيح أو إفساد فهو اعتراض على المتكلم ، وليس اللفظة في ذلك بسبيل منه في قليل ولا كثير وإذا كان كذلك فإن كل وصف يستحقه هذا الحكم من صحة وفساد وحقيقة ومجاز واحتمال واستحالة ، فالمرجع فيه والوجه إلى العقل المحض ، وليس اللفظة فيه حظ ، فلا تحلى ولا تمر والعربي فيه كالمعجمي والمعجمي كالتركي ، لأن قضايا العقول من القواعد والأسس التي يبنى غيرها عليها والأصول التي يرد ما سواها إليها (٢) )

(١) أسرار البلاغة : ٢٤٨/٢ (٢) أسرار البلاغة : ٢٤٨/٢

وهذا الكلام يصح لو وجد كل متكلم اللغة قوالب جاهزة يستعملها وفق عقله وواقعه الخارجي . . . . ولكننا إذا رجعنا الى بداية اللغة لوجدنا أنها موهبة ربانية وهبها الله للإنسان يسيطر بها على الأشياء عن طريق التسمية . . . . وحاملة لأشواقه وآلامه . . . . وأن التسمية ترتبط غالباً بموقفه الانفعالي من الأشياء رغبة أو رهبة . . . . وهولا يملك في البداية الا الأسماء والموقف الانفعالي من الأشياء . . . . فاذا كانت السماء تطير بالطير الذي يجلب الخير والهركة قال ( جادت علينا السماء ) تاركا الحكم بمدى صحة اسناد الجود الى السماء . . . . وهل السماء عاقلة تفعل الجود الذي هو من صفات الانسان أولاً ، وهل ذلك حقيقة أو مجاز لمن يأتي بعده ممن يتعلمون اللغة ويحكمون العقل فيها يقول رتشاردز : ( ولكنه ما من شك في أن اللغة كانت يرمتها انفعالية في الأصل ، وفي أن استخدامها العلمي إنما هو تطور متأخر ، وأن معظم اللغة ما زال انفعالياً ، ومع ذلك فقد أصبح هذا التطور المتأخر يبدو هو الاستخدام الطبيعي العادي ، ويرجع ذلك الى حد بعيد الى أمد أولئك الذين جعلوا من اللغة موضوع دراسة وتأمل كانوا وقت تأملهم هذا يستخدمون اللغة على نحو علمي )<sup>(١)</sup> وظهرت بدايات هذا الاستخدام العلمي للعربية في وقت مبكر في النحوشم في بدايات التأليف البلاغي كما نلاحظ في كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى الذي ساهب ( مجاز القرآن ) والذي يرد فيه تعبيرات القرآن الذي جاء بلغة العرب ومشتلا على أحسن ضروب استعمالها لهم الى ما يجب أن يكون عليه الأسلوب وفق الأسلوب العلمي الذي يعتمد العقل والواقع الخارجي . . . . ومن هنا كان المجاز الذي بشرحه ويقرره هو العلمية التي افترضها للأدب اللغوي وفق للمنطق الذهني الذي يحدد للكلمة معناها ويحدد لكل أسلوب معناه وطريقته في مرحلة تالية للأدب اللغوي كما يتضح ذلك من قوله ( ففي القرآن الكريم ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ومن المحتمل من مجاز ما اختصر ومجاز ما حذف ومجاز ما كلف عن خبره ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين ، ومجاز ما جاء لفظ خبر الجميع على لفظ خبر الواحد ، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أشرك بينه وبين آخر مفرد ، ومجاز ما خبر عن اثنين أو عن أكثر ذلك فجعل خبر للواحد أو للجميع وكف عن خبر الآخر . . . الخ )<sup>(٢)</sup>

فترى أن هنا مستويين للكلام ، أحدهما ما جاء في طريق القرآن التعميري ، والآخر تحويل ذلك التعبير الى تعبير آخر يجرى وفق المنطق العقلي المفترض للمعنى ، ويوضح ذلك الأمثلة التالية من كتاب أبي عبيدة :

١ - قوله في قوله تعالى ( خلق الإنسان من عجل )<sup>(١)</sup> ( مجازه مجاز خلق العجل من الإنسان ، وهو العجلة من العرب تفعل هذا ، إذا كان -

الشيء من سبب الشيء بدأوا بالسبب وفي آية أخرى " ما إن مفاتحه لتتوه بالعصبة أولى القوة"<sup>(٢)</sup> والعصبة هي التي تتوه بالمفاتيح .<sup>(٣)</sup>

٢ - قوله ( ومن مجاز ما وقع المعنى على المفعول وحول الى الفاعل قال ( كمثل الذي ينطق بما لا يسمع )<sup>(٤)</sup> ومعنى على الشاء المنعوق به وحول على الراعي الذي ينطق بالشاء )<sup>(٥)</sup> .

٣ - قوله ( ومن مجاز المصدر الذي في موضع الاسم أو الصفة قال ( ولكن البر من آمن بالله )<sup>(٦)</sup> خروج المعنى الى البار . وقال ( إن السموات والأرض كانتا رتقا )<sup>(٧)</sup> الرق مصدر وهو في موضع مرتويتين )<sup>(٨)</sup> .

٤ - قوله ( من مجاز ما جاء فن لفظ الحيوان والسموات على لفظ خبر الناس قال ( رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين )<sup>(٩)</sup> .

٥ - قوله في قوله تعالى " قالت نعمة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم"<sup>(١٠)</sup> هذا من الحيوان الذي أخرج مخرج الآدميين والعرب تفعل ذلك<sup>(١١)</sup> .

شربت إذا ما الديك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصووا  
٦ - قوله في قوله تعالى " وأرسلنا السماء عليهم مدرارا"<sup>(١٢)</sup> ( مجاز السماء هاهنا مجاز المطر : يقال : ما زلنا في سماء أي في مطر ومازلنا نطأ السماء أي أثر المطر )<sup>(١٣)</sup> .

وظلت هذه الروح تنمو بعده وبلغت ذروتها عند ابن جتى الذي يقول ( أعلم أن أكثر اللفظة مع تأمله مجاز لا حقيقة . وذلك عامة الأفعال ، نحو قام زيد ، وقعد عمر ، وانطلق بشر ، وجاء الصيف ، وانهمز الشتاء ، ألا ترى أن الفعل يفاد منه معنى الجنسية فقولك : قام زيد معناه : كان منه القيام أي هذا الجنس من الفعل ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام ، وكيف يكون ذلك وهو جنس والجنس يطبق جميع الماضي وجميع الحاضر ، وجميع الآتي الكائنات من كل

- 
- |        |                           |                             |                         |
|--------|---------------------------|-----------------------------|-------------------------|
| ( ١ )  | سورة الأنبياء : ٣٧        | ( ٢ )                       | سورة القصص : ٧٦         |
| ( ٣ )  | مجاز القرآن : ٣٨ / ٢ ، ٣٩ | ( ٤ )                       | سورة البقرة : ١٧١       |
| ( ٥ )  | مجاز القرآن : ١٢ / ١      | ( ٦ )                       | سورة البقرة : ١٧٢       |
| ( ٧ )  | سورة الأنبياء : ٢٥        | ( ٨ )                       | مجاز القرآن : ١٣ / ١    |
| ( ٩ )  | سورة يوسف : ٤ ( ١٠ )      | مجاز القرآن : ١٠ / ١ ( ١١ ) | سورة النمل : ١٣         |
| ( ١٢ ) | مجاز القرآن : ٩٣ / ٢      | ( ١٣ )                      | سورة الأنعام : ٦ ( ١٤ ) |
|        |                           |                             | مجاز القرآن : ١٨٦ / ١   |



من وجد منه القيام ، ومعلوم أنه لا يجتمع لانسان واحد في وقت واحد ولا فسي  
مائة ألف سنة مضاعفة القيام كله الداخل تحت الوهم ، هذا مجال عند كل ذى  
لب ، فاذا كان كذلك علمت أن ( قام زيد ) مجاز لا حقيقة ، وانما هو على  
وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيه القليل بالكثير <sup>(١)</sup> فالمبالغة تجيء  
هنا مع التشبيه والاتساع مبررا لخروج الأداة اللغوية عن العلمية المفترضة له .  
والإمام عبد القاهر الجرجاني يفترض هذه العلمية كغيره أصلا للأداة .

اللغوية . وان للأداة اللغوية مستويين من الدلالة المستوى الأول : المعنى  
الأولى وهو المعنى النثرى المجرد أى المعنى العلمي للأداة اللغوية ، والمستوى  
الثاني : الصورة التي خرج عليها الكلام وهو المعنى الثاني . ولكنه يحترم هذا  
الأداة ويتذوقه على صورته الثانية التي ورد عليها في الكلام . . . . . ولكن ارتباطه  
بالمعنى الأصلي هو الذى يذهب هذا التذوق في غمار المبالغة والتوكيد  
والإثبات فهو يقول ( فتعهد الفرق بين أن تقول : فلان يكذب نفسه في قراءة  
الكتب ولا يفهم منها شيئا ، وتسكت . وبين أن تقول الآية - يقصد قوله تعالى  
( مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ) <sup>(٢)</sup>

زوامل للأشعار لا علم عندهم      بجهد ما الا كعلم الأباع  
لعمرك ما يدري البعير اذا غدا      بأوساقه أوراخ ما في الفرائر <sup>(٣)</sup>  
والفصل بين أن تقول : " أرى قوما لهم بها " ومُنظر ، وليس هناك مخبر ،  
بل في الأخلاق دقة ، وفي الكرم ضعف وقلة ، وتقطع الكلام ، وبين أن تتبعه  
نحو قول الحكيم : أما البيت فحسن ، وأما الساكن فردى .  
وقول ابن لنكك :

في شحر السرو منهم مثل      له رواه وما لسه ثم  
وقول ابن الرومي :  
فغدا كالخلاف يورق للمعين      وبأنيس الإثمار كل الأبياء  
وقول الآخر :

فان طرة لاقتك فانظر فرمنا      أمر مذاق العود والعود أخضر <sup>(٤)</sup>  
وانظر الى المعنى في الحالة الثانية كيف يورق شجره ، ويشمر ، ويغتر  
شجره ويبتسم ، وكيف تشتار الأرى من مذاقته ، كما ترى الحسن في شارته <sup>(٥)</sup> .

- 
- (١) الخصائص : ٤٤٨/٢ (٢) سورة الجمعة : ٥  
(٣) القبلية : الجوالق واحدة الفرائر وقال الجوهري : القفارة واحدة الفرائر التي  
( لسان العرب : غرر )  
(٤) قال في اللسان : ( رجل طرير في وطرة وهنية حسنة وجمال وقيل هو المستقبل  
الشباب . . . وما أطره : أى ما أجطه ) .  
(٥) أسرار البلاغة : ٢٢٧/١ ، ٢٢٨

ولكنه عندما يأتي لشرح سر اعجابه بهذه الأداة تجده يشرح خطوات الصنعة  
 علميا ويذهب بهورق شجر المعنى ، وافترار ثفره ، وابتسامة مذهب التوكيد  
 والإثبات للمعنى الأولى أو المبالغة فيه ( فأما القول في العلة والسبب : لم  
 كان للتمثيل هذا التأثير ؟ وبيان جهته ومآتاه ، وما الذي أوجبه واقتضاه ،  
 فغيرها وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا ، كل منها يقتضي أن يفهم  
 المعنى بالتمثيل وينيل ، ويشرف ويكمل . فأدل ذلك وأظهره أن أنسب النفوس  
 موقوف على أن تخرجها من خفي الى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكثي ، وأن  
 ترد لها في الشيء تعلمها اياها الى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في  
 المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر ،  
 الى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس ، أو  
 المركز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر  
 والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا : ( ليس  
 الخبر كالمعاني ، ولا الظن كاليقين ) . فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس  
 أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة وضرب آخر من الأنس وهو ما يوجبه تقدم  
 الألف كما قيل : ما الحب الا للحبيب الأول<sup>(١)</sup> .

وقسم الامام عبد القاهر المعاني التي يأتي عقبها التمثيل الى ضربين :  
 الضرب الأول : غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه واستحاله وجوده  
 وذلك نحو قوله :

فان تفق الأنام وأنت منهم — فان المسك بعض دم الفزال<sup>(٢)</sup>

والضرب الثاني : ألا يكون المعنى الممثل غريبا نادرا يحتاج في دعوى كونه على  
 الجلة الى بيعة وحجة وإثبات . وضرب لذلك مثلا بقول المجنون :

فأصبحت من ليلي الفداة كقايين — على الماء خانته فروج الأصابع<sup>(٣)</sup>

ثم يقول بعد ذلك :

( وإذا ثبت أن المعاني الممثلة تكون على هذين الضربين فان فائدة  
 التمثيل ، وسبب الأنس ، في الضرب الأول بين لائح ، لأنه يفيد فيه الصحة  
 وينفي الريب والشك ، ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف ، وتهجم المنكر وتهكم  
 المعترض ، وموازنته بحالة كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه حتى يرى ويبيصره  
 ويعلم كونه على ما أثبت عليه — موازنة ظاهرة صحيحة .

(١) المصدر السابق : ٢٣٤/٢ ، ٢٣٥ (٢) أسرار البلاغة : ٢٣٥/١

(٣) المصدر السابق : ٢٣٦/١

وأما الضرب الثاني فإن التمثيل وأن كان لا يفيد فيه هذا الضرب من الفائدة فهو يفيد أمراً آخر يجرى مجراه ، وذلك أن الوصف كما يحتاج إلى إقامة الحجة على صحة وجوده في نفسه ، وزيادة التثبيت والتقرير في ذاته وأصله فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه ، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده وبلغه في القوة والضعف والزيادة والنقصان (١) .

وتلاحظ هنا أن التمثيل عند عهد القاهر كما هو الحال في الاستعارة والكناية ليس إلا طريقاً لإثبات المعنى الأولي وتقريره ، ومظهر إخضاع الأداة - اللغوية للعلمية في هذا هو ترسم خطوات أداة المعنى وتعليلها كما رأينا في التمثيل وكما تلاحظ في تعليله للصورة المجازية إذ يقول ( إن العلم بالأعراب مشترك بين العرب كلهم وليس هو ما يستهبط بالفكر ويستعان عليه بالرواية ، فليس أحد هم بأن أعراب الفاعل الرفع والرفع والضم والمضارع إليه ، الجرم بأعلم من غيره . ولا ذاك المفعول به ما يحتاجون فيه إلى حدة ذهن وقوة خاطر ، إنما الذي تقع الحاجة فيه إلى ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشئ إذا كان إيجابها من طريق المجاز كقوله تعالى " فما رحمت تجارتهم " (٢) وكقول الفرزدق

. . سقتها خسروق في المسامع .

وأشبه ذلك ما يجعل الشئ " فيه فاعلاً على تأويل بدق ومن طريق تلطف (٣) ويؤكد ذلك عندما يقول عن الاستعارة والتمثيل والكناية ( فبني أن تعلم أن ليست المزايما التي تجدها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تحسبها في أنفس المعاني التي يقصد المعلم بخبره إليها ولكنها في طريق إثباتها وتقريره إياها ) ويضيف بعد ذلك قائلاً : ( وذكرت أن السبب في أن كان يكون للإثبات إذا كان من طريق الكناية مزية لا تكون إذا كان من طريق التصريح أنك إذا كثرت عن كثرة القرى بكثرة رماد القدر كنت قد أثبتت كثرة القرى بإثبات شاهدتها ودليلها ، وما هو علم على وجودها ، وذلك لا محالة يكون أبلغ من إثباتها بنفسها ، وذلك لأنه يكون سبيلها حينئذ سبيل الدعوى تكون مع شاهد ، وذكرت أن السبب في أن كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة أنك إذا ادعت للرجل أنه أسد بالحقيقة كان ذلك أبلغ وأشد في تسويته

(١) المصدر السابق : ٢٣٧/١ (٢) سورة البقرة : ١٦

(٣) دلائل الإعجاز : ٣٠٢

بالأسد في الشجاعة ، ذاك لأنه محال أن يكون من الأسود ثم لا تكون له شجاعة الأسود ، وكذلك الحكم في التمثيل فإذا قلت : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى : كان أبلغ في إثبات التردد له من أن تقول : أنت كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى (١) .

وأدت بهم هذه العملية المفترضة للأدب اللغوي ، وكون الكلمة سمة أو علامة تستدعي مدلولها آليا - لأنها كما تقرر عند كثير من علماء اللغة موضوعة ازا معنى معين تختص به - إلى تحكيم الواقع الخارجي في الأدب اللغوي كما وافق الواقع الخارجي كان أدأوه حقيقة ، ومالم يوافقه كان مجازا ، وكانت المبالغة في كثير من الأحيان وسيلة من وسائل التوفيق العقلي بين للواقع الخارجي والأدب اللغوي . ولقد حمدوا هذه المبالغة إذا كان فيها ما يقربها من الصحة والإمكان يقول قدامة بن جعفر مطلقا على قول أبي نواس :

يا أمين الله عش أبدا  
دم على الأيام والزمــــن

( فانا كنا قد قدمنا أن مخارج الفلواتنا هي على " يكاد " وليــــس في قول أبي نواس " عش أبدا " موضع يحسن فيه . لأنه لا يحسن على مذهب الدعاء أن يقال : أمين يكاد أن يعيش أبدا ) (٢) .

وردد أبو هلال قوله هذا (٣) . ومن قبلهما قال ابن قتيبة ( وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فانه يأتي بكاد ، فما لم يأتي بكاد ففيه اضمحارها كقولــــه " وبلغت القلوب الحناجر " أي كادت من شدة الخوف تبلغ الحلق ) (٤) . ولقد كان

هذا من ابن قتيبة وتابعيه تحكما لا مبرر له في محاكمة أدب اللغة الفني إلى العقل والواقع الخارجي . . وأقل ما يؤخذ عليه فيه محاكمة الأسلوب القرآني إلى هذا الواقع ثم افتراض ما يقرب أدأوه من الواقع الخارجي . الخاضع لمنطق عقلي تأبى طبيعة اللفظة أن تستجيب له فتخضع به نبضها وروحها إلى قوالب عقلية جامدة ولكن ابن قتيبة كان يجذبه احساس آخر يحترم اللغة ما جعله يقف معها ويسجل اباها وخضوعها للمنطق العقلي والواقع الخارجي عندما قال ( وأما الطاعنون على القرآن " بالمجاز " فانهم زعموا انه كذب لأن الجدار لا يريد ، والقرية لا تسأل . وهذا من أشنع جهالاتهم وأد لها على سوء نظرهم ، وقلــــة أفهامهم . ولو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا - كان أكثر كلامنا فاسدا لأننا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الشرة

(١) دلائل الاعجاز : ٣٤٣ ، ٣٤٤ (٢) نقد الشعر : ٢٢٠  
(٣) الصناعتين : ٣٦٩ ، ٣٧٧ (٤) تأويل مشكل القرآن : ١٧١

وأقسام الجبل ، ورخص السمير . وتقول : كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن وإنما كون . وتقول : كان الله . وكان بمعنى هلك والله جلّ وعز ، قبل كل شيء بلا غاية ، لم يحدث ، فيكون بعد أن لم يكن . والله تعالى يقول " فإذا عزم الأمر " وإنما يعمز عليه . ويقول تعالى " فما ربحت تجارتهم " وإنما يربح فيها . ويقول : ( وجاءوا على قميصه بدم كذب ) وإنما كذب به . ولو قلنا للمنكر لقوله " جدارا يريد أن ينقض " كيف كنت أنت قاعلا في جدار رأيت على شفا انهيار : رأيت جدارا ماذا ؟ لم يجد بدا من أن يقول : جدارا بهم أن ينقض ، أو يكاد أن ينقض ، أو يقارب أن ينقض . وأيا ما قال فقد جملة فاعلا ، ولا احسبه يصل الى هذا المعنى في شيء من لغات المعجم الا بمثل هذه الألفاظ (١) .

ولقد حاول ابن قتيبة من خلال تأمله لبطبيعة اللغة وابائها الخضوع للمنطق العقلي والواقع الخارجي أن يرد كثيرا من المطاعن التي وجهت الى القرآن الكريم على أساس أن هذه المحاكمة فتجده مثلا يورد ضمن أقوال الطاعنين على القرآن الكريم قولهم في قوله تعالى ( وبلغت القلوب الحناجر ) ( كيف تبلغ القلوب الحلق ) والقلب ان زال عن موضعه مات صاحبه ؟ (٢) . ويتبع ذلك بردود مجملة على أقوالهم نتبين من خلاله كيف أنه كان يرى أن في أساليب المبالغة والتجاوز تجاوزا لحدود الواقع وأنه يحيز ذلك ( وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن ، وينسبها فيه الى الإفراط وتجاوز المقدار . وما أرى ذلك الا جائزا حسنا على ما بيناه من مذاهيبهم ) (٣) ولكن هل كان يرى ابن قتيبة أن وظيفة اللغة تتجاوز حدود نقل الواقع الخارجي وان ألفاظ اللغة ليست علامات وسمات ، وإنما هي كون يستخدمه كل من التعبير القرآني والفني ليقفعي بها الأشياء وينقل لنا بها معرفة لا تتم الا عن طريق اللغة ؟؟

وللجواب على ذلك نقول ان هذا أمر يمكن أن نستنتجه من خلال قول ابن قتيبة السابق ورده على الطاعنين بأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل الذي سقناه آنفا ، ومن خلال قوله ( وقد يكون الضريع وشجرة الزقوم : نبتين من النار أو من جوهر لا تأكله النار . وكذلك سلاسل النار وأغلالها وأنكالها وعقاربها ، وحياتها ، لو كانت على ما نعلم ، لم تبق على النار ، وإنما دلنا

(١) المصدر السابق : ١٣٢ ، ١٣٣ (٢) المصدر السابق : ٣١

(٣) المصدر السابق : ١٧٢ ، ١٧٣

الله سبحانه على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء متفقة للدلالة والمعاني مختلفة ، وما في الجنة من شجرها وثمرها ، وفرشها ، وجميع آلاتها مثل ذلك . قال ابن عباس " نخل الجنة ، جذوعها من زمرد أخضر ، وكربها من ذهب أحمر ، وسعفها كسوة لأهل الجنة ، منها مقطعاتهم وحللهم ، وثمرها أمثال القلال والدلاء ، أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد ، ليس له عجم " (١) .

ولكن في قوله بتقدير كاد في قوله تعالى " وبلغت القلوب الحناجر "

وقول الشاعر :

تتعارضون إذا اتقوا في موطن      نظرا يزيل مواطىء الأقدام (٢)

قصر لجناح اللغة وجعل للمعرفة التي تأتي بها معرفة تالية

لتصور سابق عن الواقع الخارجي، وبيان ذلك أن سبب الحكم على الآية والبيت بالمبالغة ثم تقدير كاد هو أن النظرا لا يمكن أن يزيل مواطىء الأقدام ، وأن القلوب يستحيل أن تبلغ الحناجر . . وهذا أمر يصح لو أن ألفاظ اللغة تجمد على معناها الوضعي ، الذي وضعت بازائه ولكن الاستعمال القرآني والعربي يوجد للفظ حياة وحركة يختلف بها اللفظ باستعمال عنه في استعمال آخر . يقول ابن تيمية ( نجد أحدهم - أي القائلون بالمجاز - يأتي إلى ألفاظ لم يعلم أنها استعملت إلا مقيدة ، فينطق بها مجردة عن جميع القيود ، ثم يدعي أن ذلك هو حقيقتها من غير أن يعلم أنها نطق بها مجردة ، ولا وضعت مجردة ، مثل أن يقول حقيقة العين هو العضو المبصر ، ثم سميت به عيين الشمس ، والعين النابذة ، وعين الذهب للمشابهة ) (٣) ثم يقول ( لكن أكثرهم يقولون : إن هذا من باب المشترك ، لأن باب الحقيقة والمجاز ، فيمثل بغيره مثل لفظ الرأس ، يقولون : هو حقيقة في رأس الإنسان ، ثم قالوا : رأس - الدرب لأوله ، ورأس العين لمنبصها ، ورأس القوم لسيدهم ، ورأس الأمر لأوله ، ورأس الشهر ، ورأس ا حول . وأمثال ذلك على طريق المجاز ) (٤) ثم يرد عليهم مبينا اختلاف اللفظ وتعريف دلالة باختلاف استعماله قائلا ( وهم لا يجدون قط أن لفظ الرأس استعمل مجردا ، بل يجدون أنه استعمل بالقيود في رأس - الإنسان كقوله تعالى : ( وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ) ونحوه وهذا (٥)

(١) تأويل شكل القرآن : ٧٠ ، ٧١ (٢) تأويل مشكل القرآن : ١٧١

(٣) الايمان : ٩٣ ، ٩٤ (٤) المصدر السابق : ٩٤

(٥) سورة المائدة : ٧

القيد يمنع أن تدخل فيه تلك المعاني ، فإذا قيل رأس العين ورأس السدرب ، ورأس الناس ، ورأس الأمر ، فهذا المقيد غير ذاك المقيد الدال ، ومجموع اللفظ الدال هنا غير مجموع اللفظ الدال هناك ، لكن اشتركا في بعض اللفظ كاشتراك كل الأسماء المنصرفة في لام التعريف ، ولو قدر أن الناطق باللفظة نطق بلفظ رأس الانسان أولا ، لأن الانسان يتصور رأسه قبل غيره ، والتعبير أولا هو ما يتصور أولا ، فالنطق بهذا المضاف أولا ، لا يمنع أن ينطق بـ مضافا إلى غيره ثانيا ، ولا يكون هذا من المجاز كما في سائر المضافات . فإذا قيل ابن آدم أولا ، لم يكن قولنا : ابن الفرس ، وابن الحمار مجازا ، وكذلك إذا قيل : بنت الانسان ، لم يكن قولنا بنت الفرس مجازا . وكذلك إذا قيل : رأس الانسان أولا ، لم يكن قولنا : رأس الفرس مجازا ، وكذلك في سائر المضافات إذا قيل : يده أو رجليه <sup>(١)</sup> ويؤخذ من هذا أنه ليس للفظ واقـع خارجي محدود به ، ولأنه تبين حسب ما يقول ابن تيمية ( ان ما يدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود ، لا يوجد إلا مقدرًا في الأذهان ، لا موجود في الكلام المستعمل ، كما أن ما يدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود لا يوجد إلا مقدرًا في الذهن ، لا يوجد في الخارج شي موجود خارج عن كل قيد ) <sup>(٢)</sup> فالذي يحدد اللفظ هو الاستعمال الذي يجعل اللفظ موضع "مكانية" تشع منه معاني اللفظ في اتجاهات مختلفة وافرقت بين من يقول بهذا ، وبين من يجعل للفظ أصلا معينا يوول إليه تعبيره ويجعل ذلك الأصل هو الحقيقة وما عداه من استعمالات اللفظ المختلفة . التي قصدتها القرآن الكريم والاستعمال العربي مجازا أو مبالغة . وعدم استيعاب المعنى الوضوحي للكلمة أمر لا حظ النقاد العرب وأشاروا إليه قبل ابن تيمية ، ولكنهم في الكثير الأعم لم يجعلوا الاستعمالات المختلفة للفظ أصلا في كل استعمال من استعمالاته . يقول قدامة بن جعفر عن مفهوم الإشارة ( أن يكون اللفظ القليل مشتلا على معان كثيرة بايحاء اليها أو لمحة تدل عليها ) <sup>(٣)</sup> . ويقول ابن رشيق عنها أيضا ( والإشارة من غرائب الشعر وطحه ، وبلاغة عجيبة ، تدل على بعد المرعى ، وفرط المقدرة ، وليس بأنبي بها إلا الشاعر المبرز ، والحاذاق الثعلبي الناهر وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة ، واختصار وتلويح يعرف مجعلا ، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه ) <sup>(٤)</sup> ويقول الجاحظ ( اعلم أن حكم المعاني خلاف حكم

(٢) المصدر السابق : ١٠١

(٤) العمدة : ٣٠٢/١

(١) المصدر السابق : ٩٤

(٣) نقد الشعر : ٩٠

الألفاظ لأن المعاني مبسطة الى غير غاية وممتدة ، الى غير نهايتها (١) وقد تنبه ابن الأثير الى أن ( معنى اللفظة المفردة يتداخل بالتركيب ويصير له هيئة تخصه ، وهذا ليس قدحا في تلك الألفاظ . . . وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركيب منها المركبة واضحة كلها ، وإذا نظر إليها مع التركيب احتاجت الى استنباط وتفسير . . . ولهذا أشباه كثيرة تفهم معاني الفاظها المفردة وإذا تركيبت تحتاج في فهمها الى استنباط (٢) ويقول أيضا ( وأما إذا صارت مركبة فإن لتركيبها حكما آخر وذلك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة (٣) وهذا التخيل جاء نتيجة لحياة اللفظ الجديدة في السياق الجديد . وهذا هو معنى قولنا إن اللغة الأدبية والفنية لا تمثل واقعا محمدا ، وليس معنى ذلك أنها أوهام وأحلام وإنما هي إقامة جديدة للفظ في سياق جديد ، وما دام كل لفظ محمدا معناه بسياقه واستعماله فإن الواقع الخارجي للمحمود الذي وضع اللفظ بازائه في قضية الوضع لا يمثل أصلا يعود إليه المعنى ويؤول وإنما يمثل بذرة ينمو بها اللفظ ويتفرع في سياقاته واستعمالاته المختلفة ، والبذرة بعد هذا النمو والتفرع ليست أولى بالاهتمام من هذه الفروع التي قد تكوّن بذورا أخرى صالحة للتفرع والنماء .

ولو نظرنا الى القلب في السياق القرآني ، والاستعمال العربي ، وحاولنا أن نتبين بعض دلالات هذا الاستعمال لوجدنا أن القلب فيهما لا يمكن أن يستوعبه تخصيصه بمضفة اللحم التي تقوم بتنظيم الدورة الدموية في جسد الإنسان وذلك لأننا نجد أن القلب مناط الهداية قال تعالى ( فإنها لا تعصى الأَبصار ولكن تعصى القلوب التي في الصدور ) (٤) وقال جل وعز ( لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ) (٥) وقال سبحانه ( أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ) (٦) وقال تبارك اسمه ( ومن يؤمن بالله يهد قلبه ) (٧) ثم إن القلب على ما يوصى به استعماله في العربية هو مستقر العواطف الإنسانية يكون منه الاطمئنان والفرح ( نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ) (٨) (وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ) ( سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ) (٩)

- |     |                        |      |                          |
|-----|------------------------|------|--------------------------|
| (١) | البيان والتبيين : ٧٦/١ | (٢)  | المثل السائر : ٦٧/١ ، ٦٨ |
| (٣) | المصدر السابق : ١٩٢/١  | (٤)  | سورة الحج : ٤٦           |
| (٥) | سورة الاعراف : ١٧٩     | (٦)  | سورة محمد : ٢٤           |
| (٧) | سورة التفتابن : ١١     | (٨)  | سورة الشعراء : ١٩٤       |
| (٩) | سورة الأنفال : ١١      | (١٠) | سورة الأنفال : ١٢        |



ولقد كان نبضه الذي يتأثر بحالة الانسان النفسية رمزا أقام فيه الاستعمال العربي تطلعات الإنسان ، وأشواقه ومخاوفه ، وفي بعض الأحيان يفضل هذا الاستعمال القلب عن الإنسان فيملكه حبيب يسيطر على الذات يقول الشاعر :

ويخشون في ليلتي ولم أنسل مع العذل من ليلتي حراما ولا حلا  
سوى أن قلبي لو تشاء أقلبها ولو تبغني ظلا لكان لها ظلا<sup>(١)</sup>

ويقول أبو فراس الحمداني مقابل هذا :

ولا تنك الحسناء قلبي كله ولو شملتها رقية وشباب<sup>(٢)</sup>

أو يقيمه مزعزا يقول المجنون :

كأن القلب ليلة قبل يفدي بليلى العامرية أو يبرح  
قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

وقال الشاعر ( في وصف مفازة تنزو من مخافتها قلوب الأعداء ) :

كأن قلوب الأعداء معلقة بقرون الطير<sup>(٣)</sup>

وفي مقابل هذا الاستعمال نجد أن القرآن الكريم يحد ثنا عن تثبيت

قلوب رسله وأوليائه واطمئنانها فمن ذلك قوله تعالى ( كذلك لنثبت فيه فؤادك  
... ) وقوله عز وجل حكاية عن أم موسى ( إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا

على قلبها )<sup>(٤)</sup> وقول سبحانه ( هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين  
ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم )<sup>(٥)</sup>

وفوق هذا كله جاء القلب في السياق القرآني والاستعمال العربي

مستودعا لسر الإنسان ونيته لا يستطيع البشر سبر أغواره يقول تعالى ( يقولون

بآلسنتهم ما ليس في قلوبهم ) ويقول سبحانه مجيزا التصريح بالكفر عند الإكراه

قولا فقط ( إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ) ... ومن ثم لم يكلفنا الشرع

بوجوب معرفة حقيقة ما في القلب واكتفى بالبحث عن القرآئین والدلائل الظاهرة

والحكم بموجبها .

فإن كان كل هذا للقلب الانساني ... وكان مستودع سر ... ومقر

عاطفة ... وموجة نيته ... فهل للتفسير بالمبالغة في هذه الآية مجال فضلا

عن ايجاب تقدير " كان " ذلك التفسير الذي يقصر معنى القلب على ما خصه

به الوضع ... متناسيا هذه الوظيفة الشاملة له في الحياة الإنسانية . ومستغربا

- 
- ( ١ ) الزهرة : ٢٢ ( ٢ ) ديوان أبي فراس : ١٤ / ٢٤  
( ٣ ) تأويل مشكل القرآن : ١٧٢ ( ٤ ) سورة الفرقان : ٣٢  
( ٥ ) سورة القوتين : ١٠ ( ٦ ) سورة الفتح : ٤

حركته وبلوغه الحلق عندما نظر إليه من هذا المنطلق ونظر إلى الآية كترجمة حرفية لواقع حدود له فيها ذهنة القلب تحديدا معينا لا يتجاوزه بينما كان القلب كما رأينا بالشواهد القرآنية والشعرية أوسع من هذا التحديد الذي حدّ به القلب . . . فلا يتجاوزه إلا بسبب عقلي وأخيرا لسنا ننكر أن يكون معنى القلوب في الآية هو جمع لهذه المصفة التي تنظم الدورة الدموية في الإنسان ويكون بلوغها الحلق هو بلوغ وظيفتها المسرعة في دفع الدم إلى العروق فتتمتلي الأوردة ، وتنتفخ الأوداج ، ويضيق النفس حتى يصبح الإنسان عاجزا عن الإفصاح والنطق . . . . ولكن الذي ننكره هو أن يكون معنى بلوغها الحناجر تحركها من مواضعها إلى موضع الحنجرة وهو الأمر الذي بنيت عليه المبالغة في هذه الآية وتقديرها ، ذلك لأن الاستعمال القرآني والعربي للقلب أرائنا تحركه بل فصله عن الجسد غير مبال بما يجره عليه بسبب ذلك الحكم العقلي الذي يحد القلب بحدود لا تستوعبه .

ولن أغفل في هذا المقام إشارة ابن قتيبة إلى هذه المعنى الأخير الذي أشرت إليه عندما قال ( وقد يجوز أن يكون أراد : أنها ترجف من شدة الفزع ، وتحف ويتصل وجيفها بالحلق ، فكأنها بلغت الحلق بالوجيب ، وهم يصفون القلوب بالخفقان ، والنزوع عند المخافة والذعر )<sup>(١)</sup> .

## الفصل الثاني المبالغة بين القبول والرفض

قبل أن نتبين هذه القضية يجدر بنا أن نجعل نصب أعيننا عدة أمور تكشف لنا الكثير من المواقف وهذه الأمور هي :

- ١ - كثرة طرق المبالغة إلى درجة تستوعب فيها عند بعض النقاد معظم أساليب الأداء اللغوي في الصورة الفنية أو في أساليب التقديم والتأخير . والتكثير والتعريف . وفي بعض أنواع البديع .
- ٢ - فكرة النموذج ( المثال ) الذي يقيمه المحقق في شخص المدح سواء كان ذلك مدحا أم فخرا أم رثاء . . . أم غزلا . . . وعكس ذلك بالنسبة للهجاء .
- ٣ - تأرجح الفكر على المبالغة بين ثلاثة معان بين الدلالة على بلوغ الفايضة في المعنى والنهاية فيه ، وبين الزيادة فيه بعد تمامه ، وبين الكذب . ووضع هذه الأمور أما منا يفسر لنا الكثير من المواقف ازاء المبالغة حمدا ودما وتسويفا . . . ولقد كانت فكرة النموذج ( المثال ) داعيا قويا من داعي طلب المبالغة كما سبق أن أوضحنا ذلك في نقد النابغة لحسان ، وفي تفضيل امرأة امرئ القيس لعلمة الفحل عليه في وصف الفرس ، وفي تفضيل المرأة التي عرضت لكثير قول امرئ القيس :

ألم تر أني كلما جئت طارقا  
وجدت بها طيبا وإن لم تطيب  
على قول كثير في عزة :

فما روضة بالحزن طيبة الشرى  
بأطيب من أردان عزة موهنا  
يمج الندى جشاشها وعرارها  
إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

قائلة له : قضى الله فاك : رأيت لو أن ميمونة الزنجية بخسرت بمندل رطب أما كانت تطيب ( )

وفي تفضيل عبد الملك بن مروان قول الأعشى مادحا لقيس بن معدى كسرب على قول كثير فيه الذي سبق أن أوردناه وسنورد الآن عدة نصوص أخرى غير تلك النصوص تبين مدى سيادة هذا السنن الذوقي الذي لا يرضى إلا بالمثال فمن ذلك قصة معاوية مع الأخطل هيمى ما وفد عليه فقال له : إني قد امتدحتك بأبيات فاسمعها فقال : إن كنت شبيهتني بالحية أو الأسد أو الصقر فلا حاجة لي فيها ، وإن كنت قلت في كما

قالت الخنساء :

وما بلغت كفاً امرئ متساولٍ به المجد إلا حيث ما نلت أطول  
وما بلغ المهدون في القول مدحةً وإن صدقوا إلا الذي فيك أفضل  
فهاهنا . فقال الأخطل : والله لقد أحسنت وقلت بيتين ، ما هما بدون ما سمعته  
وأُنشد :

إذا ماتت مات العز وانقطع الغنى فلم يبق إلا من قليل مصرر  
وردت أكف الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلف مجدد  
(١)  
فأحسن صلتته .

ومن ذلك ما روى عن أبي عمرو بن العلاء أنه لقي ذا الرمة فقال له أنشدني  
قصيدتك .

ما بال عينك منها الماء ينسكب

فأنشده أياها ، فلما بلغ إلى قوله :

تصفي إذا شدها بالكور جانحةً حتى إذا ما استوى في غزها تشب  
فقال له أبو عمرو بن العلاء : قول الراعي أحسن مما قلت :

تراها إذا قام في غزها كمثل السنينة أو أوقرر  
ولا تعجل المرء عند الورو ك وهي بركبته أبصرر

فقال ذا الرمة : إن الراعي وصف ناقة ملك وأنا أصف ناقة سوقه .  
وهكي الصولي أنه سمع أعرابياً ينشد بيته الذي حكيناه ، فقال سقط والله  
الرجل (٢) .

وهذه الفكرة نجدها تتجسد عند قدامة بن جعفر يبحث الفضائل وأقسامها  
وما يجب على المادح من مدح الرجل بالخصال الأربع واستيعابها والإغراق فيها يقول  
في ذلك ( إنه لما كانت فضائل الناس من حيث إنهم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون  
فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهل الألباب ، من الاتفاق في ذلك ، إنما هي  
العقل - والشجاعة - والعدل - والعفة - كان القاصد لمدح الرجال بهذه  
الأربع الخصال مصيباً ، والمدح بغيرها مخطئاً . وقد يجوز في ذلك أن يقصد الشاعر  
للمدح منها بالبعس والإغراق فيه دون البعض . مثل أن يصف الشاعر إنساناً بالجوهر

(١) أمالي المرتضى : ٢٤/٢ ، ٢٥ - مصدر : مقل

خلف مجدد : يقال ناقة مجددة الأخلاف إذا ضربها الصرار وقطفها وتجدد  
ضرع الناقة : ذهب لبنه .

(٢) أمالي المرتضى : ٢٧٨/١ ، ٢٧٩ وفيه ( فأجها الفرز فهو للناقة مثل الركاب  
للداية ، وهو نسع مضفور ، وقوله " تصفي " يريد رأسها ، كأنها تسمح  
لأنها ليست بنفور ، بل مؤدبة مقومة ، والكور : الرحل ) .

الذي هو أحد أقسام العدل وحده فيغرق فيه ويتفنن في معانيه أو بالنجدة فقط ،  
 فيعمل فيها مثل ذلك ، أو بهما ، أو يقتصر عليهما دون غيرها ، فلا يسمى  
 مخطئا لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله ، لكن يسمى مقصرا عن استعمال جميع  
 المدح ، فقد وجب أن يكون على هذا القياس المصيب من الشعراء من مدح الرجال  
 بهذه الخلال ، لا يغيرها ، والبالغ في التجويد إلى أقصى حدوده من استوعبها ،  
 ولم يقتصر على بعضها ، وذلك كما قال زهير بن أبي سلمى في قصيدة :

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله      ولكنه قد يهلك المال نائله

فوصفه في هذا البيت بالعفة لقلّة إمعانه في اللذات ، وأنه لا ينفد ماله  
 فيها ، وبالسخاء لاهلاكه ماله في التوال ، وانحرافه إلى ذلك عن اللذات ، وذلك  
 هو العدل ثم قال :

تراه إذا ما جثته وتهللا      كأنك معطيه الذي أنت سائله  
 فزاد في وصف السخاء بأن جعله يهش له ، ولا يلحقه مضغ ، ولا تكبره  
 لفعله ثم قال :

فمن مثل حصن في الحروب ومثله      لانكار ضيم أو لخصم يجادله  
 فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة ، والعقل ، فاستوعب زهير  
 في أبياته هذه المديح بالأربع الخصال ، التي هي فضائل الإنسان على الحقيقة  
 وزاد في ذلك ما هو — وإن كان داخلا في هذه الأربع — فكثير من الناس لا يعلم  
 وجه دخوله فيها ، حيث قال "أخي ثقة" صفة له بالوفاء ، والوفاء داخل في الفضائل  
 التي قدمنا ذكرها (١) . وهذه الفكرة هي التي جعلت قدامة بن جعفر يفضّل  
 المبالغة والفلو حيث يقول : ( إن الفلو عندي أجود المذهبين وهو ما ذهب إليه  
 أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال أحسن الشعر  
 أكذبه ، وكذا نرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذاهب لفتهم (٢) وهي التي جعلته  
 يفضل رأى عبد الملك في مديح كثير له الذي سبق أن أوضحناه ليقول ( والذي عندي  
 في ذلك أن عبد الملك أصح نظرا من كثير ، إلا أن يكون كثير غلط ، واعتذر بما يعتقد  
 خلافه ، لأنه قد تقدم من قولنا في أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط  
 بما فيه كفاية ، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة ، حيث جعل الشجاع شديدا الإقدام  
 بغير جنسه على أنه وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب ، ففي وصف  
 الأعشى دليل قوي على شدة شجاعة صاحبه ، لأن الصواب له ، ولا لغيره ، إلا لبس

الجنة ، وقول كثير تقصير في الوصف (١) .

ولو مضينا الى أبي هلال العسكري لوجدناه يستجيز الغلو مسجلا استجازة الطرحة انطلاقا من هذه الفكرة يقول ( وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول الأعشى :  
لتي لو ينادى الشمس ألتقنا عها أو القمر السارى لألقى المقالدا  
هذا وقول أبي الطمحان من الغلو ، والغلو عند بعضهم مذموم وليس كذلك ولو كان مذموما لما جعلوا هذين البيتين من أمدح ما قالت العرب وهما من الغلو على ما هما عليه . ومثل هذا الغلو قول طريح بن اسماعيل :

أنت ابن مسلنطح البطاح ولم	يضرب عليك الجنى والولج
لو قلت للسيل دع طريقك	والموج عليه كالهضب يعتلج
لا رتد أوساخ أو لكان لسه	في جانب الأرض عنك منهج

وهذا من أعلى الغلو لأن السيل لا ترد وجهته هية ولا مخافة والعرب تقول أجرأ من السيل فيهمز ولا يهمز والهمز من الجراءة وترك الهمز من الجرى ويقال فني المثل لا أفعل كذا حتى يرد وجه السيل ، وليس هذا الشعر بمختار الرصف واللفظ وإنما جئت به لمكان غلوه ، ومن الغلو المشهور المستفيض الذي قبله الناس واستحسنوه ورووه بكل لسان قول أبي تمام في المعتصم :

بيمن أبي اسحق طالته الملا	وقامت قناة الدين واشتد كاهله
هو البحر من أي النواحي أتته	فلجته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنسه	أراد انقباضا لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه	لجان بها فليثق الله سائله (٢)

ومن الأمور التي عللوا بها قبول المبالغة في الشعر خاصة أن الشعر عمل يقوم على التخيل والتخييل ولا يطلب منه التحديد والتحقيق ومن هؤلاء الشريف المرتضى فتجده يورد ما أخذه الأمدى على البحترى وأمرى القيس في وصف ذيل الفرس قائلا

وما خطأ الأمدى فيه البحترى وإن كان له عذر صحيح لم يهتد إليه قوله :

ذنب كما سحب الرداء يذب عن عرف وعرف كالقناع المسبيل  
قال الأمدى " وهذا خطأ من الوصف لأن ذنب الفرس إذا مس الأرض كان عيبا فكيف إذا سحبه ! وإنما الممدوح من الأذنان ما قرب من الأرض ولم يمسه كما قال امرؤ القيس :

(١) المصدر السابق : ١٠٠ (٢) ديوان المصانبي : ٢٤/١ ، ٢٥

بضاف فوق الأرض ليس بأعزل

قال : وقد عيب امرؤ القيس بقوله :

لها ذنب مثل ذيل العروس      تسد به فرجها من دبّر (١)  
ثم يرد عليه قائلا : ( وما أرى العيب يلحق امرؤ القيس لأن العروس وإن كانت  
تسحب أن يالها ، وكان ذنب الفرس إذا مس الأرض عينا فليس منكرا يشبه به الذنب  
وإن لم يبلغ إلى أن يمس الأرض ، لأن الشيء إنما يشبه الشيء إذا قاربه ، أو دنا من  
معناه ، فإذا أشبهه في أكثر أقواله فقد صح التشبيه ولاق به .  
وامرؤ القيس لم يقصد أن يشبه طول الذنب بطول ذيل العروس فقط ، وإنما  
أراد السبوغ والكثرة والكثافة ، ألا ترى أنه قال :

تسد به فرجها من دبّر

وقد يكون الذنب طويلا يكاد يمس الأرض ولا يكون كثيفا ، ولا يسد فرج الفرس فلما قال  
" تسد به فرجها " علمنا أنه أراد الكثافة والسبوغ مع الطول ، فإذا أشبه الذنب  
الذي من هذه الجهة كان في الطول قريبا منه ، فالتشبيه صحيح ، وليس ذلك بموجب  
للعيب وإنما العيب في قول البحترى " ذنب كما سحب الرداء " فأوضح بأن الفرس يسحب  
ذنبه ) .

ثم وجه المرتضى الأنظار بعد ذلك إلى طبيعة الشعر ومعه عن التحقيق  
والتحديد ( وللبحترى وجه في المذر يقرب من عذر امرؤ القيس في قوله " مثل ذيل  
العروس " غير أن الآمدى لم يفتن له ، وأول ما نقوله : إن الشاعر لا يجب أن يؤخذ  
عليه في كلامه التحقيق والتحديد ، فإن ذلك متى اعتبر في الشعر بطل جميعه ، وكلام  
القوم مبني على التجوز والتوسع والإشارات الخفية والإيحاء على المعاني تارة من بعد ،  
وأخرى من قرب ، لأنهم لم يخاطبوا بشعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق ، وإنما خاطبوا  
من يعرف أوضاعهم ويفهم أغراضهم وإنما أراد البحترى بقوله ( ذنب كما سحب الرداء )  
المبالغة في وصفه بالطول والسبوغ ، وأنه قد قارب أن ينسحب ، وكاد يمس الأرض . ومن  
شأن العرب أن تجرى على الشيء الوصف الذي كان قد يستحقه ، وقرب منه القرب  
الشديد فيقولون : قد قتل فلانا هوى فلانه ، ودلّه عقله ، وأزال تمييزه وأخرج نفسه من  
وكل ذلك لم يقع ، وإنما أرادوا المبالغة ، وأفادة المقاربة والمشاركة ونظائر ذلك أكثر  
من أن تحصى .

ومن شأنهم أيضا إذا أرادوا المبالغة التامة أن يستعملوا مثل هذا فيشبهون

الكل بالكتيب والدقوس والتسل ، ويشبهون الخصر بوسط الزنبور ، ويمدار حلقة الخاتم ، ويمدون هذا غاية المدح وأحسن الوصف ، ونحن نعلم أننا لو رأينا من خصره مقدار وسط الزنبور ، وكفله كالكتيب العظيم لاستبعدناه واستهجننا صورته لنكارتها وقبحها ، وإنما أتوا بألفاظ المبالغة صنعة وأنقا ، لا لتحمل على ظواهرها تحديدا وتحقيقا ، بل ليفهم منها الغاية المحمودة ، والنهية المستحسنة ، ويترك ما وراء ذلك ، فإننا نفهم من قولهم : خصرها كخصر الزنبور أنه في نهاية الدقوسة المستحسنة في البشر ، ومن قولهم : كفله كالكتيب أي أنه في نهاية الوثارة المحمودة المطلوبة ، لا أنه كالتل على التحقيق ، فهكذا لا ننكر أن يريد الباحث بقوله " كما سحب الرداء " أنه في غاية الطول المدوح ، لا أنه ينجر على الأثر الحقيقية .

وكلنا في تخلص معناه وتفضيله الى المادة الجارية لنظرائه من الشعراء

في استعمال مثل اللفظ الذي استعمله : وقد قال بعضهم في ثقل المعجزة :

تمشي فتثقلها روادفها  
فكانها تمشي الى خلف

وقال المومل :

من رأى مثل حببتي  
تشبه البدران بدا

تدخل اليوم ثم تبد  
خل أرفها غدا

وقال ذو الرمة :

ورسل كأراك العذارى قطعته  
وقد جللته المظلمات الحنادس

وهذا كلام لو حمل على ظاهره وحقيقته لكان الموصوف به في نهاية القبح ،

لأن من يعيش الى خلف ، ومن يدخل كفه بعده لا يكون مستحسنا .

وقال بكر بن النطاح :

قرعاً تسحب من قيام شعرها  
وتغيب فيه وهو جمل أسهم

فكانها فيه نهار شروق  
وكأنه ليل عليها مظلم

فوصف شعرها بأنه ينسحب مع قيامها . ونحن نعلم أن طول الشعر - وإن

كان مستحسنا - فليس الى هذا الحد ، وإنما أراد بقوله ( تسحب شعرها ) ما

أراد به بقوله " كما سحب الرداء " من المبالغة في الوصف بالطول المحمود دون المذموم

وهذه النظرة التراثية الى المبالغة نظرة تحترم المبالغة فتحترم معها لفة

العمل الأدبي فتراها به عن الكذب وذلك لأنها ترى في العمل الأدبي مستوى آخر من

الكلام لا يمكن أن يخضع لتحديد اللفظة الاصلية التي هدفها الفهم والافهام ، ولا

لتجريد لفة العلم والفلسفة والمنطق ( إن الشاعر لا يجب أن يؤخذ عليه في كلامه

التحقيق والتحديد فان ذلك متى اعتبر في الشعر بطل جميعه ، وكلام القوم مبني على



على التجوز والتوسع والاشارات الخفية ، والإيما<sup>١</sup> على المعاني تارة من بعد ، وأخرى من قرب لأنهم لم يخاطبوا من بشعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق ، وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم ويفهم أغراضهم ) .<sup>(١)</sup>

ولقد شنع المرتضى على الذين يفهمون من الصور الفنية المطابقة بينها وبين الواقع الخارجي مبينا أن تشبيههم الكفل بالكثيب والدعص وبالتل . . . . . انه ممن شأنهم إذا أرادوا المبالغة التامة وأنهم يعدون هذا غاية المدح وأحسن الوصف ويقول بعد ذلك ( ونحن نعلم أننا لو رأينا من خصره مقدار وسط الزنبور ، وكفله كالكثيب العظيم لاستبعدناه واستهجننا صورته لنكارتها وقبحها ، وإنما أتوا بألفاظ المبالغة صنعة وتأنقا ، لا لتحمل على ظواهرها تحديدا وتحقيقا . بل ليفهم منها الغاية المحمودة ، والنهية المستحسنة ، ويترك ما وراء ذلك )<sup>(٢)</sup> .

وفرق بين عدم اخضاع الشعر لصدق أو كذب كما هو الحال في هذه النظرة وبين أن نحاكمه الى الواقع فتحكم عليه بالصدق أو الكذب كما هو حال موقف الآمدي في الموازنة ، الأمر الذي جعله يقف موقفين متناقضين من هذه القضية تبعا لنظرتين متفايرتين إحداهما تحاكم الشعر الى الواقع فتطلب منه الصدق ( وقد كان قوم ممن الرواة يقولون : أجود الشعر أكذبه ، ولا والله ما أجوده إلا أصدقه . )<sup>(٣)</sup> والأخرى ترى فيه تأبيا على الصدق . . . ولكنها بدلا من أن ترى فيه مستوى آخر لا يخضع لمعيار الواقع الخارجي بصدق أو كذب تأبى الا أن تخضمه لهذا المنطق فتحكم عليه بالكذب يقول ( وقد ذكر بزرجمهر فضائل الكلام وردائه ، وبعض ذلك داخل في الشعر فقال : إن فضائل الكلام خمس ان نقصت منها فضيلة واحدة سقط فضل سائرها وهي : أن يكون الكلام صدقا ، وأن يوقع موقع الانتفاع به ، وأن يتكلم به في حينه ، وأن يحسن تأليفه ، وأن يستعمل منه مقدار الحاجة . . . وهذا إنما أراد به بزرجمهر الكلام المنشور الذي يخاطب به الملوك ، ويقدمه المعتكف أمام حاجته ، والشاعر لا يطالب بأن يكون قوله صدقا . . . )<sup>(٤)</sup> ولقد كانت هذه النظرة شائعة في التراث النقدي فهذا أبو هلال العسكري يحكم على الشعر بالكذب قائلا ( وما يعرف أيضا من الخطابة والكتابة انهما مختصتان بأمر الدين والسلطان ، وعليهما مدار الدار ، وليس للشعر بهما اختصاص ، أما الكتابة فعليها مدار السلطان . والخطابة لها الحظ الأوفر من أمر الدين . . . ولا يقع الشعر في شيء من هذه الأشياء موقعا . ولكن له مواضع

(١) أمالي المرتضى : ٩٥/٢ (٢) المصدر السابق : ٩٥/٢  
(٣) الموازنة : ٥٨/٢ (٤) الموازنة : ٤٢٧/١ ، ٤٢٨

لا ينجع فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها ، وإن كان أكثره قد بنى على الكذب والاستحالة من الصفات الممتعة ، والنموت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة من قذف المحصنات ، وشهادة الزور ، وقول البهتان ، لا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله ، وليس يراد منه إلا حسن اللفظ ، وجودة المعنى وهذا هو الذي مسوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه . وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام والصدق يراد من الأنبياء (١) .

ولقد حاول الإمام عبد القاهر أن يدفع عن الصورة الفنية تهمة الكذب التي ألصقت بها ، وأن يساير العمل الأدبي في مستواه الفني الذي لا يخضع لحكم الصدق أو الكذب . . . فكان يحترمه ويحترم صورته الفنية التي لا تخضع لمنطق أو تجريد ولكنه لم يستطع أن يتحرر من أسر الواقع الخارجي الذي يخضع العمل الأدبي بالمقارنة به لحكمه . . . . ونستطيع أن نقول أن النظرتين ظلتا تصطرعان في داخله . وليس أدل على ذلك من موقفه الغامض من المبالغة الذي لم يستطع مع هذا الاصرار أن يبت في المبالغة برأى جازم حول قبولها أو رفضها فهو يقول معقبا على قول البحتری :

كلفتومنا حدود منطقكم والشعر يكفي عن صدقه كذبه

( أراد : كلفتومنا أن تجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، وتأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق ، حتى لا ندعي إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ويلجئ إلى موجبيه مع أن الشعر يكفي فيه التخيل والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل ، ولا شك أنه إلى هذا النحو قصد ، وإياه عمد ، إذ يبعد أن يريد بالكذب إعطاء المدح حظا من الفضل والسود ليس له ، ويبلغه بالصفة حظا من التعظيم يجاوز به من الإكثار محله ، لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية والقوانين العقلية ، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور واختباره فيما وصف به والكشف عن قدرته ونعته ورفعته أو وضعته ومعرفة محله ومرتبته .

وكذلك قول من قال " خير الشعر أكذبه " فهذا مراده لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلا ونقصا وانحطاطا وارتقايا بأن ينحل الوضع من الرفعة ما هو منه عار ، أو يضيف الشريف بنقص وعار ، فكم جواد بخله الشعر ، ويخيل سخاه ، وشجاع وسمه بالجبن ، وجبان ساوى به الليث . . . ثم لم يعتبر ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقد بنائيره ، وتتشرد بإبيجه ، ويفتق مسكه فيضوع أريجه .

وأما من قال في معارضة هذا القول ( خير الشعر أصدقه ) كما قال :

وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل وأدب يجب به الفضل وموعظة تروض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى ، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال ، كما قيل : كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر (١) ، ثم مضى يفاضل بين القولين ويمدد حجج كل قول قائله ( فمن قال ( خيرهُ أصدقه ) كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح ، واعتماد ما يجرى من الخلق على أصل صحيح . أحب إليه وآثر عنده إذ كان ثمره أحلى ، وأثره أبقى ، وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر ، ومن قال " أكذبه " ذهب إلى أن الصنعة إنما يمد بها وينشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها حيث يعتمد الاتساع والتخييل ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتشليل ، وحيث يقصد التلطف والتأويل ، ويذهب مذهب القول بالمبالغة والإغراق في المدح والذم والوصف ، والبث والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يمدح ويبيد ويبدى في اختراع الصور ويعيد ، ويصايف مضطربا كيف شاء وأسما ، ومدد من المعاني متابعا ، ويكون كالمفترق من غد ير لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهي . وأما القبيل الأول فهو فيه كالمقصود المداني قيده ، والذي لا تتسع كيف شاء يده

ثم هو في الأكثر يورد على السامعين معاني معروفة وصورا مشهورة ويتصرف في أصول هي وإن كانت شريفة فأنها كالجواهر تحفظ أعدادها ولا يرجى ازديادها . وكالأعيان الجامدة التي لا تنسى ولا تزيد ، ولا تريح ولا تفيد ، وكالحسناء العقيم ، والشجرة الراتعة لا تمتع بجنى كريم (٢)

ويضيف مفاضلا بينهما وحاكما لمنطق العقل والواقع الخارجي على منطق الفن

في العمل الأدبي قائله ( هذا ونحوه يمكن أن يتعلق في نصرة التخييل وتفضيله والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديره ، وتفخيم قدره وتعظيمه ، وما كان العقل ناصره ، والتحقيق شاهده ، فهو العزيز جانبه ، المنيع مناكبه . وقد قيل الباطل مخصوم وإن قضى له ، والحق مفلج وإن قضى عليه . هذا ومن سلم أن المعاني المفرقة في الصدق ، والمستخرجة من معدن الحق ، في حكم الجامد الذي لا ينمي والمحصور

والذي لا يزيد؟ (١)

ولقد كان صل الإمام عبد القاهر الى ما كان العقل ناصره والتحقق شاهده ،  
ومحاكمة العمل الأدبي بالمفصل ، وما يحدث في الواقع بالصدق والتحقق ، مع  
عدم مطاوعة وخضوع التركيب اللغوي في العمل الأدبي لهذا التحقيق أمرا جعل الامام  
عبد القاهر في موقف المضطرب من عد الاستعارة من قبيل التخييل أم لا فهو يقول في  
موضع ( واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل لأن المستعير لا يقصد اثبات  
معنى اللفظة المستعارة ، وإنما يعمد الى اثبات شبه هناك : فلا يكون مخبره على  
خلاف خبره ، وكيف يمرض الشك في أن لا يدخل للاستعارة في هذا الفن ، وهي  
كثيرة في التنزيل على ما لا يخفى : كقوله عز وجل " واشتعل الرأس شيبا " ثم لا شبهة  
في أن ليس المعنى على اثبات الاشتعال ، ظاهرا وإنما المراد اثبات شبهه (٢)  
يقول في موضع آخر ( فاعلم . . . ان الاستعارة وان كانت تعتمد التشبيه والتخييل وكان  
التشبيه يقتضى شيئين مشبها ، ومشبها به وكذلك التخييل ، لأنه كما عرفت تشبيه الا  
أنه عقلي — فان الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرهه ،  
وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به كما مضى من قولك : رأيت أسدا تريد رجلا شجاعا  
ووردت بحرا زاخرا تريد رجلا كثير الجود فائض الكف ، وأبديت نورا تريد علما ومسا  
شاكل ذلك ، فالاسم الذي هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى ، وقد نقلت  
الحديث الى اسم المشبه به لقصدك أن تتألف فيه بحيث تخيل أن معك نفس الأسد  
والبحر والنور كي تقوى أمر المشابهة وتشدده ، ويكون لها هذا الصنيع حيث يقع  
الاسم المستعار فاعلا أو مفعولا أو مجرورا بحرف الجر أو مضافا اليه (٣) ولقد شمس  
الإمام بتناقضه فقال بعد أن أخرج الاستعارة من التخييل ( وجملة الحديث الذي  
أريده بالتخييل ههنا : ما ثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا ، ويدعى دعوى  
لا طريق الى تحصيلها ، ويقول قولا يخدع فيه نفسه . ويربها ما لا ترى ، أما  
الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك اذا رجعت الى أصله وجدت  
قائله وهو يثبت أمرا عقليا صحيحا ويدعى دعوى لها شبح في العقل (٤) والذي قاد  
الإمام عبد القاهر الى هذا الاضطراب تناوله للفة العمل الأدبي " على أساس أنها  
اثبات ودعوى وحكم وليس أدل على ذلك من قوله السابق ومن قوله بعد ذلك ( وستر  
بك ضروب من التخييل هي أظهر أمرا في البعد عن الحقيقة تكشف عن وجهه في أنه

(١) اسرار البلاغة : ٢ / ١٣٤ ، ١٣٥ (٢) المصدر السابق : ٢ / ١٣٥

(٣) المصدر السابق : ٢ / ٩٧ (٤) المصدر السابق : ٢ / ١٣٦

خداع للعقل وضرب من التزييق (١) . وعلى الرغم من موازنة الإطام بين التخييل والتصديق وميله الى تفضيل الثاني على الأول ( فان ذلك التفضيل ظل منحصرًا في مستوى التأصيل النظري ، فحسب أما على مستوى التطبيق العملي ، فقد انحاز عبد القاهر الى جانب التخييل وأعجب بقدرته اللافطة على عكس الحقائق ، وقلوب الأوضاع (٢) .

وهناك وأما آخر كان داعيا الى قبول المبالغة وهو فكرة التحسين والتقييح — و ( التحسين والتقييح مصطلح كلامي تبلورت حدوده وأبعاده عند المعتزلة ، فهو أصل من أصولهم الخمسة المعروفة ، لكن المصطلح انتقل الى مجال البحث البلاغي ليشير الى قدرة الكلام البليغ على إيهاام المتلقى ومخادعته . . . . . وتحقق هــــــه الغاية عندما يربط البليغ المعاني الأصلية التي يعالجها بمعان أخرى مماثلة لها ، لكنها أشد قبحا أو حسنا . فتسرى صفات الحسن أو القبح من المعاني الثانوية الى المعاني الأصلية ، فيميل المتلقى اليها ، أو ينفر منها تبعًا للمبدأ القديم الذي يرى أن ما يجوز على احد المتماثلين يجوز على الآخر (٣) . وقد أشار الجاهظ الى ذلك عندما قال ( فانه ليس شيء الا وله وجهان و طرفان وطريقان ، فاذا مدس ذكروا أحسن الوجهين ، واذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين ) (٤) ويقول ابن رشيق في العمدة ( ومن كتاب عبد الكريم : قالوا : حسن البلاغة أن يصور الحق في صورة الباطل ، والباطل في صورة الحق ) (٥) ولقد وجه ابن رشيق هذا القول ودافع عنه بفكرة التحسين والتقييح هذه فقال ( والذي أراه أنا أن هذا النوع من البيان غير معيب بأنه نفاق ، لأنه لم يجعل الباطل حقا على الحقيقة ، ولا الحق باطلا ، وإنما وصف محاسن شيء مرة ثم وصف مساويه مرة أخرى ، كما فعل عمرو بن الأهتم بسين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد سأله عن الذبرقان بن بدر ، فأثنى خيرا فقال : مانع لحوزته ، مطاع في أئديته ، ويروى في أذنيه ، فلم يرض الذبرقان بذلك ، وقال : أما إنه قد علم أكثر ما قال . ولكن حسدني لشرفي — وفي رواية أخرى — حسدني مكاني منك ، يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم — فأثنى عليه شرا ، وقال : أما لئن قال ما قال لقد علمته ضيق الصدر ، زمر المروءة ، أحسق الأب ، لثيم الخال ، حديث الفنى ثم قال : والله يا رسول الله ما كذبت عليه في الأولى ، ولقد صدقت في الآخرة ، ولكن أرضاني فقلت بالرضا ، واسخطني فقلت

(١) المصدر السابق : ١٣٦/٢

(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٤٣١

(٣) المرجع السابق : ٤٢٨ (٤) الحيوان : ١٧٤/٥

(٥) العمدة : ٢٤٧/١ (٦) وفي مجمع الأمثال (مطاع في أذنيه) وعلق عليها

المحقق هناك بقوله ( هكذا في جميع أصول هذا الكتاب والأذنون جمع الأذنى بمعنى الأقرب ووقع في بعض الأمهات (مطاع في أذنيه) والأذنين النداء (مجمع الأمثال : ٧) .

السيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( إنَّ من البيان لسحرا ) قال أبو عبيد القاسم بن سلام : وكان المعنى - والله أعلم - أنه يبلغ من بيانه أنه يعدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب الى قوله ، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب الى قوله الآخر ، فكانه سحر السامعين بذلك .

وقال الجاحظ : العربي يعاف البذاء ويهجو به غيره ، فإذا ابتلي به فخر به ، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به صاحبه (١) .

وهذه الفكرة تدخل في جهة من جهتيها مع فكرة " النموذج " التي ذكرناها سابقا ، فهي تدخل في المبالغة من هذه الجهة ، ومن جهة الإشباع في صفة الذم أيضا يقول الأصمعي إجابة لمن سأله : من أشعر الناس ؟ ( الذي يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيرا ، أو يأتي الى المعنى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا ) (٢) .

وفكرة المحاكاة التي نقلت من النقد اليوناني وسرت في النقد العربي كانت جذرا من جذور هذه الفكرة ، وداعيا لتقبل المبالغة إذ كانت فكرتها عند أرسطو أنه ( لما كان الشاعر محاكيا - شأنه في ذلك شأن الرسام ، وكل صانع صورة - فيجب ضرورة أن يسلك في محاكاة الأشياء أحد طرق ثلاثة : إما أن يحاكيها كما كانت أو تكون ، وإما أن يحاكيها كما تقال أو تظن ، وإما أن يحاكيها كما ينبغي أن تكون (٣) والمحاكاة بما يظن أو بما يمكن أن يكون أمر جعل الشعر عند أرسطو أقرب الى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ يقول أرسطو ( وظاهر ما قيل أن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع بل ما يجوز وقوعه وما هو ممكن على مقتضى الرجحان أو الضرورة ، فان المؤرخ والشاعر لا يختلفان بأن ما يرويانه منظوم أو منثور بل هما يختلفان بأن أحدهما يروي ما وقع على حين أن الآخر يروي ما يجوز وقوعه ، ومن هنا كان الشعر أقرب الى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ ، لأن الشعر أميل الى قول الكليات على حين أن التاريخ أميل الى قول الجزئيات (٤) . ولكن هل كان هذا السمو بمكانة الشعر ينطلق من تصور أن الشعر له لفته الخاصة التي تعمل على إعادة تشكيل الواقع الخارجي دون خضوع لمقياس صدق أو كذب وحقيقة أو خيال ؟ أو ان ذلك منطلق من تصور أن لفة الشاعر لا تختلف عن لفة الخطيب والمحدث العادي . . . وأن الشاعر لتحقيق دوره الخطابى يباح له الكذب لتتم عملية الإمتاع ؟

ومن ينظر الى غرض المحاكاة المنقول عن أرسطو بأنها تحسين أو تقبيح أو مطابقة والذي نقله عنه ابن سينا عندما قال ( وأما اليونانيون فكانوا يقصدون أن يحشوا

(١) المصدر السابق : ٢٤٨ ، ٢٤٩ (٢) المصدر السابق : ٥٧/٢

(٣) كتاب أرسطو طاليس في الشعر ١٤٢ (٤) المصدر السابق : ٦٤

بالقول على فعل أو يرددوا بالقول عن فعل ، وتارة كانوا يفعلون ذلك على سبيل  
الخطابة ، وتارة على سبيل الشعر فلذلك كانت المحاكاة الشعرية عندهم مقصورة  
على الأفاعيل والأحوال وعلى الذات من حيث لها تلك الأفاعيل والأحوال . وكل  
فعل إما قبيح واما جميل ولما اعتادوا محاكاة الأفعال انتقل بعضهم الى محاكاتها  
للتشبيه الصرف لا لتحسين وتقييم ، فكل تشبيه ومحاكاة كان معدا عندهم نحو  
التقبيح أو التحسين ، وبالجملة المدح أو الذم . . . . . وقد كان من الشعراء  
اليونانيين من يقصد التشبيه للفعل ، وإن لم يخيل منه قبحا وحسنا ، بل المطابقة  
فقط . فظاهر أن فصول التشبيه هذه الثلاثة : التحسين والتقبيح والمطابقة ( ١ ) .

يجزم من ينظر الى ذلك كان نابعا من النظر الى دور الشاعر بأنه كدور  
الخطيب او المناظر يتوسل لاثبات منطقة بكل حجة وذريعة وهذا أمر سرى في النقد  
العربي ورأيناه عند عبد القاهر الجرجاني في بحثه عن أقسام التخييل . وعند هازم  
القرطاجني الذي يقول ( وإنما يرجع الشاعر الى القول الكاذب حيث يعوزه الصادق  
والمشتهر بالنسبة الى مقصده في الشعر فقد يريد تقبيح حسن ، وتحسين قبيح ،  
فلا يجد القول الصادق في هذا ولا المشتبه فيضطر حينئذ الى استعمال الأقاويل  
الكاذبة ) ( ٢ ) . وتلاحظ ان فكرة التحسين والتقبيح هنا تجاوزت ما يمكن أن يكون  
من اشباع الصفات المدح أو الذم الى سلوك طريق المبالغة والمخادعة وقلب  
الحقائق بتقبيح الحسن ، وتحسين القبيح .

ولقد كانت هذه الأمور مدعاة لقبول المبالغة والترويح لها ، إذ وضعت  
الرافضين للمبالغة في موقف حرج إذ كانوا يطلبون من لغة العمل الأدبي ما تنوء به  
وترفضه فهي كما يرى المرتضى لا تتطلب تحقيقا وتحديدا ، الأمر الذي جعل من  
يصيب المبالغة ولا يرضاها مغلطيا لكثير من صور الكلام العربي واستعاراته ومجازاته  
( ولو بطلت المبالغة كلها وعيت لبطل التشبيه وعيت الاستعارة الى كثير من  
محاسن الكلام ) ( ٣ ) ولقد كان أكثر النقاد العرب مدركا لهذه القضية ولذلك قالوا  
( أعذب الشعر أكذبه ) ومن هنا كان الترويح والتجريح للمبالغة بتصوير ما ينبغي أن  
يكون ، أو بالتحسين والتقبيح . . . . . أو بأش الشاعر يضطر الى استعمال الأقاويل  
الكاذبة فيرجع الى القول الكاذب حيث يعوزه الصادق والمشتهر . . . . . ولو أنهم  
عاشوا مخالفة لغة العمل الأدبي للواقع الخارجي معايشة من يرى في ذلك ضرورة

( ١ ) كتاب ارسطوطاليس في الشعر : ٢٠٠ ( ٢ ) منهاج البلاغ : ٧٢

( ٣ ) العمدة : ٥٧ / ٢

حتمية لها وأنها تتخذ من هذه الضرورة بعدا يعلو على لغة الفهم والإفهام فيمكنها من الخلق والابتكار والاستحصار لرباً وبهذا الانحراف عن مستوى الواقع الخارجي عن الكذب وعن الإحالة وعن تقسيمه إلى درجات تختلف في القول والاستحسان باختلافها في البعد والقرب ، وعن الترويح والتعليل للكذب الذي يروونه في مخالفة اللفظة الأدبية للواقع الخارجي ولما عدت المبالغة في صناعة الشعر عند بعضهم (كلاستراحة من الشاعر إذا أعياه إيراد معنى حسن بالغ فيشفل الأسعاع بما هو محال ، ويهول مع ذلك على السامعين ، وإنما يقصد ها من ليس بمتمكن من محاسن الكلام أن تمكنه ولا يتعذر عليه ، وتتجذب كلما أرادها إليه )<sup>(١)</sup> .

ولقد كان الحرج في الموقف من المبالغة أمراً ظاهراً في النقد العربي فالمبرد مثلاً لا يقبل إلا ما يقارب الحقيقة ويعلق على قول قيس بن معاد :

فلو أن ما أبقيت منى معلق بصود تمام ما تأود عود هـا

بقوله : ( وهذا متجاوز كقول القائل : " وبينهما من أن تطير زمامها وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسين منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبه فيه لفظنته على ما يخفى على غيره ، وساقه برصفاً واختصار قريب " )<sup>(٢)</sup>

ومن ثم يقسم التشبيه على هذا الأساس إلى أربعة أضرب " فتشبيه مفرط " وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أحسن الكلام " )<sup>(٣)</sup> . وكانت شواهد التي ساقها دليلاً على كل قسم وتمييزاً له عن غيره " فنرى في شواهد التشبيه المفرط شيئاً من المبالغة ، وفي أمثلة التشبيه المصيب انطباقاً يجرى على حدود الممكن والواقع ، وفي دلائل التشبيه المقارب نوعاً من الوضوح والصراحة ، وفي التشبيه البعيد حاجة إلى التأويل والتفسير " )<sup>(٤)</sup> .

ولكن المبرد الذي وضع نفسه في إطار هذه النظرة يصطدم بالكثرة الكاثرة لهذا النوع الذي سماه بالتشبيه المفرط في الكلام العربي فهو عند ما يقول " فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخي هو كالبحر ، وللشجاع هو الأسد " )<sup>(٥)</sup> يفصح بذلك عن هذه الكثرة لأن مثل ذلك هو جل الكلام العربي شعراً ونثراً .

وقد قرن ذلك بتراكيب وأبيات تحمل المبالغة وإن كانت طريق غير التشبيه دالاً بذلك على أن الإفراط في التشبيه كالأفراط في المعنى وذلك حيث يربط تشبيههم المفرط للسخي بالبحر ، وللشجاع بالأسد بقولهم للشريف " سما حتى بلغ النجم ، وقول بكر بن النطاح :

- 
- (١) العمدة : ٥٤/٢ (٢) الكامل : ١٧٣/١  
 (٣) المصدر السابق : ١٠١/٢ (٤) اثر النحاة في البحث البلاغي : ٢١٦  
 (٥) الكامل : ١٠١/٢



له هم لا منتهى لكبارها وهمته الصفرن أجل من الدهر  
له راحة لو أن معشار جودها على البر صار البرأندى من البحر  
ولو أن خلق الله في مسك فارس ووارزه كان الخلق من العسر (١)  
ويحمل لنا المبرد في كتابه الكامل ظنا سيئا بالمبالغة يقود الى اتهامها  
بالكذب وذلك يظهر في ايراد ما دار بين عمران بن حطان وزوجته عندما قالت له  
امراته :

أما زعمت أنك لم تكذب في شعر قط . فقال : أو فعلت ؟ فقالت : أنت

القاتل :

فهناك مجزأة بن ثور ر كان أشجع من أسامة  
أفيكون رجل أشجع من أسامة ، فقال لها : أنا رأيت مجزأة فتح مدينة  
والأسد لا يفتح مدينة (٢) . ولكن ما هو موقف المبرد نفسه من المبالغة ؟ !  
لقد ظل المبرد حائرا بين أمرين :

أولهما : صدق الواقع الخارجي والمقاربة في التشبيه .

ثانيهما : كثرة الإفراط في الكلام العربي شعرا ونثرا عن طريق التشبيه وطريق الممضى .  
فهل يرد الأمر الثاني لعدم وفائه بشروط الأمر الأول ؟ وما هو تصرفه اذا  
ذلك ؟ لقد تصرف المبرد اذا ذلك تصرفا يظهر فيه المكابرة التي ترفض  
الإفراط وتنادى بالصحة والصواب والمقاربة ، وتحاول الصمود أمام كثرة ما وسم بالإفراط  
في الكلام العربي ، فلا تقوى إلا برد الإعجاب الى شيء آخر غير الإفراط . يظهر  
ذلك في قوله : " ومن التشبيه في إفراط غير أنه خرج في كلام جيد وعنى به رجل  
فخرج من الاحتمال الى باب الاستحسان ثم جعل لجودة ألفاظه وحسن رصفه  
واستواؤه نظمه في غاية ما يستحسن قول النابغة : يعنى حصن بن حذيفة بن بدر بن  
عمرو الفزاري :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح  
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزل نجوم السماء والأديم صحیح  
فعمّا قليل ثم جاء نعيه فظل ندى الهي وهو ينوح (٣)  
وقوله :

ومن تشبيههم المتجاوز الجيد النظم ما ذكرناه وهو قول أبي الطمغان :  
أضأت لهم أحسابهم ووجوههم ه جن الليل حتى نظم الجزع ثاقبه (٤)

(٢) الكامل : ١٠١/٢

(١) الكامل : ١٠١/٢

(٣) الكامل : ١٠١/٢ ، ١٠٢

وهذا الإعجاب الذي يحاول أن يرده المبرد إلى غير الإفراط هو الذي جعل الدكتور عبد القادر حسين يتوهم أن المبرد يناصر المبالغة ويظهر ذلك في قوله " والمبرد يقصد بالتشبيه المفرط ، التشبيه المبالغ فيه ، ونراه يعجب بهذا اللون من التشبيه ، ويؤازر إعجابه بما يذكره من تشبيهات القرآن وشعر الفحول <sup>(١)</sup> . وقوله : ( والمبرد كان على فهم ودراية حين أعجب بالتشبيه المفرط الذي يتسم بالمبالغة ) <sup>(٢)</sup> مع أن المدقق في كلام المبرد يستنتج منه نفوره من المبالغة ذلك النفور الذي صرح به في قوله ( وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ) <sup>(٣)</sup> .

ويتضح مما سبق أن رفضه للمبالغة والإفراط لا ينبع من أن محاكمة العمل الأدبي إليهما ليس من طبيعته ، ولكنه ينبع من الظن السيء بهما .

والحرج من المبالغة يظهر في تناقض ابن قتيبة في الموقف منها فهو يقبلها ويرد على الطاهريين على القرآن الكريم الذين يفسرونها فيه بالكذب في كتابه ( تأويل مشكل القرآن ) ينفي تلك التهمة عنها ، حيث يقول : ( وليس ذلك بكذب لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه ) <sup>(٤)</sup> ويضرب على ذلك الأمثلة من القرآن الكريم ، وكلام العرب ثم يقول ( وكان بعض " أهل اللغة " يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن وينسبها فيه إلى الإفراط ، وتجاوز المقدار وما أرى ذلك إلا جائزا حسنا على ما بيناه من مذاهبيهم .

يقول النابغة في وصف سيوف :

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصّباح نار الحباب

ذكر أنها تقطع الدروع التي هذه حالها ، والفارس حتىّ تيلغ الأرض فتورى النار إذا أصابت الحجارة .

وقول النمر بن تولب :

تظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادى

يقول : رسب في الأرض بعد أن قطع ما ذكر ، واحتاج أن يحفر عنه

ليستخرجه من الأرض .

ومثله قول مهلهل :

ولولا الريح أسمع أهل حجر صليل البيهق تقرع بالذكور

ويتبع ذلك بأمثلة أخرى يختتمها بقوله ( وكل هذا على المبالغة في الوصف

وينوون في جميعه يكاد يفعل ، وكلهم يعلم المراد منه ) <sup>(٥)</sup> .

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي : ٢١٣ (٢) المرجع السابق : ٢١٣

(٣) الكامل : ١٧٣/١ (٤) تأويل مشكل القرآن : ١٦٧ فما بعدها

(٥) المصدر السابق : ١٧٢ - ١٧٨

ونجده في الشعر والشعراء يقول : عن النابغة ( وأخذوا عليه قوله  
في وصف السيوف :

يطير فضاضا حولها كل قونس      ويتبعها منهم فراش الحواجر  
تقد السلوقي المضاعف نسجه      ويوقدن بالصفاح نار الحباب  
وذكر أنها تقد الدروع التي ضوعف نسجها والفارس والفرس حتى تبلغ  
الأرض فتتقدح النار بها من الحجارة (١) .  
ويقول عن النمر بن تولب :

( وما يعاب عليه قوله في وصف سيف :  
تظل تحفر عنه إن ضربت به      بعد الذراعين والساقين والهادي  
ذكر أنه قطع ذلك كله ، ثم رسب في الأرض ، حتى احتاج إلى أن يحفر  
عنه وهذا من الإفراط والكذب (٢) .

ويقول عن المهلهل ( وهو أحد الشعراء الكذبة لقوله :  
ولولا الريح أسمع أهل حجر      صليل البيض تفرع بالذكور (٣)  
ويقول الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال : ( وأكثر الأبيات  
التي ارتضاها ورآها أمرا جاززا حسنا في تأويل مشكل القرآن نسبها إلى الإفراط  
والكذب في الشعر والشعراء .

ولم يعتمد في وصفها بالإفراط والكذب على أقوال السابقين وحسب ، ولكنه  
اعتمد على أقوالهم فيها - أحيانا - ووصفها أو وصف أصحابها هو بنفسه أحيانا  
أخرى كما يبدو ذلك من المطالين الأخيرين - يعني قوله في قول النمر ، وفي قول  
المهلهل - اللذين ذكرتهما له (٤) .

فهل في الموقفين تناقض ؟ ! أو أن ابن قتيبة ألف ( الشعر والشعراء )  
قبل ( تأويل مشكل القرآن ) فيكون ما في التأويل رجوعا عما في ( الشعر والشعراء )  
كلا الأمرين جائز .

رجوعا  
ولكن الأمر الأول أرجح لأنه لو كان ما في ( تأويل مشكل القرآن ) أعما في  
( الشعر والشعراء ) لصرح به ابن قتيبة وذلك لأنه كان في ( تأويل مشكل القرآن )  
يدافع عن القرآن الكريم ، ومن ثم كان يجب أن يكون فيه النص على الإقلاع عما كان منه  
من الذي أخذه على أهل اللغة . وهذا التناقض الذي يسود في النقد العربي

(١) الشعر والشعراء : ٧٩ (٢) المصدر السابق : ١٧٣

(٣) المصدر السابق : ١٦٤

(٤) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي : ٢٧٣

من الموقف من المبالغة ، والذي يظهر عند ابن قتيبة ، والذي تحايل عليه المبرد كما سبق أن أوضحنا - ويظهر عند الآمدي ، والإمام عبد القاهر الجرجاني كما سبق أن أشرنا ، وغيرهم، كان نتيجة لعدم سلامة النظر إلى العمل الأدبي تلك النظرة التي لا تحترم لغة العمل الأدبي ، ولا ترى فيها إلا صورة لمطابقة الواقع الخارجي ثم تصطدم بجلال وجمال الأساليب التي يرون فيها مخالفة وتجاوزا لحدود وأبعاد الواقع الخارجي ، فحينما تجد هم يتحررون من أسر هذا الواقع ويحترمون فاعلية اللغة ، فيقارنون الأساليب ببعضها ويخرجونها من تهمة الإفراط والكذب والادعاء ، وحينما يتحكم بهم الواقع الخارجي ، وحدود منطقتهم العقلية ، فينسون الجمال والجلال فيحكمون على هذه الأساليب بالإفراط والكذب والادعاء .

إن هذا هو الذي يمكن أن نفسره التناقض في الموقف من المبالغة وأما قول الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال : ( وفي تقديرنا أن ابن قتيبة لا يصح أن يؤخذ على رأيه في تأويل مشكل القرآن ، أو أن يؤخذ به لأنه - فيما نعتقد - لم يكن مطلق الحرية وهو يقول بهذا الرأي المستحسن للمبالغة جملة ، إنما كان محوطا بمعايير كان لها أبلغ الأثر في توجيه رأيه ، هما : بلاغة القرآن ، ذاتها وقد أخذ بها من غير شك ، ووجد فيها نماذج ظنها من المبالغة الغالية ، ولم يستطع تبريرها على غير المبالغة ، والعامل الثاني هو التأثير البالغ الذي مس نفسه وهيجها بما وجه إلى القرآن من الطعن عليه ، والنيل من بلاغته ، فكان هذان العاملان معا هما اللذين دفعاه إلى تبرير المبالغة ، والبحث عن مخرج ينفي عنها الفلو والإغراق ويجعلها في شكل الممكن ولما كان القرآن قد نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم كانت المبالغة جائزة في لغة العرب وفي أساليبهم على التأويل الذي رأه (١) فلا يكفي في تفسير تناقض ابن قتيبة ، وفيه رجوع عن بعض الاحترام والتقدير الذي لقيته لغة القرآن الكريم ، والشعر العربي في ( تأويل مشكل القرآن ) عند ابن قتيبة إلى محاكاة لغة القرآن الكريم ، والشعر العربي بحدود الواقع الخارجي ، وبمدرجات العقل البشري المحدودة ، ومن ثم الحكم على الشعراء بالإفراط والادعاء ، والانصراف بالآيات القرآنية إلى التأويل ، وربطها مع الواقع الخارجي بعلاقات الاستمارة والمجاز ويؤكد الدكتور هذا الرجوع بقوله ( ولذا فإني أؤثر رأيه في ( الشعر والشعراء ) وفي بعض ما ورد في ( تأويل مشكل القرآن ) لأنه في ( الشعر والشعراء ) كان حرا طليقا لا قيد عليه ، ولا مؤثر فيه إلا عقله وذاوقه

وحسه ، وفي ( التأويل ) إذ يتى رأيه على الاستعارة (١) ولست أدري ما هو مقصود الدكتور من الحرية التي افتقد لها ابن قتيبه في ( تأويل مشكل القرآن ) ؟ هل يعني بذلك أن القرآن فرض على ابن قتيبه قبول ألوان من الأساليب غير مقبولة ؟ كلا ، ان الأمر ليس كذلك ولكنها لفظة القرآن التي توجد الألفاظ فسي سياقها في حياة جديدة تستمد مقوماتها من السياق الذي وردت فيه ، ذلك السياق الذي <sup>كان</sup> متمركزاً عن كلام العرب الذين نزل القرآن بلسانهم .

وقبل أن أختم هذا الفصل أود أن أشير الى أنه وإن كنت أرفض صحة المصيار الذي قامت عليه فكرة المبالغة في تراثنا البلاغي والنقدي ، وما لحقها من سوء فهم تجاوز بها ما بهل عليه في اللفظة من بلوغ الغاية والنهائية في الممضى ، ان كنت أرفض ذلك فلمس معنى ذلك أن اللفظة الأدهمية تقبل كل قول يخلق فيه صاحبه في أودية الوهم ، وينأى به عن المعقول ، وإنما الذي تقبله من ذلك ما كان له في السياق وجود يظهر أصالته ، ويتناسق به مع غيره في التركيب اللغوي للكلام ، كما كان ذلك في كثير من الأمثلة التي ناقشناها في أثناء هذا البحث .

وأود أن أشير الى أن هناك ما يرفض من أدبنا الاسلامي لا لأن السبب فيه المبالغة ، ولكن لأن فيه ما يتعارض مع سلامة العقيدة .

فمن ذلك قول ابن هاني\* الأندلسي يمدح الخليفة المعز لدين الله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ      فاحكم فأنت الواحدُ القهارُ

وكأنما أنت النبيُّ محمدُ      وكأنما أنصاركُ الأنصارُ

أنت الذي كانت تبشّرنا به      في كتبها الأخبارُ والأخبارُ (٢)

وقول علي بن جبلة في مدح أبي دلف :

أنت الذي تنزلُ الأيامَ منزلها      وتنقلُ الدهرَ من حالٍ إلى حالٍ

وما مددت مدى طرفٍ إلى أحدٍ      إلا قضيت بأرزاقٍ وأجـالٍ (٣)

وقول أبي نواس :

يا أحمد المرتجى في كل نائبةٍ      قم سيدي بمصبي جبارِ السمواتِ (٤)

(١) المرجع السابق : ٢٢٧ (٢) ديوان الحسن بن هاني\* : ١٤٦

(٣) الشعر والشعراء : ٥٥١ (٤) ديوان ابي نواس : ١٧٤

## ( الخاتمة )

اني لأحمد الله العلي القدير على نعمه التي لا تحصى ، وما هياؤه لسي من أسباب لإكمال هذا البحث ، الذي درست فيه " المبالغة في البلاغة العربية " في ثلاثة أبواب ، حيث تتبعت في الباب الأول ، المبالغة في اللفظة وفي استعمالات النقاد والبلاغيين ، وغيرهم من اللغويين والمتكلمين ، حيث وجدت أنها لا تعني في اللفظة إلا بلوغ الغاية والنهاية ، ولا تتجاوز ذلك إلى ما اقترن بها عند النقاد والبلاغيين من الإسراف ، والإفراط ، والكذب والادعاء .

وظلت محافظة على هذه الدلالة في استعمالها في اللفظة المفردة كما رأينا عند الخليل وسيبويه ، وابن جنى ، والشالبي ، وغيرهم حتى إذا وصلنا إلى البيهقي السبكي المتوفى سنة ٧٦٣ هـ وجدناه يتجاوز بهذه الدلالة لها في اللفظة إلى الإسراف والادعاء .

وأما استعمالاتها في التراكيب فقد خضعت للمفهومين ، بل إن اقترافها بالادعاء والإسراف ، والكذب كان هو المفهوم الغالب ، وكان فيه مخرجا لتأويلات المعتزلة ومن إليهم .

وأما الباب الثاني فدرست فيه " أساليب المبالغة " حيث تناولت أشهر تلك الأساليب ، وبيّنت في كل أسلوب قضية إدخاله تحت " المبالغة " وماذا يعنون بها فيه ، فإن كانوا يعنون بها الادعاء والإفراط ، والكذب ، رفضتها وبيّنت بطلان الأساس الذي قام عليه ذلك التفسير في الأسلوب ، وإن كانوا لا يعنون به إلا بلوغ الغاية في تأدية المعنى المراد ، بيّنت أن ذلك التفسير لا يكفي لبيان وظيفة ذلك الأسلوب داخل السياق الذي جاء فيه .

وأما الباب الثالث والأخير من هذا البحث فقد تناولت فيه ( مكانة المبالغة في البلاغة العربية ) حيث تناولت في الفصل الأول : شيوع التعليل بالمبالغة وأسبابه ، حيث استنتجت أن هذه الأسباب تعود إلى عاملين رئيسيين هما :

## ١ - فرة صياغة المعنى :

وهو الأمر الذي استقر في تراثنا البلاغي والتقدي ، حيث تصوروا أن الصيغة التي يخرج عليها الكلام تعبر عن معنى سابق ، بيّته حدوده ومعالمه ، ثم تفصل هذه الصيغة على تلك الحدود والمعالم ، فما طابق منها كان حقا وصدقا ، وما زاد عن ذلك كان مبالغة وإفراطا ، وادعاء .

تحكيم العقل والواقع الخارجي في الأداء اللغوي :  
وهو أمر طاف بالأداء اللغوي في تراثنا ، فمزقه ، ورمى بإبداعه ، وتفسرده  
في أودية المجاز ، والمبالغة ، اللذين كانا من وسائل التبرير لخروج الأداء  
عن نسقه الذي يفترض أن يكون عليه ، لي مطابق الواقع الخارجي ، ويساهم  
المعقول ، ومن هنا كان الحكم بالمبالغة على بعض آيات القرآن الكريم كقوله  
تعالى " ولفيت القلوب الحناجر " (١) التي أوجبوا فيها ما ليس منها حيث  
أوجبوا فيها إضمار " كاد " .

وأما الفصل الثاني : فحاولت أن أثبت في مواقف من المبالغة ، حيث  
درست فيه ( المبالغة بين القبول والرفض ) وحاولت أن أثبت الأسباب الداعية إلى  
قبولها ، والأسباب الداعية إلى رفضها .  
وهكذا يتبين لنا :

أن دلالة المبالغة في اللفظة لا تعني ما اقترن بها من إفراط ، وكذب ،  
وادعاء ، وأن هذه التهم التي اقترنت بها مبنية على أسس وافتراسات بعيدة كل البعد  
عن طبيعة لفة العمل الأدبي والفني الذي تتحرك فيه الألفاظ في وجود وسياق خاص ،  
حيث تكتسب من خلال وجودها في السياق حياة أخرى تتجاوز المعنى الوضعي الذي  
يتصور أن وضعها أصل فيه ، وأن تجاوزها إلى غيره مجاز أو مبالغة .  
ومن هنا كان علينا أن نرفض هذه المبالغة التي تقترن بهذه التهمة في تفسير  
كتاب الله الكريم ( الذي لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه ) .

وأما تلك المبالغة الباقية دلالتها وفق استعمالها في اللفظة فلا ضير من  
التعامل بها في التفسير والدراسات النقدية والبلاغية ، مع مراعاة قصورها في تفسير  
وتحليل العمل الأدبي . ولن أدعي أن هذه النتائج التي توصلت إليها نهائية ، وما  
أستطيع أن أقوله هو أن هذه النتائج جاءت عن طريق التتبع والاستقراء ، والاستنتاج  
والمقارنة كما يظهر من ثنايا هذا البحث ، فان أصبت فله الحمد والمثمة على توفيقه  
وإن جانبني الصواب فيكفيني من هذه المحاولة التنبيه إلى خطورة استعمال هذا  
" المصطلح " بمفهومه الخاطيء في الحكم على قرآنا الكريم ، وتراثنا العربي الأصيل  
ولكل مجتهد نصيب .

( ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت  
الوهاب ) صلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

( فهرس المصادر والمراجع )

الأمـدى ( أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ) :  
— الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري .  
تحقيق السيد احمد صقر — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر  
سنة ١٣٩٢ هـ .

ابن الأثير ( أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم المعروف  
بأبن الأثير )  
— العطل السائر في أدب الكاتب والشاعر .  
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد — مطبعة مصطفى البابي  
الحلبي سنة ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م .

الأزهري ( أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى )  
— تهذيب اللفظة .  
تحقيق : عبد السلام محمد هارون — دار القومية للطباعة  
سنة ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م .

د . احمد ابراهيم موسى :

— الصغ البديعي في اللفظة العربية .  
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر — القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م

د . احمد عبد السيد الصاوى :

— النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني  
الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩ م .

ابن أبي الاصبغ ( المصرى ) :

— بديع القرآن

تقديم وتحقيق د . حفني محمد شرف — الطبعة الثانية — دار نهضة  
مصر .

— تحرير التحبير

تحقيق د . حفني محمد شرف — المجلس الأعلى للشئون الاسلامية  
القاهرة ١٣٨٣ هـ



الأصفهاني ( أبو بكر محمد بن أبي سليمان داود الأصفهاني )  
- الزهرة .

نشر الدكتور : لويس نيكول البوهيمي - مطبعة الآباء اليسوعيين -  
بيروت سنة ١٩٣٢ م .

الألوسي ( أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي )  
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثاني .  
دار احياء التراث العربي - بيروت .

الباقلاني ( أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ) :  
- اعجاز القرآن  
تحقيق السيد احمد صقر - الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر

د . يدوي طهانة :

- قدامة بن جعفر والنقد الأدبي  
الطبعة الثالثة - مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

التفتازاني ( سعد الدين التفتازاني )  
- مخبر السعد على تلخيص المفتاح .  
ضمن شروح التلخيص - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

ابن تيمية ( تقي الدين احمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية )  
- الايمان .

الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩ هـ - المكتب الاسلامي - بيروت .  
- مقدمة في التفسير .

تحقيق د . عدنان زرزور - دار القرآن الكريم - الكويت  
- الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ .

الثعالبي ( عبد الطك بن محمد بن اسماعيل أبو منصور الثعالبي النيسابوري )  
- فقه اللغة وسر العربية

تحقيق : مصطفى السفار - ابراهيم اليباري - عبد الحفيظ شلبي  
الطبعة الأخيرة - ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م - مكتبة ومطبعة مصطفى  
الحلبي .

- يتيمة الدهر .

تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . دار الفكر العربي -  
بيروت - الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣ م - ١٣٩٢ هـ .

ثعلب ( أبو العباس أحمد ثعلب )

— قواعد الشعر .

شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الأولى  
سنة ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٨ م ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي

د . جابر أحمد عصفور .

— الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي .

دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٤ م .

الجاحظ ( أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ )

— الحيوان .

تحقيق : عبد السلام محمد هارون — دار الفكر العربي — بيروت

سنة ١٩٦٩ م — ١٣٨٨ هـ .

— الهجان والتبيين .

تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون — الطبعة الثالثة —

مؤسسة الخانجي بالقاهرة .

جان بول سارتر .

— ما الأدب .

ترجمة وتقديم وتعليق : د . محمد غنيمي هلال — دار نهضة مصر

للطباعة والنشر بالقاهرة .

الجرجاني ( القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني )

— الوساطة بين المتبني وخصومه .

تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم — علي محمد البجاوي —

مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

ابن جنني ( أبو الفتح عثمان بن جنني )

— الخصائص .

تحقيق : محمد علي النجار — الطبعة الثانية — دار الهدى

للطباعة والنشر — بيروت .

— المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها .  
تحقيق : علي النجدي ناصف — د . عبد الفتاح اسماعيل شلبي  
واشترك معهما في تحقيق الجزء الأول د . عبد الحلیم النجار —  
لجنة احياء التراث الاسلامي — القاهرة ١٣٨٩هـ — ١٣٦٩م

الحاتمي ( أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي )

— الرسالة الموضحة

تحقيق د . محمد يوسف نجم — بيروت سنة ١٣٨٥هـ — ١٩٦٥م

ابن حجة الحموي ( تقي الدين أبو بكر علي )

— خزانة الأدب — دار القاموس الحديث — بيروت .

أبو حيان ( أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي )

— البحر المحيط . الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م — دار

الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

أبو حيان التوحيدى ( علي بن محمد بن العباس التوحيدى )

— الامتاع والمؤانسة

تحقيق : أحمد أمين — أحمد الزين — دار مكتبة الحياة — بيروت

الخالديان ( أبو بكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم )

— الأشباه والنظائر .

تحقيق السيد محمد يوسف — لجنة التأليف والترجمة والنشر —

القاهرة سنة ١٩٥٨ — ١٩٦٥م .

بن خالوية ( أبو عبد الله الحسن بن خالوية )

— ديوان أبي فراس .

دار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م .

الخنساء ( تماضر بنت عمرو )

— ديوان الخنساء .

دار صادر — بيروت .

الدسوقي

( محمد بن محمد بن عرفه الدسوقي )

— حاشية الدسوقي على مختصر السعد .

ضمن شروح التلخيص — مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

د . د . رجا عيـد .

— فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور .

طبع منشأة المعارف بالاسكندرية .

ابن رشيق ( أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي )

— الصمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .

تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد — الطبعة الرابعة

سنة ١٩٧٢ م — دار الجيل — بيروت .

الرماني ( أبو الحسن علي بن عيسى الرماني )

— النكت في اعجاز القرآن .

ضمن ( ثلاث رسائل في اعجاز القرآن )

حققها وعلق عليه : محمد خلف الله — د . محمد زغلول

سلام — الطبعة الثالثة — دار المعارف بمصر .

ريتشاردز .

— مبادئ النقد الأدبي .

ترجمة مصطفى بدوي — المؤسسة المصرية العامة للتأليف — القاهرة

١٩٦٣ م .

الزركشي ( الامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي )

— المهرمان في علوم القرآن .

تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم — دار المعرفة — بيروت .

الزمخشري ( ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي )

— أساس البلاغة

دار مطابع الشعب — القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

— الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه

التأويل .

رتبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد — الطبعة الثانية —

مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٣ م .

السبكي ( بهاء الدين ابو حامد أحمد بن تقي الدين السبكي )

— عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح  
ضمن شروح التلخيص — مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

السبكي ( تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي )

— طبقات الشافعية  
تحقيق : محمود محمد الطناحي — عبد الفتاح محمد الحلو  
الطبعة الأولى بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

السكاكي ( أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي )

— مفتاح العلوم .  
طبع دار الكتب العلمية — بيروت .

ابن سنان ( الأمير ابو محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي )

— سر الفصاحة .  
صححه وعلق عليه : عبد المتعال الصعيدي ، مطبعة محمد علي  
صبيح وأولاده بمصر سنة ١٣٧٢هـ — ١٩٥٢م .

سيويه ( أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر )

— الكتاب  
تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون — دار القلم .

سيد قطب

— في ظلال القرآن  
الطبعة السابعة — دار الشروق — جده

بن سيده ( علي بن اسماعيل بن سيده )

— المحكم والمحيط الأعظم في اللغة .  
تحقيق د . ابراهيم الابيارى — الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ —  
١٩٧١م شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

السيوطي ( عبد الرحمن جلال الدين السيوطي )

— المزهر في علوم اللغة وأنواعها .  
شرح وضبط : محمد احمد جاد المولى — علي محمد الجادى  
محمد أبو الفضل ابراهيم — نشر دار احياء الكتب العربية — طبع  
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .



د . عبد الفتاح لاشين :

- بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار  
— ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي — مطبعة دار القرآن —  
القاهرة .

د . عبد القادر حسين :

- أثر النحاة في البحث البلاغي  
— دار نهضة مصر للطبع والنشر .

عبد القاهر الجرجاني :

- أسرار البلاغة :  
شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي — الطبعة الثانية  
١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م — مكتبة القاهرة .  
— دلائل الاعجاز  
تصحيح وتعليق : السيد محمد رشيد رضا — دار المعرفة —  
بيروت سنة ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

أبو عبيدة ( محمربن المشني )

- مجاز القرآن  
تحقيق : محمد فؤاد سزكين — مطبعة الخانجي — القاهرة —  
١٩٥٤ م .

المسكري ( أبو احمد الحسن بن عبد الله العسكري ) :

- المصون في الأرب .  
تحقيق : عبد السلام محمد هارون — الكويت — سنة ١٩٦٠ م .

المسكري ( أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري )

- ديوان المعاني  
نشر مكتبة المقدسي — القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .  
— الصناعتين ( الكتابة والشعر )  
تحقيق : علي محمد البجادي — محمد أبو الفضل ابراهيم —  
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

ابن عقيل ( قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري )

— شرح ابن عقيل .

تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد — الطبعة المشرونة

سنة ١٤٠٠ هـ .

المكبري ( أبو البقاء العكبري )

— التبيان في شرح الديوان

ضبطه وصححه : مصطفى السقا — ابراهيم اليباري — عبد

الحفيظ شلبي .

طبعة الأوفست — دار المعرفة — بيروت سنة ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٨ م

الملوي ( الامام يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي اليمني )

— الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز .

نشر دار الكتب العلمية — بيروت سنة ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م .

د . علي محمد حسن العماري :

— بلاغة الرسول — طبع دار الأنصار بالقاهرة .

— المعاني بين القصد والافراط — بحث نشر في مجلة البحث

العلمي والتراث الاسلامي — العدد الرابع سنة ١٤٠١ هـ .

عمر بن أبي ربيعة :

— ديوان عمر بن أبي ربيعة .

دار صادر — دار بيروت — سنة ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م .

الفيروز آبادي ( محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي )

— القاموس المحيط .

طبع مؤسسة الحلبي وشركاه — القاهرة .

القالبي ( أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي )

— الأمالي .

طبع دار الفكر — بيروت .

ابن قتيبة ( أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة )

— تأويل مشكل القرآن .

شرح ونشر : السيد احمد صقر — الطبعة الثانية — دار التراث

القاهرة .



— الشعر والشعراء .

طبعة مدينة ليدن سنة ١٩٠٢ م .

القرطاجني ( حازم القرطاجني ) :

— منهاج البلغاء وسراج الأرباب .

تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه — دار الكتب الشرقية — تونس

١٩٦٦ م .

القزويني ( جلال الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن امام

الدين القزويني الطبق بالخطيب ) :

— الايضاح . طبع مطبعة محمد علي صبيح وأولاده — مصر —

واعتمدت أيضا على الايضاح ضمن شروح التلخيص وأشرت الى ذلك

في الهامش .

قدامة بن جعفر ( أبو الفرج قدامة بن جعفر )

— نقد الشعر .

تحقيق وتعليق د . محمد عيد المنعم خفاجي — الطبعة الأولى —

سنة ١٣٦٩ هـ — ١٩٧٩ م .

ابن كثير ( الامام عطاء الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

— تفسير القرآن العظيم .

طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه .

كمال أبو ديب :

— جدلية الخفاء والتجلي ( دراسات نيبوية في الشعر )

الطبعة الأولى عام ١٩٧٩ م — دار العلم للملايين

د . لطفى عبد البديع :

— التركيب اللغوي للأدب .

الطبعة الأولى — مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ م .

— فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث .

نشر مكتبة النهضة المصرية — طبع بمطبعة السنة المحمدية .

المجرد ( أبو العباس محمد بن زيد المعروف بالمجرد النحوي ) :

- الكامل في اللغة والأدب .
- نشر مكتبة المعارف — بيروت .

متى بن يونس ( أبو بشر متى بن يونس القناني )

- كتاب ارسطوطاليس في الشعر .
- تحقيق ودراسة : د . شكرى عياد — دار الكتاب العربي —  
القاهرة ١٩٦٧ م .

د . محمد حسين أبو موسى :

- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات  
الهلالية .
- دار الفكر العربي — القاهرة .
- التصوير البياني ( دراسة تحليلية لمسائل البيان )  
الطبعة الثانية سنة ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م — دار التضامن  
للطباعة — القاهرة .

د . محمد زغلول سلام :

- ضياء الدين بين الأثير وجهوده في النقد .
- نشر وطبع مكتبة نهضة مصر .

د . محمد زكي العشماوى :

- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث .
- دار النهضة العربية — بيروت — سنة ١٩٧٩ م .

د . محمود السيد شيخون :

- الأسلوب الكنائسي
- الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م — مكتبة الكليات الأزهرية

المرتضى ( الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوى العلوى )

- أطالي المرتضى ( غرر الفوائد ودرر القلائد )
- تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم — دار احياء الكتب العربية
- عيسى الباهي الحلبي ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م

المرزباني ( ابو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني )

— الموشح ( مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر )

تحقيق : علي محمد البجاوي — دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥ م .

د . مصطفى ناصف :

— الصورة الأدبية . دار مصر للطباعة .

ابن الممـتـز ( عبد الله بن المعتز )

— كتاب البديع .

نشر وتعليق اغناطيوس كراتشكوفسكي — منشورات دار الحكمة —

دمشق —

المفـريـي ( ابن يعقوب المفري ) :

— مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح .

ضمن شرح التلخيص — مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

ابن منظر ( جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري )

— لسان العرب .

طبعة مصورة عن طبعة بولاق — الدار المصرية للتأليف والترجمة .

د . مهدي صالح السامرائي :

— تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية .

الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م — المكتب الاسلامي —

دمشق .

الميدانسي ( أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم الميداني )

— مجمع الأمثال .

تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السنة المحمدية

سنة ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .

أبو نواس ( الحسن بن هانئ ) :

— ديوان أبي نواس .

تحقيق : احمد عبد المجيد الغزالي — مطبعة مصر سنة ١٩٥٣ م .

ابن هانسيه ( الحسن بن هانسيه الأندلسي ) :

— ديوان ابن هانسيه الأندلسي — بيروت سنة ١٣٨٤هـ — ١٩٦٤م

ابن يعيش ( موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي ) :

— شرح المفصل .

عالم الكتب — بيروت — مكتبة المتنبّي — القاهرة .

## ( فهرس الموضوعات )

الصفحة	الموضوع
أ - ٥	مقدمة
	الباب الأول :
١٠٨ - ١	التطور التاريخي لفكرة المبالغة ومصطلحاتها
٣	تعهد : المعنى اللغوي للمبالغة
	الفصل الأول :
٥٢ - ٥	استعمال المبالغة وتطور مصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجري
٥	بداية التسمية بلفظ ( المبالغة )
٨	المبالغة في نقد الجاهلية وصدرا الاسلام
١١	المبالغة في التأليف النقدي والبلاغية
١١	١ - المبالغة في بدايات التأليف النقدي والملاغي
١٤	٢ - عند قدامة بن جعفر
١٨	٣ - عند الأمامي
٢٢	٤ - عند الرطاني
٢٩	٥ - عند ابن جني
٣٩	٦ - عند أبي هلال
٤٧	٧ - عند الهاقلاني
٤٨	٨ - عند نقاد آخريين
	الفصل الثاني :
٩٧ - ٥٣	المبالغة ومصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجري
٥٣	١ - القاضي عبد الجبار
٥٦	٢ - ابو منصور الثعالبي
٦٠	٣ - الشريف المرتضى
٦٣	٤ - ابن رشيق القيرواني
٧١	٥ - ابن سنان الخفاجي
٧٨	٦ - عبد القاهر الجرجاني
٩١	٧ - الزمخشري
	الفصل الثالث :
١٠٨ - ٩٨	المبالغة عند المتأخرين

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٩٨	١ - ابن الأثير
١٠٢	٢ - مدرسة التلخيص وشروحه
١٠٥	٣ - الامام العسوي
	الباب الثاني :
١٠٩ - ١٩٥	أساليب المبالغة في البلاغة العربية الفصل الأول :
١١١ - ١٤٨	المبالغة في علم البهيمان
١١١	١ - المبالغة في التشبيه
١٢٦	٢ - المبالغة في الاستعارة
١٣٦	٣ - المبالغة في الكناية
١٤١	معنى "أبلغ" في قولهم : المجاز أبلغ من الحقيقة الفصل الثاني :
١٤٩ - ١٧٦	المبالغة في علم المعاني
١٤٩	١ - المبالغة في الاطناب
١٧٣	٢ - المبالغة في القصص الفصل الثالث :
١٧٧ - ١٩٥	المبالغة في علم الهدى
١٧٧	١ - مبحث المبالغة وعلم الهدى عند المتأخرين
١٨٣	٢ - المبالغة في حسن التعليل
١٩١	٣ - تجاهل العارف
١٩٣	٤ - تأكيد المدح بما يشبه الذم الباب الثالث :
١٩٦ - ٢٤٠	مكانة المبالغة في البلاغة العربية الفصل الأول :
١٩٨	شروع التعليل بالمبالغة وأسبابه
١٩٨	١ - فكرة صياغة المعنى
٢٠٩	٢ - تحكيم العقل والواقع الخارجي في الأدب اللغوي الفصل الثاني :
٢٢٢ - ٢٤٠	المبالغة بين القبول والرفض
٢٤١	الخاتمة
٢٤٣	فهرس المصادر والمراجع